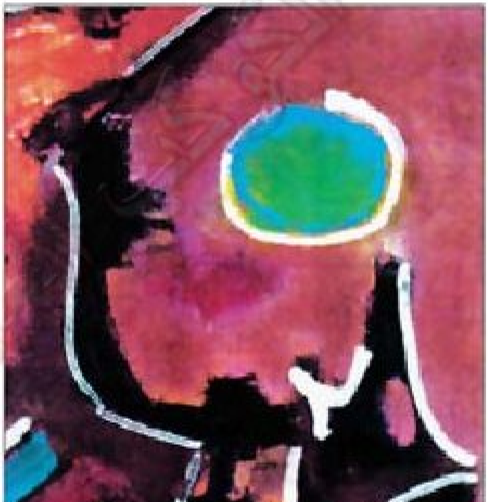
جورج أورويل

الصعود إلى الهواء

رواية



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الفارابي

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت ـ الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقف لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

جورج أورويل

الصعود إلى الهواء

رواية

ترجمة: أسعد الحسين

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

القسم الأول

1

خطرت الفكرة لي يوم وضعت فيه طاقم أسناني الاصطناعية الجديدة. وإني أتذكر ذلك الصباح جيداً، ففي الثامنة إلا الربع منه هرولت من الفراش مسرعاً لأدخل الحمام قبل أن يشغله الأولاد. كان صباحاً قاسياً ومقيتاً من أيام كانون الثاني (يناير) بسمائه الرمادية المصفرّة العكرة، ورأيت من نافذة الحمام المربعة الصغيرة ما أسميناه حديقة خلفية والتي هي عبارة عن مستطيل من العشب لا تتجاوز أبعاده العشرة ياردات طولاً بخمسة عرضاً وفي وسطها بقعة جرداء مسوّرة بنبات الجناب؛ وإنك لتجد مثل هذه الحديقة في كل بيت من بيوت منطقة إيلسيميررود مع اختلاف وحيد وهو غياب تلك البقع إن لم يكن في العائلة أولاد صغار.

كنت أجهد كي أحلق ذقني بشفرة حلاقة لم تكن تساعدني كثيراً بينما والماء ينساب في الحمام. نظرت إلى

وجهي في المرآة فرأيت في الأسفل طاقم الأسنان المؤقتة على رف المغسلة الصغير داخل قدح من الماء، وقد أمّنها لي الطبيب وورنر إلى أن يتم تصنيع طاقم أسنان جديدة دائمة لي. في الحقيقة إنّ وجهي ليس قبيحاً جداً فهو بحمرة القرميد وشعري أصفر بلون الزبدة وعيناي زرقاوان باهتان، وحمدت الله لأن شعري لم يخطه الشيب، ولم يتمكّن منه الصلع، وهكذا بعد أن أضع طاقم أسناني الجديدة فقد لا أبدو في السادسة والأربعين وهو عمري الحقيقي.

دوّنت في مفكرتي أن اشتري شفرات حلاقة جديدة، ثم بدأت في استخدام الصابون فغسلت ذراعي - بالمناسبة هما قصيرتان وسمينتان ومبقعتان بالنمش حتى الكوعين - تناولت فرشاة الظهر وغسلت لوحي الكتفين اللذين لا أتمكن منهما عادةً مما سبب لي الإزعاج، لكنهما ليسا الوحيدين فقط، فأنا لا أتمكن من مناطق كثيرة من جسدي حالياً لأنني أصنف من الأشخاص البدناء. لا أقصد بذلك من يعرضون في المعارض للتسلية، فوزني لا يزيد عن أربعة عشر حجراً وخصري بلغ الثمانية أو التاسعة والأربعين في آخر مرة قسته فيها، كما أنني لست من السمينين المقرفين، فكرشي لا تتدلى حتى الركبتين إنما أنا عريض الأرداف فقط وشكلي اسطواني كالبرميل.

هل تعرف ذلك النموذج النشيط الطيب القلب أو

الرياضي الضخم الذي يمثل دائماً روح الفريق وحياته ويكنّونه بالمعضّل أو المتين، هذا هو صنفي، وتخاطبني غالبية الناس بولينغ السمين، واسمي هو جورج بولينغ.

في تلك اللحظة لم أشعر بأنني روح الفريق ولا حياته، بل كنت عرضة للشعور بالنكد الدائم الذي ينتابني منذ الصباح الباكر علما أنني أنام وأهضم طعامي جيداً. لقد عرفت السبب، إنها أسناني المؤقتة اللعينة الموضوعة في القدح، والتي بدت وهي في الماء كأنها أسنان جمجمة ميتة تولد فيك شعوراً بالألم والتعفن مثل قضم تفاحة مرة. علاوة على ذلك تشكل الأسنان المؤقتة نقطة تحول هامة، فعند سقوط آخر أسنانك الطبيعية، تبدأ بتصغير عمرك مثل عجائز هوليوود مما يشير إلى النهاية المحتومة والمؤكدة. أنا رجل بدين في الخامسة والأربعين، وعندما أقف لأغسل حوضي من الطبيعي أن انظر إلى جسدي لذلك فإنّ كل ما يقال إنّ البدناء لا يستطيعون رؤية أقدامهم هراء. إذ في الحقيقة أستطيع أن أرى قدمي الأماميتين حتى النّصف عندما أقف لأستحم. ولا يمكن لامرأة أن تعيد النظر إلي إلا إذا تقاضت مالاً مقابل ذلك. فكرت بهذا الأمر، وأنا أضع الصابون وأستحمّ.

خلت أنني في مزاج أفضل هذا الصباح وذلك لعدة أسباب أولها أنني لن أذهب للعمل هذا اليوم لأن السيارة القديمة التي استخدمها كانت قيد الإصلاح . عليّ إن أخبركم

أنني أعمل لدى شركة فلايينغ سالامندرز للتأمين على الحياة والحريق والسطو وغرق وتحطم السفن وكل شيء، ويجب أن اذهب إلى لندن لإيصال بعض الأوراق، فأخذت إجازة لأجلب أسناني الجديدة، وكان في بالي، إلى جانب ذلك عمل آخر تراودني فكرته، عمل يأتي من الماضي ثم يغيب. إنه يتعلق بسبعة عشر جنيهاً أخفيتها عن العائلة، وحدث الأمر على الشكل الآتي: كان يعمل في الشركة معي رجل اسمه ميلورس، وهو مشغوف بالمراهنة، وقد استحوذ على كتاب بعنوان (علم الفلك المطبق على سباقات الخيل) الذي أثبت فيه أن الفوز يتعلق بتأثير الكواكب على ألوان ثياب الفارس، وفي السباق مهرة تدعى كروسير برايد لا حظّ لها في الفوز سوى لون ثياب فارسها الخضراء اللون التي كانت تتماشى مع لون الكواكب وهي في ذروة سطوعها. راهن ميلورس الخاسر بأعماله الفلكية بعدة جنيهات على تلك المهرة وتوسل إلي كثيراً لأحذو حذوه، ولكي أتخلّص من إلحاحه المتواصل، غامرت بعشرة شلنات رغم أنني لا أراهن من حيث المبدأ العام.لا أدري إن عادت المهرة إلى موطنها مشياً، فانا لا أذكر التفاصيل الدقيقة لكن في النهاية أصبحت حصتي سبعة عشر جنيهاً وبدافع غريزي وضعت النقود في البنك دون أن أخبر أحداً مما يشير إلى نقطة تحول هامة أخرى في حياتي لأنني لو كنت زوجاً أو أباً صالحاً لصرفت

تلك النقود في شراء ثوب لهيلدا وأحذية للأولاد، لكنني بعد خمسة عشر عاماً من الزواج سئمت من لعب ذلك الدور.

تحسن شعوري بعد أن غسلت كل جسدي بالصابون فاستلقيت في الحمام وأنا أفكر في تلك الجنيهات وكيف سأنفقها، فبدت لي خيارات كثيرة، إما أن اذهب في إجازة مع امرأة أو أضيعها على النثريات كالسيجار وزجاجات الويسكي الكبيرة. فتحت الصنبور للحصول على كمية أكبر من المياه الساخنة وأنا أفكر في النساء والسيجار، عندها سمعت ضجة مدوية كقطيع من الأبقار الوحشية يهبط الدرجتين المؤديتين إلى الحمام، إنهم الصغار طبعاً، فولدان في بيت صغير بحجم بيتنا يشبه كمية كبيرة من الجعة في قدح صغير. لقد علا صوت طرق الباب مصحوباً بصرخة ألم:

- أريد الدخول يا أبي.

- حسناً، لا يمكنك ذلك، انصرف.

- لكن يا أبي أريد الدخول إلى مكان آخر.

- إذاً اذهب إلى المكان الآخر. فأنا استحمّ.

لا فائدة ترجى من ذلك، فأنا اعرف إشارة الخطر. في بيتنا يقع المرحاض في غرفة الحمام حاله حال البيوت الأخرى المماثلة. انتزعت سدادة الحمام وعلقتها ثم جففت جسدي بأسرع ما يمكن، وفتحت الباب فاندفع بيلي الصغير ذو السبع سنوات متفادياً لكمة سددتها إلى رأسه. لبست ثيابي

وأنا أبحث عن ربطة العنق فاكتشفت أن رقبتي مبللة بالصابون.

عندما تكون رقبتك مبللة بالصابون فهي تسبب لك شعوراً مزعجاً لزجاً ومسبباً للغثيان يلازمك طوال اليوم مهما حاولت التخلّص منها. نزلت إلى الطابق الأرضي وأنا في مزاج سيء ومستعد للعراك.

غرفة الطعام في بيتنا نسخة عن كل الغرف الأخرى في إيلسيمير، فهي صغيرة وضيقة طولها اثنتا عشر قدماً وعرضها عشر أقدام ولم تترك فيها خزانة السنديان التي نضع فيها أدوات المطبخ ودورقي الخمر الفارغين ومسند البيض الفضي الذي قدمته لنا أم هيلدا هدية في مناسبة زواجنا أي فسحة.

وقفت هيلدا خلف إبريق الشاي عابسة تسيطر عليها حالة من القلق والرعب المعتادين لأن صحيفة نيوز كرونيكل ذكرت أن سعر الزبدة سيرتفع أو شيئاً من هذا القبيل. كان الجو بارداً جداً ولم تكن النار مشتعلة في الموقد والنوافذ مغلقة أيضاً. انحنيت لاهثاً لأشعل النار بعود ثقاب -كان الانحناء يسبّب لي اللهاث والعطس- فرمقتني هيلدا بنظرة بطرف عينها كما اعتادت عندما أقوم بعمل فيه بعض الإسراف.

هيلدا الآن في التاسعة والثلاثين من عمرها، وعندما عرفتها للمرة الأولى كانت تشبه الأرنب - ولا تزال كذلك - إلا أنها أضحت نحيلة جداً وذابلة ومكتئبة، وترى قلقاً دائماً

في عينيها، وعندما يفيض الكيل لديها تحدب كتفيها وتشبك ذراعيها كعجوز غجرية أمام الموقد. إنها من الأشخاص الذين تكمن موهبتهم ومتعتهم الأساسية في الحياة باستباق وقوع المصائب الصغيرة فقط لأنها لا تهتم بالكبيرة منها كالحروب والمجاعات والزلازل والأوبئة والثورات، فكل ما يهمها هو أسعار الزبدة المرتفعة وفواتير الغاز الضخمة وأحذية الأولاد البالية وما تبقى من أقساط المذياع. وكانت تبدي احتجاجها على ما اعتبره متعة المشي ذهاباً وإياباً فتردد ابتهالاتها المتكررة:

- (لكن يا جورج هذا خطير، لا أعرف ماذا سنفعل ولا من أين سنأتي بالنقود، يبدو أنك لا تدرك فداحة الموقف، سينتهي بنا المطاف إلى الملجأ).

هذا الخوف راسخ في عقلها، الشيء المضحك في الأمر هو أنه حتى لو حدث ذلك، فان قلق هيلدا لن يساوي ربع قلقي، لا بل قد تشعر أنها في أمان أكبر هناك.

كان الأولاد في الطابق الأرضي قد اغتسلوا ولبسوا بسرعة ضوئية كعادتهم عندما لا تتوافر الفرصة في إبعادهم عن الحمام. توجهت نحو طاولة الطعام وهما يتجادلان حول شيء ما.

- نعم فعلت.

- كلا، لم أفعل.

- لا ، بل فعلت.

- لا ، لا ، لم أفعل.

بدت هذه المماحكة بين بيللي ذي السبع سنوات ولورا ذات الإحدى عشرة أنها ستستمر إلى نهاية اليوم إن لم أضع لها حداً. إنني أحس بشعور خاص نحو الأولاد فلا أستطيع تحمل جدالهم، ففي مثل أعمارهم الصغيرة جل ما يهمهم أشياء مثل المساطر وعلب الأقلام، ومن أحرز درجة عالية في اللغة الفرنسية، لكن في أوقات أخرى وعندما يكونان نائمين ينتابني شعور مختلف كلياً، فأقف عند أسرّتهم في أمسيات الصيف المنيرة، وأنظر إليهما وهما نائمان بوجهيهما الأحمرين المدورين وشعرهما الملون بظلال كثيرة، إنه شعور مماثل لما تحسه وأنت تقرأ في الإنجيل (أعماقكم تشتاق) فأشعر في تلك المرات كأنني قرن بذرة جافة لا يساوي قرشاً حيث تكمن أهميتي الوحيدة في تربية وإطعام هذين المخلوقين حتى يكبرا، لكن هذا الشعور لا يدوم طويلاً ويحل محله الشعور بكياني المنفصل وأهميته، وأنَّ شعلة الحياة والنشاط لم تنطفئ في الرجل الهرم فأتوقّف عن الرضوخ إلى فكرة البقرة الحلوب الأليفة التي تدر اللبن للزوجة والصغار. لم نتحدث طويلاً أثناء الإفطار لأن هيلدا كانت في مزاج (لا أدري ماذا سنفعل) بسبب أسعار الزبدة وإجازة رأس السنة الوشيكة والخمسة جنيهات المتبقية من قسط المدرسة للفصل

الدراسي الأخير. تناولت بيضة مسلوقة وأخذت قطعة خبز لأضع فوقها المربى من ماركة التاج الذهبي الذي كانت تصر هيلدا على شرائه لان سعره خمسة قروش. ويقول ملصق العلبة وبخط ناعم إن القانون يجيز أن تكون في المربى نسبة من عصير الفاكهة المحايدة التي لا أعرف أين تزرع ولا حتى كيف تبدو. غضبت هيلدا دون اهتمام لمقاطعتها فهي تعتقد بطريقة غامضة بأنه لا يجوز السخرية من أشياء توفر عليك نقوداً.

ألقيت نظرة على الجريدة التي خلت من الأخبار الكثيرة رغم أن الناس يقتلون بعضهم بعضاً من اسبانيا إلى الصين حيث تقرأ فيها كالعادة: العثور على ساق امرأة في صالة انتظار إحدى محطات القطارات وزواج الملك زوغ يتأرجح في كفتي ميزان. أخيراً وفي حوالى العاشرة انطلقت نحو البلدة في وقت مبكر أكثر مما كنت أحسب.

كان يوماً بارداً وجافاً. هبت عليّ ريح كريهة وأنا أخطو خارج البيت فالتصقت برقبتي المبللة بالصابون وأشعرتني فجأة بأن ثيابي غير ملائمة، وبأنني جسمي لزج من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.

2

هل تعرف إيلسيمير أو ويستبلشي؟ إنها المنطقة التي أعيش فيها وإن كنت لا تعرفها فمن المؤكد أنك تعرف

خمسين منطقة أخرى مثلها. ولعلك تعرف أيضاً كيف امتدت تلك الشوارع في كل الضواحي القريبة والبعيدة منها؛ فهناك صفوف طويلة من البيوت نصف المعزولة الصغيرة حيث يصل الرقم في إيلسيمير إلى مائتين واثني عشر، ورقم بيتنا مئة وواحد وتسعون بواجهة جصّية وبوابة سوداء وسياج من الجناب ومدخل اخضر، ومن سكانها آل لوريل وميرتل وهوثورن ومون ابري وسون روبس وبيللي فو، وهي من نموذج متشابه وقد يشذّ بيت واحد من خمسين فيعتبر ساكنه معادياً للمجتمع، وينتهي أمره إلى الملجأ ثم يطلى بابه بالأزرق بدلاً من الأخضر.

كنت في مزاج غير سوي بسبب إحساسي باللزوجة التي تلف عنقي. غريب كم تهينك رقبتك اللزجة وتفقدك كل حيويتك، فكأنك تلبس حذاء انخلع نعله وأنت في مكان عام.

لم أكن مزهواً بنفسي هذا اليوم، وكنت كمن يقف بعيداً أراقب الناس وأنا أسير في الشارع بوجهي الأحمر المكتنز وأسناني المؤقتة وثيابي السوقية الرثة، فرجل مثلي يعجز عن الظهور بمظهر السيد، ولو رأيتني عن بعد مائتي ياردة لعرفت على الفور أنني اعمل في شركة تأمين أو بائع متجول، فثيابي التي ألبسها هي الزي الموحد لعامة الناس: بدلة رمادية من أردأ الأنواع ومعطف ازرق بخمسين شلناً وقبعة مدورة

كلاعب كريكت بدون قفازات، وكنت أبدو مثل بائع، وفي أفضل حالاتي وأنا ألبس بدلة جديدة وأدخن السيجار قد أبدو مثل ناشر أو سمسار مراهنات، أما في أسوأها فأبدو مثل بائع مكانس، وفي أحوالي العادية حالما تراني تعرف أنني واحد من الذين تبلغ مداخيلهم الخمسة عشر جنيهاً في الأسبوع، وإنني أمثل المعدل الوسطي لأهالي إيلسيمير. مشيت في الطريق فرأيت الرجال مكدسين في انتظار قطار الثامنة والواحد والعشرين، أما النساء فكنَّ يعملن على تدفئة أصابع أيديهن فوق مواقد غازية. اجتزت مسافة لا بأس بها من الشارع، إذ عندما يتسنى لك الوقت وتكون في مزاج جيد يمكنك رؤية أشياء تضحكك من أعماقك وأنت تمشي في شوارع الضاحية البعيدة منها والقريبة وتتأمل الحياة القائمة فيها.

منطقة إيلسيمير ليس لها شبيه في أي مكان آخر،فهي مثل سجن مؤلف من صف من الزنزانات وغرف التعذيب التي يقطنها فقراء مساكين بمداخيل لا تربو على الخمسة عشر جنيهاً في الأسبوع ويذل، ويتم إذلال الواحد منهم، ويُهان من قبل رئيسه في العمل كما تجثم زوجته على صدره مثل كابوس ثقيل وأولاده يمتصون دمه كالعلق، لكن رغم الهرج والمرج الكثير الذي يروي معاناة الطبقة العاملة، فأنا لست أسفاً على البروليتاريين، فهل تصورت بحاراً لا يستطيع النوم وهو يفكر بكيسه؟ يعاني

البروليتاريون جسدياً لكنهم يضحون أحراراً خارج العمل، لكن في كل واحدة من تلك الزنزانات التي في يلسيمير وغيرها يحيا فقير بائس لا يعرف طعم الحرية أبداً إلا وهو يغط في نوم عميق حالماً بأنه مطبق بخناق رئيسه، ويرميه في قاع بئر سحيقة ويوسعه ضرباً.

تكمن المشكلة الرئيسية في وهمنا بأننا نملك شيئاً قد نخسره حيث يظن تسعة إعشار أهالي إيلسيمير أنهم يملكون بيوتهم. إنها مع المناطق المحيطة بها جزء من خطة وعمل ابتزازي ضخم تحت اسم عقارات هيسبريدز التي تملكها جمعية التسليف البهيج للبناء، وهذه الجمعيات هي الأذكى في أعمال النَّصب والاحتيال في هذا العصر، فشركة التأمين التي أعمل لصالحها تمارس النّصب لكنه نصب مكشوف والأوراق كلها فوق الطاولة، أما في جمعيات البناء فإن ضحاياها يتوهمون أنها تقدم لهم خدمة وهنا يكمن سر غشها، فتضربهم بقسوة وهم يقبّلون يدها. أحياناً أتصور هيسبريدز العقارية تمثالاً ثنائي الجنس، لإله عملاق هو إله جمعيات البناء، نصفه العلوي يمثل مديراً إدارياً كبيراً ونصفه السفلي يمثل زوجة بشكلها العائلي تحمل في إحدى يديها مفتاح الملجأ طبعاً، وتحمل في اليد الأخرى وعاء قرني الشكل تخرج منه أشياء وهدايا مثل الراديوهات المحمولة وبوليصات التأمين على الحياة والأسنان الاصطناعية

وحبوب الاسبيرين والواقيات الذكرية وأسوار الحدائق الإسمنتية.

لكننا في الوقع لا نملك بيوتنا ملكية مطلقة حتى لو أكملنا دفع أقساطها إنما ملكية إيجار، ونحن ندفع ثمن هذه البيوت على شكل أقساط قيمة كل واحد منها خمسة وخمسون جنيهاً لمدة ست عشرة سنة، ولو دفع الثمن نقداً لكان ثلاثمائة وثمانون جنيهاً، أي أن الفائدة تصل إلى مائة وسبعين في المائة، ومن البديهي أن الجمعية تربح أكثر من ذلك بكثير إذ إنها تحت اسم مستعار مثل اسم ويلسون وبلوم تبني البيوت بنفسها وتشفط أرباح المواد الأولية، وتحت اسم بروكس وسكانر تنتج لنفسها الأبواب؛ لكن ما صعقنا وأذهلنا أكثر أن الجمعية لا تكمل أي صفقة حتى النهاية ولا تلتزم بشروطها، فعندما بنت إيلسيمير كان من المقرر أن تبقى حقولاً مكشوفة كملاعب للأطفال باسم مروج بلات - إذ لا يوجد شيء إما ابيض أو اسود - لكن من الواضح أن مروج بلات لن تبنى أبداً.

وست بلشي ضاحية نامية افتتحت فيها المعامل مثل راث ويل للمربيات وانجلو اميركان للدراجات الهوائية التي انتشرت في العالم عام 1933، وكان سكانها في ازدياد والإيجارات فيها في ارتفاع. لم أر أي شخصية من الشخصيات الكبيرة بمن فيهم هربرت كروم، لكن أتخيلهم وهم يطرحون السندات

الجديدة دون أي إضافة إلى رأس المال. فقد أرسل كروم البنائين وبدأوا بنصب البيوت في مروج بلات، فعلت صيحات الألم والاحتجاج وشكلت منظمة للدفاع عن المستأجرين لكن دون فائدة إذ إن محامي كروم أخمدوا قدراتنا خلال خمس دقائق وغطت البيوت كل مروج بلات. يستحق العجوز كروم لقب البارونية لأنه نجح في إيهامنا بالنصب والاحتيال أننا نملك بيوتاً أو ما يسمى حصة في البلاد وأننا شركاء في الوطن. نحن فقراء هيسبريدز وكل المناطق المشابهة تحولنا إلى عبيد أزليين في خدمة كروم. وفي ذات الوقت كلنا أصحاب بيوت محترمون مما يعني أننا من حزب المحافظين (المؤيدين والمتملقين) ولا نجرؤ أن نقتل الدجاجة التي تبيض ذهباً، ويأكلنا خوف قاتل من العجز عن دفع الأقساط حتى أخر واحد منها، وما يزيد الطين بلة أننا مشترون بأموالنا. كل واحد من هؤلاء الفقراء التعساء يلفظ أحشاءه ليدفع ضعف السعر الحقيقي لتلك العلب القرميدية التي كنبت بالمنظر الجميل (بيلي فو) والتي هي عكس ذلك، وهو مستعد للموت في ساحة المعركة لإنقاذ بلاده من خطر البلشفية.

انعطفت من طريق وول بول إلى الطريق العام فرأيت قطار العاشرة إلا ربعاً المغادر إلى لندن، ثم مررت بسوق الستة شلنات وتذكرت الملاحظة الذهنية التي دونتها صباحاً لشراء أمواس حلاقة.

عندما وصلت إلى الطاولة التي تعرض الصابون كان مدير الطابق الأرضي (أو أياً كان لقبه) يعنّف الفتاة المكلفة بالخدمة هناك؛ لم يكن أناس كثيرون في المتجر في تلك الساعة من الصباح، ولو ذهبت إلى المتجر عند بدء الدوام لرأيت الفتيات يتلقين الشتائم الصباحية وهن مصطفات في رتل لمجرد ترويضهن لبقية اليوم، كذلك يقال بأن لدى تلك المتاجر المتسلسلة رجالاً من ذوي القدرات الخاصة في توجيه الإهانات والسخرية، فيتنقلون من فرع إلى آخر لتنشيط العاملات. كان المدير قزماً قبيحاً دون الحجم الطبيعي ذا كتفين مربعتين وشارب شائك، يشتم ويثب على الفتاة مثل منشار دائري، بسبب شيء ما، من الواضح أنه خطأ حسابي بسيط، وقبل أن أتمكن من التوقف التقت عيوني بعيون الفتاة التي اعتقدت أنه من غير المناسب أن يراها رجل سمين في أواسط عمره وهي تهان وتشتم؛ استدرت مسرعاً وتظاهرت بالاهتمام بشيء على الطاولة الأخرى، فشتمها ثانية، وكان يبتعد عنها ثم ينقضّ عليها فجأة كيعسوب.

– لم تكلفي نفسك عناء عدها،ذلك غير مهم، ما أهمية الشلنين؟ لم تحاولي أن تزعجي نفسك، تهتمين بما يناسبك فقط أما الآخرون فغير مهمين.

استمر هذا التوبيخ حوالى خمس دقائق وبصوت مسموع من وسط المتجر قضاها مدير المتجر في الانقضاض والابتعاد

ومعاودة الانقضاض لبدء جولة جديدة. ولقد تمكنت من الرؤية جيداً لأنني ابتعدت عنهما قليلاً. ولقد كانت الفتاة في الثامنة عشرة تميل إلى البدانة قليلاً، وجهها قمري مدور من النوع الذي لا يتقن إكمال أية عملية حسابية بشكلها الصحيح، ذلك الوجه الذي تحول لونه إلى وردي فاتح، وتلوّت من الألم وكأنها جلدت بسوط. تظاهرت الفتيات الواقفات أمام الطاولات الأخرى بعدم السمع. كان شيطاناً قبيحاً صلب البنية مبرزاً صدره للخارج مثل عصفور الدوري واضعاً يديه تحت حواف معطفه وهو يصلح أن يكون رقيباً أول في الجيش لو كان قامته أطول.

هل تلاحظ كم أنهم يستصغرون أشخاصاً لمثل هذه المهن المتنمرة؛ لقد كان يلصق كل وجهه وشواربه في وجهها، يشتمها ويوبخها ويهزئها بينما المسكينة تتألم وتتورّد. وأخيراً وبعد أن قال ما يكفي مشى برأس مرفوع وصدر بارز مثل أدميرال حرب على منصة القيادة.

اقتربت من الطاولة لأشتري شفرات الحلاقة، ولقد عرف كلاهما أنني سمعت كل كلمة لكن الفتاة تظاهرت بمظهر (ابقَ، بعيداً) الذي يجب أن تبدو فيه بائعات المتاجر نحو الزبائن الذكور، وكأن شيئاً لم يحدث. كان ذلك لمصلحتي، فتصرّفت مثل سيدة ناضجة بعد نصف دقيقة من رؤيتي لها تداس كخادمة. وجهها كان لا يزال متورداً، ويداها ترتجفان،

طلبت منها أمواس الحلاقة ذات الشلن، وبدأت تحرك أصابعها في الصينية، التفت إليها المدير القزم مرة أخرى، فخلت أنه سيكر عليها ثانية ليبدأ جولة أخرى، انكمشت الفتاة مثل كلب رأى سوطاً ونظرت إلي بطرف عينها، لقد كرهتني مثلما كرهته أو أكثر لأنني رأيتها وهي تُشتم... أمر غريب!

انصرفت مع أمواسي. لماذا يتحملن كل هذا الذل؟ إنه الخوف، ولو ردت بكلمة واحدة ستطرد من العمل. إنه ذات السبب وفي كل الأماكن.

فكرت بصبي السمان الذي أتعامل معه، شاب قوي وضخم في العشرين من عمره، خدوده كالورد وذراعاه ضخمتان يصلح أن يعمل حداداً، يقف وراء طاولة البيع منحنياً في سترته البيضاء وهو يفرك يديه مداهناً.

- نعم يا سيدي، صحيح يا سيدي، الطقس جميل في هذا الوقت من السنة يا سيدي، سيدي كيف يمكنني أن أخدمك؟

في الحقيقة هو يطلب منك أن تهينه، طبعاً هو يطيع الأوامر ومبدأ الزبون دائماً على حق، والشيء البادي على وجهه هو الخوف المميت من أن تشي بأنه شخص وقح ليطرد من العمل. بالإضافة إلى ذلك كيف له أن يعرف أنك لست أحد جواسيس الشركة الذين ترسلهم لمراقبة العمال. هذا الخوف الذي نسبح فيه هو جوهرنا، الكل خائف ليس من

فقدان أعمالهم فقط بل الخوف من الحرب أو الفاشية أو الشيوعية أو من أي شيء آخر. فاليهود ترتعد فرائصهم عندما يفكرون بهتلر، وخطر ببالي أيضاً هذا المدير الشيطاني القذر ذو الشاربين الشائكين فهو أيضاً خائف من فقدان عمله أكثر من الفتاة التي وبّخها، وقد يعيل أسرة، وربما كان لطيفاً ومتسامحاً في البيت ويزرع الخيار في الحديقة الخلفية، ويدع زوجته تجلس فوقه وأولاده يشدون شاربيه، وبالمثل هل تدري إن كان الفاتح الاسباني أو كبار الضباط الروس رجالاً صالحين في حياتهم الشخصية ومن أفضل الأزواج والآباء الذين كرسوا حياتهم لطيور الكناري الأليفة!.. الخ.

لاحقتني الفتاة بنظراتها إلى أن وصلت الباب، وتمنت لو أنها تستطيع قتلي. لقد كرهتني لسبب ما أكثر بكثير من ذلك المدير الأرضي القبيح.

3

حلقت طائرة قاذفة فوقنا على ارتفاع قليل لدقيقة أو اثنتين. وبدت كأنها ترافق القطار.. جلس في العربة سوقيان من عمال الدعاية والإعلان من أحط أصناف بائعي الصحف مقابل بعضهما بعضاً، يلبسان معاطف مطاطية رثة، أحدهما كان يقرأ صحيفة الديلي ميل والآخر الاكسبريس، ومن سلوكهما أدركت أنهما صنّفاني على شاكلتهما، وفي الطرف

الآخر من العربة جلس كاتبا محام يحملان حقائب سوداء ويتحدثان في مسألة قانونية تافهة لجذب الانتباه، وليبيّنا أنهما لا ينتميان لقطيع العوام.

نظرت إلى البيوت التي نمرّ بمحاذاتها، إذ يسير الخط من وست بلشلي عبر أزقة قذرة فيبدو المنظر للوهلة الأولى هادئاً وتظهر الساحات الخلفية الصغيرة وأصص الزهور القليلة والسقوف المستوية حيث تشاهد النّسوة تنشرن الغسيل وأقفاص طيور على الجدران؛ تأرجحت الطائرة قليلاً وأزت ثم توارت. جلست وظهري نحو المحرك، نظر إليّ أحد مروجي الإعلانات بسرعة، فعرفت بما كان يفكر لأنها مسألة يفكر الكل فيها ولا تحتاج إلى ذكاء: ماذا سنفعل بعد سنة أو اثنتين؟ ماذا سنفعل عندما نرى هذه القاذفات وننزل إلى الأقبية وتتبلل سراويلنا؟ وضع مروّج الإعلانات صحيفة الديلي ميل وقال: إن الفائز تمبل غيت أما الكاتبان فكانا يقضمان بعض النماذج المجانية من الذرة (البوشار). تحسس المروّج الآخر جيب معطفه الأول ثم انحنى وتحسس الجيب الآخر واقترب مني قائلاً: هل عندك أعواد ثقاب أيها البدين؟ لاحظ المتعة! أوقفت التفكير بالقنابل وبدأت أفكر بشكلي الذي تمعنت فيه جيداً هذا الصباح؛ صحيح أنني ممتلئ وقصير ونصفي العلوي مثل الأنبوب ولكن ما الذي يمتع الآخرين في ذلك، فمجرد كونك سميناً يحق لأي شخص حتى الغريب

تماماً أن ينعتك وببساطة بلقب مهين معلقاً على مظهرك الشخصي. افترض أنَّ شخصاً له حدبة أو هو أحول أو بشفة أرنب هل يجوز أن يناديه باسم يذكره بعيبه دائماً؟ لكن مع الرجل البدين يصبح الأمر بديهياً واللقب طبيعياً. أنا من النوع الذي يصفعه الناس على قفاه آلياً ويقرصونه تحت الأضلاع معتقدين أني أحب ذلك، ولم أذهب قط إلى صالة مشرب التاج في بودلي رغم مروري بقربه أسبوعياً بسبب العمل، إذ غالباً ما يكون الحمار وترز هناك - وهو بائع متجول يسوّق صابون فقاعة البحر لكنه بطريقة أو بأخرى يتواجد دائماً في المشرب- حيث يقرصني تحت الأضلاع مغنياً (هنا يستلقي البدين توم بولينغ) أما المتواجدون الآخرون الأغبياء القذرون فيعتبرون ذلك دعابة لا يمل منها. لوترز هو إصبع مثل قضيب حديدي. لهذا يظن الكل أن الرجل البدين بلا مشاعر.

أخذ المروّج عود ثقاب آخر لينكش به أسنانه وأعاد العلبة، واندفع القطار على الجسر الحديدي فرأيت عربة خبز في الأسفل تلاها سيل من الشاحنات المحملة بالاسمنت. الغريب أن الكل محق فيما يتعلق بالسخرية من البدناء، والحقيقة أن السمين منذ صغره ليس مثل الآخرين حيث إنه يمر بمستوى من التطور مختلف عن الأشخاص العاديين، مستوى من الكوميديا الحقيقية أما البدناء الذين يعرضون للفرجة والتسلية في المعارض وكل من يزن فوق العشرين حجراً يبدو مسرحية هزلية

هابطة، أما أنا فقد كنت ضعيفاً ثم أصبحت سميناً وأعرف الفرق الذي تسببه السمنة لمظهر الشخص، إنها شيء يمنعك من اخذ الأمور بجدية كبيرة، وأشك بان الرجل البدين منذ ولادته وتعلمه المشي بأنه يعرف العواطف الحقيقية العميقة، إذ كيف يمكنه ذلك وهو بلا تجربة في هذه الأمور، ولا يمكنه التواجد في المشهد المأساوي لأنه يعيش دائماً في المشهد الهزلي، فهل يمكن تخيل هاملت بديناً أو أوليفر هاردي يمثل دور روميو؟ فكرت في مثل ذلك منذ بضعة أيام وأنا أقرأ رواية أخذتها من البوتس بعنوان «الحب الضائع» التي يكتشف فيها رجل القصة هروب حبيبته مع شاب من الذين نقرأ عنهم في الروايات من ذوي الوجوه الشاحبة الحساسة والشعر الأسود وأصحاب الدخول الخاصة وأتذكر جيداً المقطع التالي:

(كان ديفيد يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ويداه تعصران جبهته، يبدو أن الخبر قد صعقه فظل عاجزاً عن تصديقه طويلاً: شيلا خانته! لا يمكن، لكن نجأة يغمره اليقين ويواجه الواقع المجرد بكل رعبه، ذلك أكثر مما يحتمل، انبطح على الأرض وانفجر باكياً).

هذا سلوك متوقع للناس العاديين ولكن كيف سيتصرف رجل مثلي لو أن هيلدا هربت مع شخص آخر في عطلة نهاية الأسبوع؟ لن يزعجني ذلك لأنه يعني أنها لا تزال تملك النشاط والحيوية فهل يمكن أن أنطرح على الأرض وانفجر

باكياً، وهل يتوقع الناس هذا مني؟ بالتأكيد لا وسينظرون للأمر على أنه فاحشة كبرى.

كان القطار يمر عبر جسر فبدت البيوت البعيدة كأنها سطوح حمراء صغيرة مضاءة بأشعة الشمس. ستسقط عليها القنابل! من البلاهة التفكير بالقنابل طوال الوقت. بالطبع،هي لن تسقط الآن ولكن قد يحدث ذلك قريباً. فقد نشرت كل الجرائد هذا الهراء، فقرأت خبراً في النيوز كرونيكل مفاده أن الطائرات القاذفة لا يمكنها التسبب بأية أضرار لأن المدفعية المضادة لها نجحت في إبقائها على ارتفاع عشرين ألف قدم مما أوحى للناس أن تلك القنابل لن تصل إلى الأرض، والاحتمال الأصح أن المقال قصد أنَّ الطائرات سوف تخطئ وول وتش ارسينال لتسقط قنابلها على إيلسيمير. بعدما تأملت الموضوع برمته، اكتشفت بأنه ليس سيئاً أن يكون الشخص بديناً لأن السمين مشهور رغم أن شهرته تقل عن نظيراتها عند السماسرة والقساوسة ولا يشعر بالأريحية ليتصرف دوماً على هواه مثلهم، أما مع النساء فله حظوة كبيرة بعكس ما يعتقده البعض بأن المرأة تنظر إلى الرجل السمين كدعابة وشيء مثير للسخرية، أما في الحقيقة والواقع فهي لا تنظر كذلك إلى أي رجل يمكنه أن يخدمها ويدللها ويحبها.

انتبه! فأنا لم أولد بديناً، ولم أكن بديناً دائماً بل

أصبحت كذلك في السنوات الثماني أو التسع الأخيرة، وتضخمت كل صفاتي أما في داخلي وعقلي فلست سميناً ولا تظلمني، فأنا لا أحاول أن أضع نفسي فوق ورود ناعمة، فوراء الوجه الباسم قلب موجوع.لا يمكن أن تنجح في العمل في شركة تأمين إن كنت كذلك؛ أنا سوقي ومعدوم الإحساس ومنسجم مع بيئتي، مثل الآخرين أبيع الأشياء بعمولة وأكسب رزقي وتنقصني المشاعر السامية، وفي كل الظروف في الحروب والثورات والمجاعات والأوبئة أنجح في تدبير مصاريفنا فقط لا أكثر وأتخندق لأبقى حياً لمدة أطول من الآخرين، لكن تكمن في داخلي عادة بغيضة أخبرك عنها لاحقاً. أنا سمين من الخارج لكني نحيف من الداخل، وهل خطر ببالكم يوماً أن داخل كل رجل بدين رجل نحيف؟ كالقول بوجود تمثال داخل كل صخرة. نجح الرجل الذي استعار أعواد الثقاب في تنظيف أسنانه فوق صحيفة الاكسبريس وقال:

- إنهم لن يجدوا الفاعل في قضية السيقان.

- نعم لن يجدوه أبداً وكيف يمكنهم التعرف على السيقان.

- ربما يتتبعون أثره من خلال الورق الذي لفهما به.

يمكنك رؤية أسقف البيوت الممتدة بعيداً في الأسفل والتي تنعطف في هذا الاتجاه أو ذاك مع الشوارع مثل سهل

كبير تعدو فوقه على حصان، ففي كل طريق يمر عبر لندن يوجد عشرون ميلاً من البيوت الممتدة بلا انقطاع. يا إلهي كيف يمكن أن تخطئنا القاذفات عندما تأتي، نحن قلب الهدف الكبير ولو كنت هتلر لأرسلت قاذفاتي أثناء انعقاد مؤتمر نزع السلاح، في صباح هادئ وعند تدفق سيل الموظفين الغزير فوق جسر لندن ووسط غناء الكناري وتوسلات العجائز للرياضيين سيسمع صوت صفير يتلوه بوم، فتتطاير البيوت في الهواء وتتبلل ثياب الرياضيين بالدماء وسيغني الكناري فوق الجثث المكدسة.

إنه شيء مثير للشفقة. نظرت إلى البحر الكبير من الأسطح الممتدة بعيداً جداً، أميال كثيرة من الشوارع، محلات السمك المقلي والصور والطباعة ومحلات الأزقة الخلفية والمصانع ومحطات الطاقة والأبراج والمعاصر والخبّار ومحلات الألبان وغيرها... مثل برية كبيرة بلا وحوش. لن يظل إطلاق بنادق ولا ضرب بالعصي المطاطية ولن يبقى سرير واحد في انكلترا تطلق منه بندقية، ماذا سيحدث بعد خمس سنوات أو سنة من الآن؟

4

يزأر شوتر (الراعي هو الله) ويرد وذراول (لهذا لا يعوزني شيء) بصوت يفوق صوت سابقه بكثير، ولابد أنكم

عرفتم من منهما المايسترو. فقد اعتدت أن أترقب النشيد الديني الذي يحكي نصة صهيون ملك العموريين وأوغ ملك بيسان - ذكّرني بهذا اسم الملك زوغ - أتمنى لو بإمكاني إسماعكم صوته الذي يشبه ضجيج برميل مدوٍ ضخم متدحرج تحت الأرض حين يقول كلمة (أوغ)، واعتاد اختصار كلمة (اند) فأسمع الكلمة وكأنها (دوغ - كلب). إنهما مثل زوج من التماثيل المصرية التي رأيتها في موسوعة رخيصة الثمن. تماثيل حجرية ضخمة ارتفاعها ثلاثون قدماً تتربع على عروشها في مواجهة بعضها بعضاً، وأيديها على ركبها تعلو وجوهها ابتسامة واهنة غامضة.

لا أدري كيف راودني الشعور بالكنيسة ولا يمكن وصفه بالنشاط، شعور برائحة حلوة، رائحة الجثث وحفيف الثياب وأصوات طنين الاورغ وأصوات الزئير وبقعة الضوء المتسلل من ثقب في النافذة والزاحف ببطء نحو الصحن بحيث يمكن للكبار اعتباره أداء غير عادي لكنه ضروري، كما تسلمون به انتم عندما تقرأون الإنجيل الذي كنا نأخذ منه جرعات كبيرة في تلك الأيام، حيث كانت النصوص على كل الجدران، نحفظ عن ظهر قلب كل فصول العهد القديم، ورأسي لغاية اليوم محشو بمقاطع من الإنجيل؛ أولاد إسرائيل يرتكبون الآثام الفادحة في حضرة الرب وآشر يتحمل الوزر العظيم ويطاردهم من دان إلى أن يصل إلى بيرشيبا، ويضربه تحت

الضلع الخامس ليموت. كان نوعاً من الدواء ذي طعم غريب، فتدرك أنه ضروري وعليك ابتلاعه؛ أسماء غريبة ومعقدة مثل شيمي ونبوخذ نصر واهبثوفيل وهاشبادادا. أشخاص بثياب طويلة قاسية ولحى آشورية، يمتطون الجمال ويتنقلون بين المعابد وأشجار الأرز ويفعلون أشياء غريبة ويقدمون القرابين والهبات التي يحرقونها ويتمشون في أتون أفران مشتعلة ويثبتون بمسامير على الصلبان وتبتلعهم الحيتان، كل ذلك ممزوج برائحة المقبرة والثياب الصوفية وطنين الاورغ. هذا هو العالم الذي تذكرته عندما رأيت صورة الملك زوغ الذي لم أتذكره فقط بل كنت فيه. طبعاً هذه الصور لا تدوم سوى بضع ثوانٍ لكنها تترك أثراً وراءها، ثم أفتح عيوني لأرى نفسي في الخامسة والأربعين والزحمة المرورية في الستراند. حين تخرج من قطار الأفكار تشعر كالخارج من مياه عميقة. شعرت أنني في عام ألف وتسعمائة، وأتنفس هواء حقيقياً، ثم أرى بعيوني المفتوحة هؤلاء الأغبياء المتدافعين والملصقات ورائحة البنزين وهدير المحركات التي بدت لي اقل واقعية من صباح يوم أحد في لواربينفيلد قبل ثلاثين عاماً. ويمكنني القول إنني الآن في لوارينفيلد في عام ألف وتسعمائة بجانب معلف الخيل في السوق وخيول النقل التي عليها علائق العلف، وعند محل الحلويات في الزاوية حيث تزن الأم ويللر نصف بانت من كرات البراندي والسيدة

رامبلينغ راكبة في عربتها وخلفها نمر في بنطاله القصير الأبيض ويداه المطويتان والعم ايزيكيل يشتم جو شامبرلين والرقيب المتقاعد يتبختر في سترته الحمراء وسرواله الأزرق الضيق وقبعته الصغيرة المدورة ذهاباً وإياباً وشواربه المفتولة والشملون وهم يتقيأون في الباحة الخلفية لمشرب جورج وفيكي في قصر وندسور، والرب في السماء والمسيح على الصليب ويوحنا في بطن الحوت وشادراك وميشاك وعبدي نغو في الأفران المتأججة، وسيحون ملك العموريين واوغ ملك بيسان متربعان على عرشيهما مقابل بعضهما بعضاً يتبادلان النظرات دون أن يفعلا شيئاً سوى المحافظة على مكانيهما مثل زوج من كلاب الإطفاء أو الصيد أو وحيد القرن. لكن هل ولّى هذا العالم إلى الأبد؟ لست متأكداً لكن يمكنني القول إنه كان جديراً بالعيش وإننا ننتمي كلنا إليه.

القسم الثاني

1

ذكّرني اسم الملك زوغ المكتوب على الملصق بعالم يختلف كلياً عن الذي أعيش فيه الآن لدرجة يصعب تصديق انتمائي إليه، وإنني أظن أن صورتي اكتملت في ذهنكم، فأنا رجل بدين في الخامسة والأربعين بأسنان اصطناعية ووجه احمر، لكني لم أكن على هذه الحال منذ المهد، لكن خمسة وأربعين عاماً تفعل الكثير، فبعض الناس يتغير وبعضهم الآخر لا، ولقد تغيرت كثيراً، فقد استمتعت بسعد الحياة ونحسها وربما سعدها أكثر، ولربما يفخر أبي بي قليلاً لو رآني الآن، فأنا بمستوى أعلى مما كنت فيه سابقاً، وفي أحيان قليلة لامست مستويات لم احلم بها أبداً في تلك الأيام التي سبقت الحرب.

قبل الحرب! كنت أسأل إلى متى سأظل أردد هذه العبارة، وكم سيمر من الوقت قبل الإجابة عليها، وأي حرب؟ ذلك العالم غير الموجود الذي يفكر الناس فيه عندما يقولون قبل الحرب،ربما حرب البوير؟ ولدت عام 1893 وأتذكر تلك الحرب جيداً بسبب النقاش الراقي الذي كان يدور بين أبي وعمي ايزيكل، كذلك لدي بعض الذكريات التي تعود إلى سنة قبل ذلك، وأول ما أتذكر عندما اصعد الممر الحجري الموصل بين المطبخ والمحل هو رائحة السنفون الممزوجة برائحة الجص الرطب التي تبدأ من المطبخ وتنتهي في المتجر والتي كانت تزداد كلما اقتربت من هذا الأخير. وقد وضعت أمي بوابة خشبية في المدخل لكي تمنعنا أنا وجو من الدخول إلى المحل (جو هو أخي الكبير) كما أتذكر عندما انتزعت القضبان ونجحت في تحطيم البوابة بعد مرور بضع سنوات، ودخلت إلى المتجر، ولم يكن احد فيه ورأيت فاراً في أحد صناديق الطحين؛ لقد سقط وركض بين قدمي وكان لونه أبيض من الطحين وأعتقد أنني كنت في السادسة من العمر عند حدوث ذلك.

عندما تكون صغيراً فإنك تدرك الأشياء القريبة والمحيطة بك منذ زمن، وفجأة تسبح في ذهنك دفعة واحدة وكأنك صحوت من النوم. في الرابعة من عمري تقريباً اكتشفت أننا نملك كلباً يدعى نيلر،كلب صيد أبيض هرماً من فصيلة

انقرضت الآن، فقد رأيته تحت طاولة المطبخ وهو يلهث وبنفس الطريقة، ولكن قبلها اكتشفت لمكان الصادرة منه رائحة السنفون وهو خلف البوابة في نهاية الممر والدكان والأوزان الخشبية والمجرفة المعدنية والقذارة البيضاء على النوافذ والعصفور والقفص الذي لا يمكن أن تراه حتى من على الرصيف بسبب الغبار الذي يغطيه بشكل دائم. كل هذه الأشياء غابت عن مخيلتي الواحدة تلو الأخرى مثل قطع أحجية لصورة مقطعة.

ثم يمضي الوقت وتصبح رجلاك أقوى ويبدأ إحساسك بالجغرافيا تدريجياً. اعتقد أن لواربينفيلد مثل أي بلدة أخرى لا يتجاوز تعدادها الألفي نسمة وتتبع إلى اكسفورد شاير. ومن الملاحظ أنني مستمر في القول بأنها كانت رغم أن المكان لا يزال موجوداً، ويبعد خمسة أميال عن نهر التايمز. إنها تتموضع في وادي بسيط تحيط بها تلال متموجة تفصلها عن النهر وعلى قمم التلال غابات تبدو ككتل زرقاء غامقة حيث يرى في وسطها بيت ابيض وصفٌ من الأعمدة هو بيت بنفيلد، أو الصالة كما كان يسميه الكل. أما قمة التل فتعرف بينفيلد العليا، مع الإشارة إلى أنه لم تكن هناك أي قرية منذ ما يزيد على المائة سنة. ولكن من المؤكد أنني كنت في السابعة عندما أدركت وجود بيت بينفيلد لأن الصغار لا ينظرون إلى الأشياء البعيدة، لكن مع مرور الوقت عرفت كل

بوصة في بينفيلد، إذ قبل أن تصل إلى السوق عند الزاوية كان هناك محل السيدة ويللر للحلويات حيث يمكنك الشراء منه بنصف شلن؛ السيدة ويللر عجوز شمطاء تشبه الساحرة، ولقد اتهمت بأنها تمص الحلوى المدوّرة ثم تضعها في القنينة، وبعد محل الحلويات هناك صالون الحلاقة بملصقه الإعلاني الكبير عن سجائر عبد الله وعليه صور جنود مصريين، والغريب أنهم ما زالوا يستغلون هذا الإعلان للآن ورائحة الروم واللاتاكيا المسكرة، وكذلك ترى مدخنة معمل البيرة خلف البيوت، أما في وسط السوق فترى المعلف الحجري، كما يمكن رؤية طبقة رقيقة من الغبار والتبن فوق الماء دائماً.

قبل الحرب، وبالذات حرب البوير كانت السنة صيفاً كلها رغم ثقتي أن ذلك وهم، وإني سأصف لكم الأشياء مثلما تعاودني. فلو أغمضت عيوني وفكرت في بينفيلد في أي وقت قبل الثامنة من عمري فسيكون الطقس صيفاً، ويكون السوق إما في وقت العشاء مع سكون مغبر وناعس يخيم على كل شيء وحصان النقل يدفن رأسه في الكيس المعلق في رأسه يطحن الشعير أو أنَّ الوقت يكون عصراً وحاراً في المروج الخضراء الخصبة المحيطة بالبلدة، أو وقت الغروب في الممشى خلف مزارع الخضروات ورائحة الغليون والدوريات تطوف خلف السياج. ومع هذا أتذكر الفصول

الأخرى بشكل ما إذ إنّ كل ذكرياتي مرتبطة بالأشياء التي تؤكل، والتي تتنوع باختلاف أوقات السنة. ففي تموز (يوليو) يكون هناك توت الندى القليل والنادر، والتوت الأسود الذي ينضج ويصبح أحمر وجاهزاً للأكل، وفي أيلول (سبتمبر) يتواجد البندق وسمك موسى، لكن البندق الجيد يكون في الأعلى وهو صعب المنال، ثم بعد ذلك يأتي المرّان والتفاح البري بالإضافة للأطعمة الثانوية التي كنت أتناولها في حال عدم وجود الأفضل مثل الزعرور البري وثمر الورد ذي الطعم الحاد واللذيذ بعد تشذيبه من الأهداب وحشيشة الدينار الطيبة خصوصاً وأنت عطشان، وبعدها يأتي الحمّاض الذي يؤكل مع الخبز والزبدة وجوز الحقور والنفل الخشبي ذو المذاق المر وحتى بذور نبات الجدي التي هي أفضل من لاشيء عندما تكون جائعاً وبعيداً عن البيت.

كان أخي جو اكبر مني بسنتين، وكانت أمي تدفع لكاثي سيمونز ثمانية عشر شلناً كي تأخذنا في مشاوير مسائية. فوالد كاثي يعمل في معمل البيرة ولديه أربعة عشر طفلاً لهذا كانت العائلة تبحث عن أعمال غريبة.كانت كاثي في الثانية عشرة عندما كان جو في الثامنة وأنا في السادسة، لكن كنا في ذات المستوى العقلي، وكانت تشدني من ذراعي وتناديني يا صغيري، ولقد كانت مخولة بمنعنا من مطاردة العربات التي تجرها الخيول والثيران والكلاب. كنا نذهب في مشاوير

طويلة متقاطرين حيث نأكل أشياء نلتقطها من على جانبي الطريق، وبعد الممشى تطالعك البساتين ثم مروج روبير، وإلى الأسفل طاحونة المزرعة حيث توجد بركة كنا نصيد منها سمك الكارب أنا وأخي جو بعدما كبرنا قليلاً، ثم إلى الوراء بجانب بينفيلد العليا مروراً بمحل الحلويات الذي يقع في طرف المدينة والذي كان موقعه سيئاً لدرجة أن أي شخص يشغله مصيره الإفلاس؛ وبحسب معرفتي فقد كان محل حلويات لثلاث مرات ومرة رابعة محلاً للبقالة، ومرة لتصليح الدراجات، وعلى الرغم من هذا فيه سحر خاص للأولاد وحتى عندما لا يكون لدينا نقودٌ نذهب إليه ونلصق أنوفنا بالواجهة الزجاجية. أما كاتي فلم تكن فوق القسمة إذ كنا نتقاتل حول حصتها من الحلويات التي تعادل ربع قرش. ففي تلك الأيام يمكنك شراء أشياء بربع قرش، وأنَّ أكثر الحلويات كانت تباع كل أربع أونصات بقرش واحد. أما خلطة الفردوس وهي من كسر الحلويات ستة اونسات بالقرش الواحد، وكان هناك نوع يبلغ طوله ياردة ويلزم نصف ساعة لأكله، وكذلك السكاكر التي هي على شكل فئران وخنازير فكل ثمانية منها بقرش وأكياس المسدسات والذرة وعرق السوس بنصف قرش للكيس الكبير وعلبة من الحلويات المنوعة هدية أو خاتم ذهبي أحياناً أو صفارة بقرش، أما في هذا الزمن فلم تعد هناك جوائز واختفت أنواع كاملة من

الحلويات. لقد كان هناك نوع من الحلويات البيضاء مكتوب عليها شعارات، ونوع آخر قرنفلي لزج في علب خشبية بيضاوية وفي داخلها ملعقة معدنية صغيرة بنصف قرش وكاراوي كومفيتس وأصابع الشوكولا وعيدان السكر ومئات الأنواع غيرها، بل آلاف من أنواع السكاكر التي تباع بربع قرش، وتخيل بنيمونستر الذي يحتوي على ربع غالون من الليمونادة بقرش واحد فهل أنَّ اختفاء كل هذه الأشياء من صنع الرب أيضا؟

عندما أفكر في الماضي أرى الصيف دائماً، وأتذكر العشب الذي كان بطول قامتي والحرارة تخرج من باطن الأرض والغبار في الممشى والضوء الأخضر يخرج من شجيرات البندق ونحن الثلاثة متقاطرون نأكل أشياء على السياج وكاتي تجرني من ذراعي وهي تقول تعال يا صغيري، وأحياناً تصرخ على جو قائلة تراجع يا جو ستلحق بها. كان جو ولداً ضخماً ذا رأس كبير وربلتين كبيرتين. إنه واحد من الأولاد المتهورين في السابعة من عمره يلبس سروالاً قصيراً وجوارب سوداء سميكة تصل إلى ركبتيه وجزمة ضخمة كتلك التي كان على الأولاد انتعالها في تلك الأيام. أما أنا فكنت البس رداء خارجياً تصنعه لي أمي وكاتي، إنه ثوب بال مرقع يشبه ثوب امرأة ناضجة وهو الذي كان يورث من أخت إلى أخرى في العائلة. ولقد كانت تضع قبعة مضحكة لها ذيل

طويل يتدلى خلفها وتنورة ملوّثة تسحل على الأرض وجزمة بالية. لم تكن كاثي أطول من جو كثيراً لكنَّ رعايتها للأولاد لم تكن سيئة لأن هذه المهنة في عائلتها تمارس حالما يفطم الطفل، إذ عليه أن يهتم ويرعى أطفالاً آخرين، وكانت أحياناً تمثل دور السيدة أو المرأة الناضجة ولديها طريقة للإسكات وذلك بواسطة مثل أو قول مأثور تعتبره كلاماً لا يقبل الرد، فإن قلت لها لا تهتمي، ترد عليك فوراً: لا تهتم قيلت لكي نهتم، ولا تهتم علقت ووضعت في قدر وسلقت حتى استوت، وإن شتمتها ترد عليك أنَّ الكلمات القاسية لا تكسر العظام، أما عندما تتباهى وتتفاخر ترد عليك إن التباهي يسبق السقوط. وهذا ما حدث فعلاً في أحد الأيام عندما كنت أتبختر متظاهراً أنني جندي فسقطت فوق روث بقرة. تسكن عائلة كاثي في جحر قذر في شارع وسخ خلف معمل البيرة، وهو يعجّ بالأولاد مثل الحشرات؛ فكل أفراد العائلة تفادوا الذهاب إلى المدرسة وكان ذلك من الأمور السهلة في تلك الأيام. إنهم يمتهنون مهناً غريبة ويشقّون دروبهم في الحياة حالما يصبحون قادرين على المشي. ولقد سجن أحد أخوتها الكبار لمدة شهر بسبب سرقة بعض اللفت لكن بعد سنة توقفت كاثي عن اصطحابنا في مشاوير حين أصبح جو في الثامنة وصار من الصعب السيطرة عليه، وخاصة عندما اكتشف أن أفراد عائلة كاثي ينامون كل خمسة أشخاص في

سرير واحد، فضايقها ذلك كثيراً. لقد أصبح لكاثي طفل وهي في الخامسة عشرة ولم يعرف أحد ولا حتى هي نفسها من هو أبوه، وظن أغلب الناس أنه قد يكون أحد أخوتها. لقد أخذ الطفل إلى الملجأ وذهبت هي للعمل عند والتون وبعدها تزوجت من سمكري منحط حتى بنظر عائلتها، وآخر مرة رأيتها فيها كان عام 1913 وأنا أركب دراجتي عبر والتون عندما مررت بأكواخ خشبية مخيفة على جانب سكة القطار مسيجة بعصي اسطوانية حيث ينزل الغجر عندما تسمح لهم الشرطة بذلك في أوقات معينة من السنة. لقد خرجت عجوز شمطاء من احد الأكواخ لتنفض خرقة بالية مجعدة، كان شعرها متدلياً ووجهها دخانياً تبدو في الخمسين من عمرها، لقد كانت كاثي التي كان من المفترض أن تكون في السابعة عشرة.

2

كان يوم الخميس هو يوم البازار (السوق) إذ يأتي رجال ذوو وجوه مدوّرة حمراء مثل اليقطين يحملون عصيّاً بثيابهم القذرة وأحذيتهم الكبيرة المغطاة بروث البقر الجاف، يسوقون بهائمهم إلى السوق منذ الصباح الباكر، حيث كانت الجلبة والضوضاء تدوم ساعات طويلة، يرافقها نباح كلاب وصراخ خنازير ورجال يركبون عربات تجار يشقّون طريقهم وهم

يلوّحون بسياطهم ويشتمون كل شخص له علاقة بالقطيع. وكان الضجيج الأكبر عندما يحضرون ثوراً إلى السوق، وحتى عندما كنت صغيراً، وفي ذلك العمر كنت أظن أن الثيران حيوانات غير مؤذية ومطيعة ولا هم لها سوى الوصول إلى حظائرها بسلام. إن الثور لا يستحق لقبه إذا لم يخرج نصف أهالي البلدة لمطاردته.

فبعض البهائم المرتعبة تهرب بقوة أحياناً، وتفلت في شارع جانبي، وإنْ صادفها أحد، يقف في وسط الطريق ملوّحاً بيديه مثل طاحونة الهواء صارخاً وو وو، معتقداً بأن ذلك له تأثير منوّم على الثور، فهذا فيه شيء من الصحة. وفي الحقيقة فإن أبي كانت له علاقات تجارية مع قلة من المزارعين لأنه لا يملك عربة توصيل كما أنه لا يستطيع أن يبيع ما لديه بدَيْن طويل الأجل، لذا فإن تجارته تقتصر على علف الدواجن والخيول. لقد كان بروير عجوزاً نتناً وقذراً بذقن رمادية وهو يملك طاحونة، يقف نصف ساعة يتفحص بأصابعه نماذج الذرة التي يدسها في جيبه غير مبالٍ، وينصرف بعد ذلك دون أن يشتري شيئاً، أما في المساء فتمتلئ الحانات بالرجال الثملين، فسعر ربع غالون من الجعة بنسين، وهي لا تشبه جعة هذه الأيام لأنها تشعرك ببعض من النشاط والحيوية. وخلال حرب البوير كلها اعتاد الرقيب المتقاعد التواجد في حانة جورج يومي الخميس والسبت،

فيأتي متأنقاً جداً في ملبسه وكريماً في نقوده، وأحياناً تراه في الصباح التالي يقود صبي مزرعة سميناً دفع له شلنين وهو ثمل ليكتشف في الصباح أنه يحتاج لأكثر من عشرين جنيهاً ليتخلص من تلك الورطة. أما الناس فكانوا يقفون أمام منازلهم وعندما يشاهدونهما معاً يهزّون رؤوسهم كما لو أنهم كانوا في جنازة. لقد سجّله جندياً، لكن سجله الانضمام إلى الجيش في نظرهم كانت مثل نظرتهم إلى فتاة شوارع قذرة. لقد كانت مواقفهم من الحرب والجيش غريبة فآمنوا بالأفكار الانكليزية القديمة التي ترى أن المعاطف الحمراء قذارة العالم، وكل من ينضم إلى الجيش سيموت من السكر ومصيره جهنم مباشرة لكنهم على الرغم من ذلك كانوا مواطنين صالحين يضعون الأعلام الاتحادية البريطانية على واجهات محلاتهم، ولديهم الثقة بان الانكليز لم يهزموا بأي معركة ولن يهزموا. في ذلك الوقت حتى المستقلون تغنوا بالأناشيد القومية عن الخط الرفيع الأحمر والجندي الشاب الذي مات في ساحة المعركة التي تبعد كثيراً عن أرض الوطن.كان هؤلاء الجنود الصغار يموتون دائماً عندما تتطاير القذائف والطلقات، وأتذكر أن معنى طلقة حيّرني كثيراً وأنا صغير ولم أفهمه، فكونت صورة غريبة في ذهني عن الشظايا المتطايرة في الجو، وعندما حررت مافيكنغ أوشكت هتافات الناس أن تهدم السقوف وصدقوا طويلاً أن أهل البوير كانوا

يرمون الأطفال في الجو عالياً ليتلقوهم بالحراب. لقد ضايق الأطفال العجوز بروير وطاردوه بصراخهم كروغر.. كروغر فظل مطلقاً لحيته طوال فترة الحرب.

إن مواقف الناس من الحكومة لا تختلف عن موقفهم من الجيش، فكلهم انكليز أقحاح وزرق أصيلون، وآمنوا بصدق أن فيكي أفضل ملكة، واعتقدوا أن الأجانب كلهم قاذورات. ولم يفكر أحد منهم برفع الضريبة عنه أو حتى برخصة كلب إن أمكن تفاديها.

قبل الحرب وبعدها كانت لواربينفيلد دائرة انتخابية فجرت فيها انتخابات فرعية فاز فيها المحافظون خلال الحرب. لقد عصي فهم الأمور عليّ لأنني كنت صغيراً وعرفت أنني من المحافظين لأنني أحب الأعلام الزرقاء أكثر من الحمراء. واذكر أن رجلاً ثملاً سقط على الرصيف أمام حانة جورج وظل أنفه ينزف ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارة حتى جف دمه وأصبح لونه أرجوانياً، ثم جاءت الانتخابات قبل عام 1906 وأصبحت أكبر سناً وفهمت ذلك بشكل أو بأخر. كنت ليبرالياً لأن الكل كان كذلك ولقد طرد الناس المرشحين المحافظين ورموهم في بركة ممتلئة بالطحالب. لقد تناول الناس السياسة بشكل جدي في تلك الأيام وأخذوا يخزّنون البيض الفاسد قبل الانتخابات بأسابيع. وأتذكر، في وقت مبكر من حياتي، النقاش العنيف

ين أبي وعمي ايزكيل عندما اندلعت حرب البوير، فعمي لديه دكان أحذية صغير في شارع جانبي متفرع عن الشارع الرئيسي ويعمل اسكافياً أيضاً لكن تجارته كانت تضمحل، لكنه لم يكترث لذلك كثيراً لأنه لم يكن متزوجاً وهو أخ غير شقيق لوالدي واكبر منه بكثير -عشرون سنة على الأقل- وظل بنفس المظهر خلال الخمس عشرة سنة التي عرفته فيها؛ رجل مسن جميل الطالع ذو شعر ابيض ولحية شائكة اشد بياضاً، ويميل إلى الطول وله أسلوب خاص بالنقر على متزره الجلدي بأصابعه ويقف منتصباً، وردّة فعله انحناءة، ثم يطرح آراءه في وجهك مباشرة ويختتمها بنوع من القأقأة الغامضة. كان ليرالياً حقيقياً من ليبراليي القرن التاسع عشر، ولو سألته عما قاله غلادستون عام 1878 لأجابك فوراً وهو من القلائل في لوارينفيلد الذين لم يغيروا آراءهم طول فترة الحرب، إذ كان دائماً يشجب جو شامبرلين وعصابته وينعتهم برعاع منتزه الزقاق. وإنني أتذكر جيداً أحد جدالاته مع أبي: إنهم وإمبراطوريتهم الواسعة والمترامية الأطراف لا يستطيعون أن يفعلوا معي شيئاً ها ها ها ها، ثم يرد عليه أبي بصوت هادئ ومنسجم لكنه قلق بأن عبء الرجل الأبيض ثقيل وواجبه نحو المساكين السود الذين يعاملهم البوير بطريقة مشينة لا مناص منه، وبنهاية الحديث يخرج العم ايزكيل ويبقيان لمدة أسبوع فيما يشبه المقاطعة إلى أن يبدأ جدال

آخر. وعندما تفشّت الحكايات عن الوحشية التي كان العم ايزكيل ينقلها لوالدي ازداد أبي قلقاً وهماً. العم ايزكيل انكليزي متعصب لكنه مؤيد للبوير، فلم يصدق أنهم يقذفون الأطفال في الهواء ليلتقطوهم بالحراب حتى لو كانوا من السود. فهم والدي الأمور بشكل خاطئ إذ لم يكن البويريون هم الذين يقذفون الأطفال بل الجنود البريطانيون الذين يرمونهم ويدخلون فيهم السّهام والحراب مثل الضفادع. كنت في الخامسة وكان عمي يرفعني ويؤرجحني في الهواء ويدعني أسقط متخيلاً أنني أطير في الهواء وأحطّ على طرف حربة.

كان أبي مختلفاً جداً عن عمي، ولم أعرف الكثير عن جدي لأنه مات قبل أن أولد لكنني عرفت أنه كان اسكافياً وتزوج من أرملة بائع بذور في وقت متأخر من أيامه، وجراء هذا أصبح عنده محل البذور هذا. إنّ مهنة الإسكافي لم تناسب أبي رغم معرفته بظواهر الصنعة وبواطنها، لكنه ظل يعمل بها كل الوقت ماعدا أيام الآحاد والأعياد وأمسيات بقية أيام الأسبوع، ولا أتذكره دون أن يكون الطحين على كفيه وخطوط وجهه وما بقي من شعره. تزوج وهو في الثلاثينيات من عمره وأول ما أتذكره عنه عندما كان في الأربعين رجلاً صغير البنية وهادئاً في مئزر ابيض ويضع أكماماً وهو معفّر دائماً بالطحين، ذو رأس مدور وأنف

عريض وشوارب كثة وشعر بلون الزبدة كان يغطيه الطحين دائماً مع أنه فقد الكثير منه.

لقد حسّن جدي من وضعه كثيراً بزواجه من أرملة بائع البذور. أما والدي فقد تعلم في مدرسة والتون مع أولاد نخبة المزارعين والتجار على عكس العم ايزكيل الذي يفاخر بأنه لم يذهب إلى مدرسة في حياته قط، وهو علم نفسه بنفسه على ضوء الشموع بعد أن ينتهي من عمله وكان ذا بديهة أسرع من أبي وقادراً على مناقشة أي شخص، ويحفظ الكثير من أقوال كارليل وسبنسر، أما تفكير والدي فكان بطيئاً ولم يكمل دراسته في المدارس الثانوية ولم تكن لغته الانكليزية جيدة. وفي أيام الآحاد وكذلك خلال فترات الراحة كان يجلس إلى جانب الموقد في البهو ليقرأ جريدته المفضلة (بيبل)، أما أمي فكانت تفضّل (ورلد نيوز) لأنها تكتب عن الجرائم وكأنني أراهما الآن، الوقت في لصيف بعد ظهر يوم الأحد- الوقت دائماً صيف - ورائحة الخنزير المشوي تخيم على الجو وأمي بجانب الموقد تقرأ أخبار أحدث الجرائم فتخرّ نائمة بالتدريج وفمها مفتوح، وأبي مقابلها في حذاء البيت واضعاً نظارته يشق طريقه ببطء عبر ياردات من الورق المطبوع، وشعور بلصيف الدافئ يلفني؛ إبرة الراعي في النافذة والزرزور يصدح في الخارج وأنا تحت الطاولة مع بوب مصدقاً أن غطاءها خيمة، وبعد ذلك وفي وقت شرب

الشاي يبدأ والدي بقضم الفجل والبصل الربيعي ويحكي وهو يأكل عن الأشياء التي قرأها في الجريدة: من حرائق وتحطم سفن وفضائح المجتمع الراقي والآلات التي تطير والرجل الذي ابتلعه الحوت في البحر الأحمر وخرج بعد ثلاثة أيام حياً، لكنه أبيض قليلاً بسبب عصارات الحوت الهاضمة؛ وظل أبي يدقق في الجرائد عن هذا الخبر ثلاث سنوات لأنه شكك بتلك القصة وبالآلات الطائرة وما عداها فهو يصدق كل ما يقرأه. كان الناس يعتقدون في لواربينفيلد أن الله لو شاء للإنسان أن يطير لخلق له أجنحة، ويرد عمي ايزكيل دون أن يقدر على كبح غضبه ولو أن الله شاء له أن يركب العربات لخلق إله عجلات لكنه نفسه لم يصدق بوجود آلات تطير.

كان أبي يذهب إلى مشرب جورج مساء كل أحد فقط ليشرب القليل لأنه صرف الاهتمام عن ذلك، أما باقي أوقاته فيصرف جلها في تجارته وعمله، فإما أن يكون في شرفة الساحة الخلفية أو يتصارع مع الأكياس والبالات، أو في مكان ضيق خلف طاولة العرض مغبراً يجمع أرقاماً في دفتره مستخدماً قلم رصاص. وكان رجلاً صادقاً وملتزماً بتقديم بضاعة جيدة ولم يغشُ أحداً حتى في الأيام التي اعتبر ذلك فيها الطريقة المثلى والناجحة في التجارة، وكان يلائمه أكثر لو شغل منصباً حكومياً كمدير محطة قطار في الريف أو

ساعي بريد، إذ لم يكن لديه حب المغامرة والتعامل بالدّين ليوسع تجارته ولا الخيال لفتح خطوط بيع جديدة. أما إبداعه الوحيد فهو اختراع خلطة بذور لطيور الأقفاص، فسمّاها خلطة بولينغ التي امتدت شهرتها لخمسة أميال، لكن الفضل يعود في ذلك للعم ايزيكيل لأنه كان من محبي الطيور ولديه عددٌ من طيور الحسون في دكانه المظلم الصغير. ولقد قامت نظريته على أن الطيور تفقد لونها بسبب نقص تنوع غذائها. كذلك كان لدينا خلف الدكان قطعة ارض صغيرة يزرع فيها أبي حوالى عشرين صنفاً من الأعشاب تحت شبكة من الأسلاك فيجففها ويخلطها مع بذور الكناري العادية، لكن هذه الخلطة لم تفلح مع جاكي المعلق في واجهة المحل والذي اعتبر دعاية لتلك الخلطة إذ لم يتغير لونه ليصبح أسود، ولم يشبه الغدّش أبداً.

أمي كانت سمينة بحسب ذكرياتي الأولى، ومما لاشك فيه أنني ورثت نقص إفراز الغدة النخامية، أو أياً كان السبب عنها فقد كانت امرأة ضخمة أطول من أبي، شعرها باهت أكثر من شعره وهي تميل لارتداء الثياب السوداء، ولا أتذكرها دون مئزر باستثناء أيام الآحاد. ولا أبالغ كثيراً لو قلت إنني لا أتذكرها إلا وهي تطبخ. عندما ننظر إلى الماضي البعيد نرى الكائنات البشرية مثبتة في أوضاع وأماكن محددة وبصفات شخصية ثابتة. إنهم يكررون القيام بذات الأعمال،

فأبي أتذكره خلف طاولة البيع يغطي رأسه الطحين، وفي يده قلم رصاص يجمع أرقاماً بواسطته مبللاً إياه بشفتيه، أما عمي ايزيكيل فأتذكر لحيته البيضاء وهو يمطّ نفسه للخارج ويضرب بكفه مئزره الجلدي.

من المؤكد أنك تتذكر مطابخ تلك الأيام، فقد كانت واسعة ومظلمة ومنخفضة، أرضها حجرية وفيها قطعة خشب كبيرة عبر السقف وقبو في الأسفل. كل شيء كان ضخماً، أو هكذا بدت لي الأشياء وأنا صغير؛ حوض غسيل حجري كبير بدون صنبور تنوب عنه مضخة حديدية وخزانة لأدوات المطبخ تشغل جداراً كاملاً وترتفع إلى السقف، وموقد عملاق يحرق نصف طن من الجص والفحم، وأتذكر أمي خلف الطاولة تعجن كتلة كبيرة من العجين وأنا أزحف قربها عابثاً بقطع الحطب والفحم المرمية في كل الأركان وأفخاخ الخنافس التي تضعها في الزوايا المظلمة. لقد كنت اذهب إليها من حين لآخر استجدي كسرة من الخبز أو لقمة طعام، وترد عليّ انصرف من هنا، ولا تنزع عشاءك إن عينك اكبر من بطنك. وكانت تعطيني أحياناً قطعة من الكعك المحلى رغم أنها كانت لا تستحسن الأكل بين الوجبات. لقد كنت أحب مراقبتها وهي تعجن الحلويات - إذ توجد متعة في مراقبة شخص يقوم بعمل يتقنه - أقصد أن تراقب امرأة تتقن الطبخ وصنع العجين فعلاً، إذ تبدو عليها هيئة مقدّسة مثل قسّ

يحتفل بطقس ديني. يداها القويتان ملوثتان بالطحين وخلاط البيض في يد والقاطعة وعصا العجين باليد الأخرى، وكانت حركاتها دقيقة وثابتة بشكل رائع. ولقد كانت تقوم بما يجب عمله بالضبط في تلك الأدوات، وعندما تراها وهي تطبخ تدرك أنها في عالمها الذي تنتمي إليه ووسط أشيائها التي تفهمها جيداً. كانت أمي جاهلة باستثناء قراءة جرائد الأحد، والحديث العرضي لقليل، فالعالم الخارجي غير موجود بالنسبة إليها رغم أنها تقرأ بسهولة أكبر من أبي. تأكدت من جهل أمي قبل بلوغي سن العاشرة فهي لا تعرف من هو رئيس الوزراء، ولا تعرف إن كانت ايرلندة شرق انكلترة أم غربها، وأشك أنها تعرف من كان رئيس الوزراء قبل الحرب الكبرى، ولا تريد أن تعرف، وبعد ذلك وعندما قرأت عن دول الشرق حيث ينتشر تعدد الزوجات والحريم السري وحبس النساء مع العبيد المخصيين الذين يحرسوهن فكّرت كم كان ذلك يصعق أمي بحيث يمكنني سماع صوتها للآن وهي تقول يحبسون زوجاتهم بتلك الطريقة. وأشك أنها تعرف ما تعنيه كلمة مخصي. في الحقيقة إنها عاشت في مكان خاص وصغير مثل أي حرمة شرقية؛ حتى في بيتنا هناك أماكن لم تطأها قدماها، فهي لم تدخل العلية التي في الساحة الخلفية ونادراً المحل، ولا أذكر أنها خدمت زبوناً أو تعرف أين توضع الأشياء أو تفرّق بين القمح والشوفان،

ولماذا ستعرف إذا كان العمل في المحل من مهام الرجل، كذلك لا فضول لديها فيما يتعلق بالنقود. إنَّ عملها هو عمل المرأة، أي العناية بالبيت والطعام والغسيل والأطفال وهي كانت تفقد رشدها إن رأت أبي أو أي رجل آخر يخيط ولو زراً بنفسه. وفيما يتعلق بوجبات الطعام في بيتنا فكل شيء كان يُنجز بدقة متناهية مثل الساعة. ليس المقصود بعمل الساعة أنه ميكانيكي بل تلقائي وطبيعي، أي أنك تعرف أن الفطور سيكون على الطاولة صباحاً مثلما تعرف أن الشمس ستشرق غداً. ظلت أمي طيلة حياتها تنام عند التاسعة مساءً وتستيقظ في الخامسة، وكانت تعتقد أن النوم الزائد هو تفسخ وشر وسلوك الارستقراطية الأجنبية، ولا تقبل أن تساعدها أي امرأة في عمل البيت رغم أنها كانت تدفع لكاثي سيمونز مقابل اصطحابنا في نزهات ومشاوير، وتعتقد بقوة أن المرأة المستأجرة تكنس الأوساخ وتدسّها تحت الخزانة. فوجباتنا تكون جاهزة على أتم شكل، وفي حينها وهي وجبات ضخمة من لحم البقر المسلوق والزلابية ولحم البقر المشوي ولحم الضأن المسلوق واليوركشاير والمخلل ورأس الخنزير وفطيرة التفاح والنقانق المنقطة والحلويات المحشوة بالمربى، وكانت متمسكة بأسلوب التربية القديم حيث يجلد الأولاد بالسوط ويذهبون إلى أسرّتهم بعد تناولهم العشاء، ويبعدون عن طاولة الطعام إن أصدروا أصواتاً أو رفضوا أكل شيء مفيد لهم، أو

تمرّدوا على أهلهم. لقد كانت أمي أقسى من أبي رغم أنه كان يردد دائماً: إن غابت العصا انحرف الأولاد. وكان ضعيفاً ومتساهلاً جداً وخصوصاً مع جو الذي شكل حالة صعبة منذ البداية، بل كان يوفر له حماية وملاذاً آمنين، ويحكي لنا قصصاً حول الجلد المرعب الذي اعتقد الآن أنه ليس صحيحاً، لأنه مع مرور الوقت أصبح جو قوياً جداً وفي الثانية عشرة من العمر لم يعد يطوله أي عقاب.

في ذلك الزمان كان من اللائق أن لا يكرر الآباء الكلمات والنصائح على مسامع أولادهم باستمرار، ونسمع دائماً رجالاً يفاخرون أنهم جلدوا أبناءهم وأوشكوا أن يزهقوا حياتهم لأنهم سرقوا تفاحاً أو أعشاش طيور أو دخّنوا تبغاً، لكن ذلك كان يحصل في بعض العائلات، فمثلاً كان للعجوز غروف ولدان سمينان في السادسة عشرة والخامسة عشرة ضبطهما يدخنان في كوخ الحديقة فضربهما بقسوة وسمع صراخهما كل أهل البلدة لكن كل العقوبات لم تؤثر بهما لأن لوفغروف كان مدخناً كبيراً.

وعلى الرغم من أن الأولاد كلهم كانوا يسرقون التفاح وأعشاش الطيور ويقومون بالتدخين عاجلاً أم آجلاً ظلت الفكرة الدارجة هي وجوب معاملة الأولاد بقسوة، وعملياً كل ما كان يستحق العمل كان محرّماً على الأولاد، ونظرياً عند أمي كل ما يريد الأولاد عمله خطير بدءاً من السباحة وحمل

كرات الثلج وتسلق الأشجار والتزلج والتعلق بالعربات من الخلف والمقلاع وانتهاء بصيد السمك، فكل الحيوانات خطرة ماعدا كلبنا نبلرو، القطتين، العصفور جاكي، حيث لكل حيوان أسلوبه الخاص في الهجوم، فالخيول تعض والخفافيش تلتصق بالشعر والحشرات تدخل في الأذن والبجع يكسر الساق بضربة من جناحه والثيران تنطح والأفاعي تلدغ - وكلها عند أمي تلدغ، وعندما اقتبست لها من الموسوعة أن الأفاعي لا تلدغ بل تعض قالت يجب على الأولاد أن يلتزموا الصمت عندما يتكلم أهاليهم، والسحالي والضفادع والدود والسمندل كلها تلسع، وكل الحشرات تلدغ وكل أصناف الأطعمة ما عدا تلك التي نتناولها في البيت في وجباتنا هي إما سامة أو سيئة. فالبطاطس النيئة قاتلة والفطر أيضاً قاتل ماعدا الذي نشتريه من محل الخضار، والمشمش يسبب المغص والتوت البري يسبب الطفح الجلدي، وإن استحممت بعد الطعام ستموت من تقلص العضلات، وإذا جرحت بين الإبهام والسبابة ستصاب بالكزاز، وإن غسلت يديك بالماء الذي يسلق فيه البيض ستصاب بالثآليل، وتقريباً كل شيء كان ساماً برأيها. لهذا وضعت باباً في المدخل لمنعنا من الوصول إلى دكان والدي من البيت، فكعكة البقر وذرة الدجاج وبذور لخردل وفلفل الدجاج الأسود كلها سامة والحلويات وتناول الطعام بين الوجبات مضر، وعندما كانت

تصنع مربى الخوخ تدعنا نأكل المادة لحلوة التي تحصل عليها من أعلاه فنلتهم الكثير منها حتى نصاب بالتخمة، وهذا لا يمنع من وجدود بعض الأشياء المفيدة القليلة، فالبصل علاج لكل شيء تقريباً، وربط جورب حول العنق يقلل من التهاب اللوزتين والكبريت الموضوع في إناء الكلب مقوي – توجد كتلة من الكبريت في إناء نيلر منذ سنتين ولم تذب بعد.

كنا نشرب الشاي في الساعة السادسة حيث تنهي أمي أعمال المنزل عند الرابعة لتتناول كأس لشاي بعدها، وتقرأ الجرائد لكنها في الحقيقة كانت لا تقرأ سوى جريدة الأحد، جريدة العطلة الأسبوعية التي تنشر أخبار اليوم والجرائم بعد أن اكتشف محرروها أن الناس لا يهتمون إن كانت الجرائم حديثة أم قديمة فكانوا يعودون أحياناً إلى زمن الدكتور بالمر والسيدة مانينغ. واعتقد أن صورة العالم خارج لواريينفيلد عند أمي هي مسرح للجرائم التي لها تأثير فظيع وسحر كبير عليها، ودائماً كانت تردد عبارة كيف يمكن أن يكون الناس أشراراً إلى الحد الذي يقطعون فيه رقاب زوجاتهم ويدفنونهن تحت الأرض الإسمنتية ويرمون الأطفال في جوف الآبار السحيقة، كيف يمكنهم ذلك؟

لقد تزامن زواج أبي مع جريمة جاك ريبر التي سببت هلعاً عاماً فكانت تغلق مصاريع النوافذ وواجهات المحلات، وراودها هاجس أن جاك ريبر قد يكون مختبئاً في لواريينفيلد

وأقلقتها كثيراً قضية كريبين التي حدثت بعد سنوات، ولا أزال أتذكر صوتها وهي تردد: كيف يستطيع قطع رقبة زوجته المسكينة ودفنها في قبو الفحم، ماذا سأفعل بهذا الرجل لو أمسكت به. أما قضية الدكتور الأمريكي الصغير الذي فصل أعضاء زوجته ونجح في إخراج عظامها ورمي رأسها في البحر فقد أرعبتها جداً. وإني أتذكر الدموع التي كانت تفيض من عينيها عندما تردد تلك الحكاية. وكانت تقرأ يوم الأحد هيلدا رفيقة البيوت الموجودة في كل بيت كجزء من الفرش والمعدات التي حافظت على بقائها مع تغيير طفيف رغم الجرائد النسائية الكثيرة التي صدرت بعد الحرب والتي تصفحت واحدة منها في اليوم الفائت فوجدتها لا تزال تنشر القصص المتسلسلة التي تستمر ستة شهور، وتنتهي بأزهار البرتقال وعبارة تتبع في الأعداد القادمة؛ نفس اللوحات المنزلية وذات الإعلانات عن ماكينات الخياطة وعلاج السيقان القبيحة لكن ما تبدل فيها هو خط الطباعة والرسومات، ففي تلك الأيام كان نموذج البطلة يشبه سلق البيض، أما في هذه الأيام فمثل الاسطوانة. كانت أمي قارئة بطيئة لكنها كانت تشق طريقها في إصرار من الغلاف إلى الغلاف، بادئة بالقصص المتسلسلة ثم القصتين القصيرتين فالإعلانات مروراً بالردود على القراء، وتدوم القراءة طيلة الأسبوع دون أن تنهيها أحياناً لأنها تحاول أن تسترد قيمة

البنسات الثلاثة التي دفعتها ثمناً لشرائها. كانت تجلس على الكرسي الأصفر القليم بجانب الموقد واضعة على سياجه الحديدي إبريق الشاي الذي يغلي ببطء في المكان المخصص له في طرف الموقد فتغفو أحياناً بسبب حرارة النار وطنين الذبابة الزرقاء الكبيرة لكنها تستيقظ في السادسة إلا الربع لتعاود القراءة بعزيمة أقوى، وتنظر إلى الساعة الموضوعة على رف الموقد فينتابها القلق خشية أن يتأخر الشاي الذي لم تفتقده، أبداً.

في تلك الأيام ولغاية العام ألف وتسعمائة وتسعة كي أكون أكثر دقة كان لا يزال بمقدور أبي أن يدفع لصبي يساعده في المحل، وكان يأتي ليشرب الشاي معنا ويداه يعلوهما الطحين فتتوقف أمي عن تقطيع لعجين وتقول له ألا تمنحنا بركتك؟ ويدمدم أبي بورع لما نلقاه، اجعلنا يا رب من الشاكرين. وبعدما كبر جو كانت تسأله باركنا يا جو الذي يقولها بصوت عالٍ، أما أمي فلم تباركنا أبداً لان المبارك يجب أن يكون من الذكور.

لم يكن بيتنا صحياً كغيره من بيوت لواربينفيلد الخمس مئة، فعشرة منها فقط فيها حمامات وخمسون فيها ما يسمى مرحاضاً، وقد كنت أشم رائحة الزبالة في الساحة الخلفية، لذلك كان البيت يعجّ بالحشرات في فصل الصيف وتتكاثر الخنافس السوداء في الكوة الخشبية والصرصار في مكان آخر

في المطبخ، إضافة إلى دود الطحين في المحل، وحتى سيدات المنازل الفخورات كأمي لا يقمن بالاحتجاج على وجود الخنافس التي كان منها الكثير في الخزانة الخشبية وأدوات رق العجين. أما البيوت في الشارع القذر الواقعة خلف معمل الجعة حيث تعيش كاثي سيمونز وأسرتها فكانت عرضة لجحافل البق الذي يعتبر عاراً كبيراً بالنسبة لأمي، أو أية زوجة حانوتي آخر.

أما الذباب الأزرق الكبير فيكثر في الأماكن المخصصة لحفظ اللحوم، ويتعلق بأسلاك أغطية اللحم، ولقد شاع بين الناس أن الذباب عمل رباني ولا يمكن فعل الكثير ضده سوى تغطية اللحم.

لقد قلت أشياء كثيرة عن العودة إلى الماضي وأقدم ما أتذكره هو رائحة السنفون، كذلك تعود رائحة الزبالة إلى مرحلة موغلة في القدم أيضاً، ورائحة الكلب الهرم نيلر القوية، وروائح وأصوات لا يعلمها إلا الله وأخرى تنصت إليها لتعرف إن كانت أصوات ذبابة زرقاء أم طائرة قاذفة.

3

لقد ذهب أخي جو إلى مدرسة والتون قبلي بسنتين، وكنا لا نذهب إلى المدرسة قبل سن التاسعة لأننا يجب أن نركب الدراجة ونقطع أربعة أميال صباحاً ومساء فخافت أمي ولم

تسمح لنا بذلك، لكن بمرور الزمن أصبح هناك عدد من السيارات لكنه قليل.

أما انا فذهبت إلى مدرسة بنات تديرها السيدة العجوز هولييت ويرتادها أولاد أصحاب الحوانيت لتفادي عار المدارس الداخلية، ورغم معرفة الجميع بأن الأم هولييت محتالة وعديمة الفائدة كمعلمة لأنها في السبعين من عمرها وصماء وترى بنظارتها بصعوبة وكل ما تملكه عصا من الخيزران ولوحاً اسود وبضعة كتب بالية ودزينتين من ألواح الإردواز القذرة، وقد تستطيع ضبط الفتيات بسهولة أما الأولاد فيحتالون عليها ويتهربون من كتابة واجباتهم ومن الدوام متى ما أرادوا ذلك. وحدثت فضيحة فظيعة في إحدى المرات عندما وضع أحد الأولاد تحت ثوب فتاة شيئاً لم افهمه في ذلك الوقت، لكن الأم هولييت نجحت في إسكاتها، وإن فعلنا شيئاً كانت تهدد بعبارتها المكررة: سوف أخبر والدك، لكنها نادراً ما فعلت ذلك، وكنا نعرف بذكائنا أنها لا تجرؤ، وإن حاولت طردنا بالعصا كان من السهل تفاديها نظراً لخرفها وهرمها.

في الثامنة من عمره انضم جو إلى عصابة من الأولاد أطلقوا على أنفسهم عصابة الكف الأسود والتي كان قائدها سيد لوفغروف الابن الأصغر للسراج والبالغ الثالثة عشرة من العمر، أما الأعضاء فولدان آخران يعملان في الحوانيت وصبي من معمل الجعة وولدان من المزارع كانا يهربان

ساعتين لينضما إلى العصابة. لقد كانا ضخمين حتى ليكادا أن ينفجرا في سرواليهما القصيرين المصنوعين من قماش قطني قوي ويتكلمان بلهجة بذيئة، ويحتقرهما أفراد العصابة الآخرين لكنهم قبلوا انضمامهما لتفوقهما في معرفة الحيوانات. إذ إن جنجر وهو اسم احدهما يستطيع الإمساك بأرنب بيديه فقط، فعندما يراه مستلقيا على العشب يهوي عليه كنسر أمريكي.

لم ندرك ونحن الصغار التميز الاجتماعي الكبير بين أولاد أصحاب الدكاكين وأولاد العمال وعمال المزارع إلى أن أصبحنا في السادسة عشرة من العمر. للعصابة كلمة سر واختبار صعب يتم بجرح الإصبع وأكل دودة الأرض. نجحت العصابة في التسبب ببعض الإزعاج وذلك بتكسير زجاج النوافذ ومطاردة الأبقار ونزع مدقات البيوت وسرقة الفواكه بمئات الأرطال، كما نجحت في الشتاء أحياناً في استعارة ابن مقرض لصيد الجرذان عند سماح المزارعين لهم بذلك، وخططت لادخار مبلغ من المال لشراء مسدس صالون الذي كان يساوي خمسة شلنات لكن الادخار لم يتجاوز الثلاثة شلنات، أما في الصيف فكانوا يذهبون لصيد السمك والبحث عن أعشاش الطيور. جو يهرب من مدرسة الأم هوليبت يوماً واحداً في الأسبوع، ومن مدرسة والتون يوماً كل أسبوعين وفي المدرسة ابن بائع المزاد القادر على تزوير أي

خط بنس واحد، نيزوّر رسالة من أمك تفيد أنك كنت مريضاً في اليوم السابق. كدت أجن للانضمام إلى العصابة لكن جو يصدني دائماً بقوله إنهم لا يريدون أولاداً كسالى ومتسكعين.

جذبتني فكرة صيد السمك كثيراً لأنني بلغت الثامنة ولم أمارس هذه الهواية بعد سوى الصيد بالشبكة البسيطة التي إن أفلحت لا تمسك إلا بسمك أبو شوكة أحياناً. لا تدعنا أمي نذهب بسبب رعبها من أي مكان قريب من الماء، فحرمت علينا الصيد مثلما حرم الآباء في ذلك الوقت كل الأشياء، ولم أدرك آنذاك أن الكبار لا يمكنهم ذلك.

جعلتني فكرة الصيد متوحشاً وملأتني بالإثارة؛ مررت كثيراً ببركة طاحونة المزرعة فرأيت صغار سمك الكارب على السطح وتحت شجرة الحور أحياناً، وفي الزاوية كانت سمكة كبيرة من الكارب مفلطحة وضخمة، هكذا بدت لي وبعيون هائلة حيث يصل طولها إلى ست بوصات وهي تقفز إلى السطح وتغطس ثانية. أمضيت ساعات طويلة وأنا ألصق وجهي بواجهة محل ولاس لبيع البنادق وأدوات الصيد في الشارع العام.

كنت استيقظ في الصباح في فصل الصيف وانا أفكر بحكايات جو عن لصيد وأتعجب من الإشعاع الخرافي للسمك ولأدوات الصيد في عيون الأطفال حيث يحس

بعضهم بذلك الشعور نحو البنادق والتسديد، وبعضهم الآخر نحو الدراجات النارية أو الطائرات أو الخيول. شعور لا يمكن تفسيره أو إخضاعه للمنطق لأنه سحر محض. وفي صباح يوم من أيام حزيران(يونيو) عرفت أن جو سينقطع عن المدرسة ليذهب إلى الصيد، وأظن أنني كنت في الثامنة من عمري فقررت اللحاق به لكن جو تكهن بنيتي بطريقة ما وهاجمني قائلاً:

- اسمع يا جورج الصغير إياك أن نفكّر في الذهاب مع العصابة اليوم لأنك ستبقى في البيت.

- لا لم أفكر بشيء من هذا.

- ستبقى في البيت لأننا لا نريد أولاداً قذرين في صفوفنا.

تعلم جورج كلمة قذر حديثاً، فأكثر من استخدامها حتى أن أبي سمعه مرة فأقسم أن يزهق روحه لكن كعادته لم يفعل شيئاً.

انطلق جو راكباً دراجته إلى المدرسة ومعه حقيبة الكتب وقبعة المدرسة قبل خمس دقائق من عادته. وهو كان يفعل ذلك عندما ينوي الانقطاع عن المدرسة، وحينما آن موعد ذهابي إلى مدرسة الأم هولييت تسللت واختبأت في الممر الذي يقع خلف البساتين وأنا اعرف أن لعصابة ستذهب إلى البركة التي عند طاحونة المزرعة وسألحق بهم ولو ذبحوني،

وقد يجلدونني وعندما أرجع إلى البيت للغداء سأجلد ثانية بعدما تعرف أمي بعدم ذهابي إلى المدرسة.لم اكترث لهذا كله، وكنت مصمماً على الذهاب مع العصابة مهما كلف الأمر. تصرفت بمكر إذ تركت جو يذهب ويصل إلى طاحونة المزرعة من خلال الممر وتبعته سالكاً الممشى المحيط بالمروج والطرق البعيدة عن السياج لكي أصل إلى مستوى البركة دون أن يراني احد من أفراد العصابة. كان صباحاً رائعاً من أيام حزيران (يونيو) حيث يصل نبات الحوذان إلى مستوى ركبتي، والريح خفيفة تحرك قمم أشجار الجوز وكانت أوراق الشجر الطرية الحريرية تبدو مثل غيوم خضراء داكنة. كانت الساعة التاسعة صباحاً وعمري ثمانية أعوام وكل ما يحيط بي هو الصيف، الاسيجة الشائكة والورود البرية التي لا تزال في براعمها وغيمة بيضاء تنجرف في الأعلى بعيداً، وعلى التلال غابات زرقاء داكنة تحيط بيينفيلد. من جهتي لم اهتم سوى بالبركة الخضراء والسمك والعصابة بكلاباتهم وعجينهم وخيطانهم كما لو أنهم كانوا في الفردوس؛ وكل ما أريده أن أنضم إلى جو وسيد لوفغروف وصبي المحل وابن حانوتي آخر اعتقد أن اسمه كان هاري بارنز،التفت جو فرآني ومشى نحوي مثل هر عازم على القتال.

- يا إلهي! إنه الصبي والآن أنت هنا، ماذا قلت لك؟ ارجع إلى البيت بأقصى سرعة.

كنا نتكلم أنا وجو بلهجة سوقية عند الغضب، تراجعت بعيداً عنه وقلت:

- لن أعود إلى البيت.

- بل ستعود.

- إقطع أذنه يا جو، لا نريد صغاراً معنا. قال سيد.

- لن ترجع إلى البيت إذاً؟

- كلاً

- حسناً يا صغيري حسناً.

هجم عليّ وطاردني وامسك بأذني أكثر من مرة، لكنني لم أبتعد عن البركة إذ كنت أركض حولها لكنه امسك بي وطرحني أرضاً وداس على ساعدي بركبتيه وبدأ في لوي أذناي وهذا هو أسلوبه المفضل في التعذيب الذي كنت لا أطيقه، فبدأت أرغي لكن لم أستسلم ولم أقطع وعداً بالذهاب إلى البيت لأنني أردت البقاء والصيد مع العصابة، بعدها ألتم أفرادها حولي وطلبوا من جو أن ينهض عن صدري ويدعني أبقى معهم إن أحببت وهكذا بقيت معهم.

كان لديهم الصنارات والخيوط والطرافات وقطع العجين الملفوف. لقد قمنا بقطع العصي من شجرة الصفصاف التي في زاوية البركة. كان بيت المزرعة يبعد حوالى مئتي ياردة وعلينا الاختباء عن الأعين لأن العجوز برور يحتقر الصيد رغم أن الأمر لا يشكل له أي أذى فهو يستخدم البركة

لسقاية قطيعه لكنه يكره الأولاد. غار إفراد العصابة مني وبدأوا بتلاوة تعليماتهم عليّ بأن لا أخرج إلى الضوء، وأن الضجة التي أصدرها تخيف السمك وتبعده رغم أنني لم أكن أسبّب نصف الضجة التي يسببها أقلّهم لحذري، وفي النهاية لم يسمحوا لي بالجلوس معهم، بل أرسلوني إلى طرف من البركة ماؤه ضحل وظله قليل لأنني أرشرش الماء وأخيف السمك؛ كان جزءاً متعفناً من البركة لا يرتاده السمك أبداً في الأحوال العادية لأنني اعرف بالغريزة الأماكن التي يتواجد فيها. لابأس ها أنا أصيد أخيراً، وأجلس على ضفة العشب والصنارة في يدي والذباب الطنان يطير من حولي ورائحة النعناع البري القوية والفلينة الحمراء على الماء الأخضر. كنت سعيداً مثل سمكري رغم آثار الدموع والأوساخ التي غطت وجهي.

لا يعلم إلا الله كم جلسنا حول البركة إذ امتد الصباح وطال وازداد وهج الحر، ولم تتحرك الخيوط. لقد كان يوماً حاراً وساكناً ومناسباً جداً للصيد لكن لم تهتز الطوافات على وجه الماء الذي يمكن رؤية أعماقه وكأنه زجاج أخضر غامق، والسمك راقد تحت السطح يتشمس وأحياناً يخرج سمندل من بين الطحلب ليرتاح واضعاً أصابعه على الطحالب وأنفه خارج الماء.لكن السمك لم يعض لطعم رغم أن بعض أفراد العصابة ادعوا أنهم شعروا بنبضة، وامتد الوقت

وازدادت الحرارة أكثر فأكثر وأكلنا الذباب وقتلتنا رائحة النعناع البري التي تشبه رائحة محل حلويات الأم ويللر، وشعرت بجوع قاتل لكن من أين لي بالطعام، فجلست هادئاً ولم ترف عيني عن طوافتي، أعطوني الكثير من الطعم وأخبروني ما يجب أن أفعل ولم أسحب خيطي لمدة طويلة لأنهم حلفوا أن الضجيج الذي أصدره بخيف السمك على بعد خمسة أميال.

أعتقد أنني أمضيت ما يربو على الساعتين عندما اهتزت طوافتي وعرفت أنها سمكة مارة مصادفة فرأت الطعم. لم أخطئ حول حركة الفلينة، إنها عضة خفيفة وتختلف عن حركة الخيط وارتعاشه مصادفة، وبعد لحظة تحركت للأعلى ثم للأسفل فلم أعد أتمالك نفسي وصحت عندي عضة، وردّ سيد إنها الجرذان، لكن في اللحظة التي تلت لم يبقَ عندي أدنى شك إذ غطست الفلينة للأسفل ورأيتها حمراء قاتمة تحت الماء. رمى الأولاد صناراتهم في الهواء واندفعوا نحوي عندها انحنت صنارتي، يا إلهي.. يا له من شعور، الخيط في يدي والسمكة تشد من الطرف الآخر فصرخت صرخة مرعبة وخرجت السمكة طائرة في الجو، سمكة ضخمة فضية اللون، فصرخ الجميع ثم انزلقت السمكة من كلاب الصنارة لتسقط على النعناع تحت الضفة. لقد كان الماء ضحلاً جداً لهذا لم تستطع الانقلاب ثانية فاستلقت على جنبها يائسة. رمى جو

نفسه في الماء مرشرشاً الآخرين وأمسكها بكلتا يديه وصاح أمسكتها، ثم رماها على العشب فقرفصنا حولها ناظرين إليها بإعجاب. رفرفت المسكينة كثيراً وكانت حراشفها تلمع بكل ألوان قوس قزح، إنها سمكة كارب كبيرة طولها سبع بوصات على الأقل وتزن أكثر من ربع رطل.

بعد لحظة سقط وسطنا ظل، فنظرنا إلى الأعلى لنرى العجوز برور واقفاً فوقنا بقبعته اللبادية المستديرة الطويلة وحذائه المصنوع من جلد البقر وفي يده عصا غليظة فارتعبنا مثل أفراخ الحجل التي ترى باشقاً فوقها، وتفحصنا الواحد تلو الآخر بفمه القبيح الذي يخلو من الأسنان وذقنه الذي بدا مثل كسارة البندق بعد أن حلق لحيته.

- ماذا تفعلون أيها الأولاد؟

لم يكن هناك أي شك عما كنا نفعله، لم يجب أحد، تابع قائلاً:

- سوف ترون عواقب المجيء إلى بركتي والصيد فيها.

زأر فجأة وهجم علينا ضارباً بعصاه في كل الاتجاهات، فتفككت عصابة الكف الأسود وتفرقت في شتى الاتجاهات وتركنا السمكة والصنارات خلفنا وطاردنا العجوز إلى نصف المرج. كانت ساقاه متخشبتين ولم يقدر على الركض بسرعة لكنه نجح في بعض الضربات قبل أن نبتعد عنه، لكن غالبية الضربات انصبّت عليّ وتلونت ربلتا ساقي باللون الأحمر

الداكن. كان يصرخ خلفنا لكننا وصلنا إلى الطرف الآخر من السياج.

أمضيت يومي كله برفقة العصابة دون أن يقروا بأنني عضو حقيقي فيها، لكنهم تحملوني وقبلوني مؤقتاً، وعندما غادر الصبي الذي يشتغل في معمل البيرة لأنه غاب عن العمل متذرعاً بعذر كاذب انطلقنا في مشوار طويل من تلك المشاوير التي يقوم بها الأولاد عندما يكونون بعيدين عن البيت كل اليوم وبدون إذن، لكن هذا المشوار اختلف عن مشاويرنا مع كاثي سيمونز. تناولنا الغداء عند قناة قذرة في طرف المدينة ممتلئة بالعلب الصدئة ونبات الشمرة البرية. لقد أعطوني من طعامهم وقام أحدهم بتحضير شراب بالسنت الذي كان مع سيد لوفغروف لأن الجو كان حاراً جداً ورائحة الشمرة وغاز الشراب جعلانا نتجشأ؛ وبعدها مشينا في الطريق الترابي الأبيض إلى بينفيلد العليا التي كنت أذهب إليها لأول مرة، فرأيت أشجار الزان بجذوعها الملساء العالية التي شقت عنان السماء وبدت الطيور فوق الأغصان كالنقط والأوراق الميتة التي تشبه السجادة. يمكن للمرء الذهاب حيثما شاء في الغابات في تلك الأيام لأن بيت بينفيلد مغلق ولم يعد يحتفظ بفلاحيه، لكن أسوأ ما قد يحدث أن تصادفك عربة محملة بالحطب. وجدنا شجرة مقطوعة وملقاة على الأرض فبدت حلقات جذعها مثل الهدف فسددنا إليه

ورميناه بالحجارة، ورمى الأولاد العصافير بمقاليعهم، وادعى سيد لوفغروف انه أصاب واحداً لكنه التصق بفرع الشجرة فكذبه جو فأوشكا أن يتشاجرا، ثم نزلنا إلى كهوف كلسية ممتلئة بأوراق الأشجار المتساقطة التي بدت كالأسرة. كنا نسمع صدى صراخنا، فتلفظ أحدهم بكلمة قذرة ثم أردفناه بكل المرادفات التي نعرفها، وكنت يومها لا أعرف الكثير فأصبحت محط سخرية. لقد أدعى سيد لوفغروف أنه يعرف كيف يولد الأطفال، فهم يولدون كالأرانب ما عدا أنهم يخرجون من السرة، وبدأ هاري بارنز بحفر الكلمة على شجرة زان لكنه ملّ فتوقف بعد الحرفين الأولين. بعدها تجولنا حول كوخ بيت بينفيلد - شاع بين الناس وجود بركة فيها سمكة ضخمة ولم يجرؤ احد على الدخول لان العجوز المستأجر هودجز يقوم بدور الحارس وهو يكره الأولاد، رأيناه يحفر في حديقة الخضار عندما مررنا به،شتمناه من وراء السياج فطاردنا ووصلنا إلى طريق وولتون فشتمنا سائقي العربات الذين ردوا علينا، لكن لم تُصبنا سياطهم لأننا كنا على الطرف الآخر من الطريق. وعلى المقلب الآخر هناك مكان للطرائد، لكنه اضحى مكب نفايات عثرنا فيه على شجر عليق اسود وسط أكوام من العلب الصدئة وإطارات الدراجات والمقلايات المثقوبة والقناني المكسرة التي نبتت فيها الأعشاب. أمضينا ساعة هناك فتلوثنا من رأسنا حتى

أقدامنا ونحن ننبش عن الأعمدة الحديدية الصدئة لان هاري بارنز حلف أن الحدادين يعطون ستة شلنات مقابل كل مئة باوند من الحديد القديم. وجد جو عشاً لفرخ دراج في شجرة عليق فأخرجناه وضربناه بالحجارة ثم دسنا عليه واقتربنا من وقت تناول الشاي وعلمنا أن العجوز برور قد بلّغ عنا، وأنّ جلد السياط ينتظرنا في البيت، كذلك شعرنا بجوع شديد ولم نعد قادرين على البقاء في الخارج فتقاطرنا باتجاه البيوت ومررنا بالبساتين وطاردنا جرذاً بالعصي لكن العجوز بينيت رئيس المحطة والذي يعمل في البساتين غضب غضباً شديداً منا لأننا دسنا على حقل البصل الخاص به.

بعد عشرة أميال من المشي الذي استمر طوال اليوم لم أتعب، بل لحقت بالعصابة وحاولت القيام بكل ما فعلوه لكنهم نعتوني بالولد وتباهوا عليّ كثيراً، ورغم كل ذلك تابعت إلى النهاية بشكل أو بآخر. كان شعوري رائعاً من الداخل وهو شعور لن تعرفه إلا إذا جرّبته وإن كنت رجلاً ستحسّ به يوماً ما، وأعرف أنني أصبحت صبياً ولم أعد صغيراً وهنا الروعة: أتجوّل حيث لا يمكن للكبار اكتشافي وأطارد الجرذان واقتل الطيور وأرمي الحجارة وأشتم سائقي العربات وأتلفظ بالكلمات القذرة. شعور قوي وكامل، شعور بمعرفة كل شيء وعدم الخوف من اي شيء، وهذا مرتبط بخرق القوانين والقتل، الشعور بالطرق الترابية البيضاء

والثياب التي تفوح منها رائحة العرق وروائح النعناع البري والشمرة وطعم الليمون الفوار والكلمات القذرة ورائحة مكب النفايات الحامضة والغاز الذي جعلنا نتجشأ ودهس أفراخ الطيور، شعور بالسمكة التي تلوّت على الخيط، وكل ذلك وغيره كثير، وإني أحمد الله الذي خلقني ذكراً لان النساء لا يجربن هذا الشعور.

من المؤكد أن لعجوز برور قد أخبر الجميع فبدا أبي مكتئباً جداً، فأحضر سوطاً من الدكان وهدد بزهق أرواحنا لكن جو صرخ ورفس ولم ينجح أبي في اصابته إلا في ضربتين وتمّ طرده من المدرسة في اليوم التالي، أما أنا فحاولت المقاومة لكنني كنت صغيراً بالنسبة لأمي التي وضعتني على ركبتيها وضربتني بالسوط وبهذا أكون قد جلدت في ذلك اليوم ثلاث مرات من جو ومن العجوز بروير ومن أمي.

في اليوم التالي لم تقر العصابة أني عضو فعلي فيها وانما يجب أن أتجاوز امتحانها الصعب وهو عبارة عن أشياء استوحوها من قصص الهنود الحمر وكانوا صارمين في ذلك. يجب أن أعض دودة قبل بلعها ولأنني كنت الأصغر وبسبب غيرتهم لأنني الوحيد الذي اصطاد سمكة. لدى الناس عموماً ميل إلى المبالغة عندما يتكلمون عن صيد السمك. فالأسماك تصبح أكبر بكثير أما سمكتي فكانت تصغر فتصغر حتى

سمعتهم يقولون إنها كانت أصغر من السمك الصغير لكن ذلك غير مهم، لقد ذهبت للصيد ورأيت الفلينة تغطس تحت الماء وشعرت بالسمكة وهي تشد الخيط ومهما كثرت أكاذيبهم فلا يمكنهم أخذها مني.

4

تتمحور كل ذكرياتي في السنوات السبع التالية، أي منذ أن كنت في الثامنة إلى أن بلغت الخامسة عشرة حول صيد السمك بشكل أساسي، لكن هذا لا يعني أنني لم أفعل أي شيء سواه، فعندما تنظر إلى الماضي البعيد تتضخم بعض الأشياء لتغطي غيرها، وبعد أن تركت مدرسة الأم هوليبيت ذهبت إلى مدرسة ابتدائية بحقيبة مدرسية جلدية وقلنسوة سوداء مخططة بالأصفر وسروال طويل، وحصلت على دراجتي الأولى وهي كانت من النوع ذي المسننات الثابتة لأن ذات المسننات المتحركة كانت غالية؛ كنا نضع أقدامنا على مقدمة الدراجة حين نهبط التل فتتحرك الدواسات وتدور، وكان هذا المشهد من خواص الألف وتسعمائة بالنسبة إلى ولد يهبط التل رأسه إلى الوراء ورجلاه مرفوعتان في الهواء. ذهبت إلى المدرسة الابتدائية وأنا أرتعد من الخوف بسبب الحكايات التي رواها لي جو عن العجوز ويسكرز. كان ويسكي وهو مدير المدرسة رجلاً بحجم صغير ووجه مخيف

كوجه ذئب وفي طرف غرفته لديه صندوق زجاجي في داخله علب يخرج منها أشياء تهسّ في الجو مثيرة الرعب. لم يخطر في بالي أنني سأكون أذكى من جو وهو الذي كان يكبرني بسنتين ويستبد بي منذ أن استطاع المشي. في الوقع كان جو غبياً غباء مطلقاً ويعاقب بعصا الخيزران كل أسبوع ويحجز في مكان في أسفل المدرسة إلى أن بلغ السادسة عشرة أما أنا فأخذت جائزة في مادة الحساب وأخرى في مادة مملة تدرس الأزهار المضغوطة، وصنفت في الصف الثاني، وقبل أن ابلغ الرابعة عشرة تحدث ويسكرز عن الدراسة الجامعية والمنح الدراسية وكان أبي يتشوّق كي اذهب إلى الجامعة ويطمح بأن أصبح معلماً وأخي جو سمسار مزادات.

إنَّ ذكرياتي المتعلقة بالمدرسة ليست كثيرة، وعندما اختلطت مع شباب الطبقة العليا في المدرسة والجيش صعقت من أنهم لم ينهوا تدريبهم المفروض عليهم، وكانت تلك المدارس الداخلية الخاصة إما أن تسطّحهم أي الأولاد، أو تجعلهم بلهاء أو أنهم يمضون بقية حياتهم يمتعضون منها. لكن الأمور لم تكن هكذا مع أولاد صفنا، نحن أولاد الحانوتيين والمزارعين. كنا نظل في المدرسة الابتدائية حتى السادسة عشرة لنظهر للناس فقط أننا لسنا من أفراد طبقة العمال. إن المدرسة هي المكان الذي تود الابتعاد عنه دائماً، ولا تكن الولاء ولا الشعور لتلك الحجارة الرمادية القديمة

التي أسسها الكاردينال وولسي. يومها، لم تكن ربطة العنق إلزامية، وكذلك نشيد المدرسة حيث يمكنك اخذ إجازة نصف اليوم بنفسك لان الألعاب لم تكن إجبارية. لقد لعبنا كرة القدم بالبناطيل والكريكت بالحزام والسراويل والقمصان العادية واللعبة التي اهتممت بها هي الكريكت التي كنا نلعبها في الساحة الرملية أثناء الفسحة بمضارب مصنوعة من الصناديق المخصصة للتغليف وكرات الكومبو.

أتذكر رائحة قاعة المدرسة الكبيرة، فهي رائحة حبر وغبار وأحذية وحجارة مكومة لشحذ السكاكين، ورائحة محل الخباز الصغير المقابل بائع البندق الذي كان حجمه ضعف بندق الزمن الحالي، واسمه ليدي ويشز وسعره نصف سنت. لقد فعلت كل الأشياء التي يمكن أن تفعلها، نقشت اسمي على المكتب لأنه كان عرفاً وعوقبت بالخيزران بسببه، لوثت أصابعي بالحبر وقضمت أظفاري وصنعت الأسهم من أغطية الأقلام ولعبت الكونكرز ونقلت القصص القذرة وتعلمت العادة السرية وشتمت العجوز بولرز مدرس اللغة الإنكليزية. ولقد ضايقنا الصغير ويللي ابن المتعهد المعتوه الذي يصدق كل ما يقال له، وكانت خدعتنا المفضلة إرساله إلى المتاجر ليشتري أشياء غير موجودة من طوابع البنس إلى المطارق المطاطية إلى مفك الأعسر والإناء المطلي، وانطلت كلها على المسكين ويللي. وفي عصر احد الأيام كنا نلعب الرياضة

فوضعناه في أنبوب وطلبنا منه أن يرفع نفسه بالمقابض، وانتهى المسكين في مصحّ عقلي أما الإجازات فكانت أمتع ما في تلك الأيام .

كانت الأشياء الممتعة كثيرة، ففي فصل الشتاء استعرنا زوجاً من ابن مقرض لصيد الجرذان التي كانت أمي تمنعنا أنا وجو من صيدها وتقول إن رائحتها قذرة، وطلبنا الإذن من المزارعين الذين يسمحون لنا تارة ويرفضون أخرى مدّعين بأننا مشكلة أسوأ من الجرذان، فكنا نلحق بآلة الدراسة أثناء درس الأكداس محاولين قتل الجرذان. لقد فاض نهر التيمز في شتاء عام 1908 وتجمّدت مياهه فتزلجنا فوقها طيلة أسابيع حيث كسر عظم ترقوة هاري بارنز.

أما في الربيع نقد طاردنا السناجب وصدنا الأعشاش واعتقدنا أن الطيور لا يمكنها الجري، وأنه يجب ترك بيضة في العش، كنا وحوشاً شرسة صغيرة نقلب العش ونهرس البيض والفراخ أحياناً كذلك امسكنا الضفادع التي ننفخها بمنفاخ الدراجة حتى تنفجر. لا أعرف لماذا كنا أشقياء إلى هذا الحد. وفي الصيف نركب دراجاتنا ونذهب إلى بورفوردوير لنسبح هناك. لقد غرق والي لوفغروف ابن عم سيد عام 1906 عندما علق بالأعشاب والطحالب التي في القاع وكان وجهه أسود فاحماً عندما أخرجوه بالكلابات. لكن الأهم والحقيقي كان صيد السمك، فقد ذهبنا إلى بركة بروير

كثيراً، وأخذنا معنا سمكات صغيرة من الكارب والتنش والانكليس وبعد أن صار عندنا دراجات بدأنا نصيد في نهر التيمز عند بروفوردوير التي تفوق كل البرك حجماً، واستطعنا التخلّص من مضايقات المزارعين، كذلك يحكى عن تواجد بعض السمك هناك، فكنت أحس باهتزاز الخيط لكن على حسب معرفتي لم أسمع أن أحداً أمسك بسمكة.

كان شعوري بالصيد غريباً ولا أقدر أن أصنف نفسي صياداً إذ لم أمسك بحياتي سمكة بطول قدمين، ومنذ ثلاثين عاماً لم تلمس يداي صنارة صيد، ورغم هذا كله فإنني عندما أعود إلى طفولتي الممتدة من الثامنة إلى الخامسة عشرة أراها تتمحور حول الصيد وأيامه المطبوعة بذاكرتي بوضوح تام وبالجزئيات والتفاصيل الدقيقة، ولا توجد بركة بقر أو مياه خافية إلا وأستطيع تصورها وأنا مغمض العين، وأعتقد أنني قادر أن أؤلف كتاباً عن أساليب الصيد. لم تكن عدة صيدنا كثيرة لأنها مكلفة ونحن أولاد ومصروف واحدنا كان في حدود الثلاثة بنسات التي كنا نهدرها في شراء الحلويات من محل ليدي باسترز، فصدنا بدبابيس ملوية ومثلّمة من كثرة الاستخدام، وأمكننا صنع كلّابات جيدة من الإبر التي نمسكها بملقط ونسخّنها على لهب الشمعة، كذلك صنع أولاد المزارع خيطاناً من شعر الحصان الذي كنا نحوّله إلى جدائل وبعد فترة صرنا نشتري صنارات ذات الشلنين وحتى

بكرات من أنواع مختلفة. يا إلهي كم أمضينا ساعات طويلة نحملق في واجهة محل والاس، ولم تجذبني البنادق ولا المسدسات بقدر ما هزتني عدد صيد السمك؛ ولقد التقطت يوماً كاتالوج غاميج من كوم زبالة ودرسته وكأنه الكتاب المقدس، ويمكنني الآن ذكر كل تفاصيله عن بدائل الخيوط والخيوط الحريرية وكلابات ليمرسك والقساوسة والمتنبئين وبكرات توتنهام وعدد لا يعلمه إلا الله من التقنيات الأخرى.

أما أنواع الطعوم التي نستخدمها فكنا نأخذ من دكاننا دود الطحين الذي ليس بجودة الذباب الكبير الذي نأخذه من اللحام العجوز غرافيت حيث كنا نقترع على من سيذهب إليه لأنه لا يحب أن يعطينا، وكان لغرافيت هذا وجه ضخم شيطاني وصوت يشبه صوت نباح كلب حراسة ويتمنطق بالسكاكين المجلجلة حول خصره ويبقينا ننتظر إلى أن يذهب آخر زبائنه عندها نقول له هل يوجد عنك ذباب سيد غرافيت فيرد بصوت رعدي: ذباب في محلي؟ لم يتواجد منذ سنتين، هل ترى أي ذباب في محلي؟

كان المكان يعج بالذباب طبعاً ولدى غرافيت سوط جلدي مثبت بطرف عصا ليصل إلى الأماكن البعيدة يضرب الذباب به ويحوله إلى عجين. وكنا أحياناً نعود دون ذباب لكنه عادة يصيح بك: إذهب إلى الساحة الخلفية وابحث بحرص، فقد تجد واحدة أو اثنتين إن كنت محظوظاً لكن

الذباب كان في عناقيد صغيرة في كل مكان في فناء غرافيت الخلفي الذي تفوح منه رائحة تشبه رائحة ساحة المعركة لأنه لم يكن لدى اللحامين آنذاك ثلاجات. يعيش الذباب فترة أطول إن وضعته في نشارة الخشب أما اليرقات والزنابير فهي جيدة، لكن تثبيتها بالصنارة صعب، وعندما يجد أحدنا عش زنابير نأتيه ليلاً ونصب فيه زيت الصنوبر ونسد فتحته بالوحل وفي اليوم التالي نحفر العش ونجدها ميتة فنأخذ اليرقات، وفي إحدى المرات أخطأنا في صب الزيت فعندما نزعنا غطاء الوحل خرجت الزنابير المحبوسة طوال الليل وهاجمتنا ولم تلسعنا كثيراً لأننا هربنا بسرعة فائقة. الجندب أفضل طعم لسمك الشب لكن من الصعب الحصول على أكثر من جندبين أو ثلاثة في المحاولة الوحدة، أما الذباب الأزرق الملعون فيعتبر أفضل طعم لسمك الداس خصوصاً في أيام الصحو خاصةً إن وضعتها حية تتلوى على الصنارة، كما أنَّ سمك الشب يحبّ الدبور أيضاً لكن من الصعب تعليق دبور حي بالصنارة. إنَّ عدد أنواع الطعوم لا يحصى كعجين الخبز الأبيض الذي نضعه في خرقة وعجين العسل وعجين آخر نصنعه من بذور اليانسون والقمح المسلوق وهو ممتاز لسمك الروش والدود الأحمر الذي نجده في أكوام السماد القديمة لسمك القوبيون، ونجد نوعاً آخر من الدود يدعى دود الأرض وهو مخطط ورائحته تشبه رائحة أبو مقص ويفضله

سمك الفرخ ويجب وضعه في الطحالب ليبقى طازجاً، أما إن حفظ في التراب فسيموت والذباب الأزرق الذي يحط على الروث جيد لسمك الروش ويمكن أن يأكل سمك الشب الكرز أو المشمش كما يقال.

في تلك الأيام، وفي السادس عشر من حزيران (يونيو) يبدأ موسم الصيد، ويستمر لغاية بداية الشتاء، فكنت أحمل علبة الحشرات معي والذباب حاضر في جيبي في كل الأوقات؛ ولقد تشاجرت مع أمي بسببها كثيراً لكنها استسلمت أخيراً وخرج الصيد من قائمة الممنوعات فأعطاني والدي صنارة بشلنين في عطلة رأس السنة من عام 1903. كان جو في الخامسة عشرة عندما بدأ بملاحقة الفتيات، وبعدها قل ذهابه إلى الصيد لكن المهووسين من أمثالي كانوا كثراً. يا إلهي ما أحلى أيام الصيد تلك، ففي غرفة الصف في أيام الصيف الحارة اللزجة أجلس مرسلاً رجليّ تحت المكتب وصوت العجوز بلورز يهيّج الأعصاب وهو يتحدث عن المسند والمسند إليه وشبه الجملة الوصلية لكن كل ذهني كان في بركة الصيد الخلفية القريبة من برفوردوير والبركة الخضراء التي تحت الصفصافة وأسماك الداس المنزلقة إلى الأمام والخلف والانطلاق بالدراجات بعد شرب الشاي صعوداً إلى تل شامفورد ونزولاً إلى النهر للصيد ساعة قبل حلول الظلام. أمسيات الصيف الساكنة وخرير الماء الواهن على السياج

والحلقات التي يرسمها السمك وهو يقفز ويهبط على الماء، والبق الذي يأكلك وأنت حي وأسراب الداس التي تتسلق صنارتك دون أن تقع في مصيدتك، والتوتر الغريب وأنت تراقب السمك الأسود وهو يتسلق وأنت في أمل ورجاء أن يجر خيطك قبل حلول الظلام حيث كنا نتمنى أن نبقى خمس دقائق أخرى لكن في النهاية عليك الرحيل وجرّ دراجتك باتجاه البلدة وقد يضبطك الشرطي تاولر الذي يجوس البلدة وأنت تقود الدراجة ليلاً بدون مصابيح. كنا نخرج ونحتفل بالبيض المسلوق والزبدة والخبز وقنينة من عصير الليمون، نصيد السمك ونسبح ثم نصيد ثانية، وكنا نمسك بعض السمك أحياناً ونعود في الليل، وأيدينا ملوثة يكاد أن يقتلنا الجوع لدرجة أننا نوشك أن نأكل الخبز المعجون مع صغار سمك الداس الملفوف بالخرق. كانت أمي ترفض دائماً طبخ السمك الذي أصيده ولا تعترف بأن سمك النهر صالح للأكل ماعدا السلمون والاطروط وخصوصاً السمك المتوحش الذي نراه عندما نذهب في مشاوير على طول الممر المائي بعد ظهر أيام الآحاد، تلك الأيام التي كان الصيد ممنوعاً فيها بقرار من مجلس المدينة.

كنا نخرج ونحن نرتدي بدلة سوداء سميكة وقبة تغطي الرأس في مشاوير طويلة أيام الأحد وفي أحدها رأيت سمكة كراكي بطول ياردة نائمة في ماء ضحل قريب من الضفة،

فأوشكت أن أصيبها بحجر، وفي مرة أخرى رأيت سمكة اطروط نهرية تسبح في البركة الخضراء، وهذا النوع من السمك يكبر ليصل إلى أحجام كبيرة في التيمز. ويحكى إن أحد صيادي التيمز الحقيقيين من الطراز القديم ومن ذوي الأنوف الكبيرة المدثرين بمعاطف ويجلسون على مقاعد تطوى وصنانير بطول عشرين قدماً خاصة لسمك الروشن هم على استعداد أن يدفعوا سنة من حياتهم من أجل سمكة اطروط واحدة، هؤلاء كانوا يرابطون في كل فصول السنة ولا ألومهم لأنني أتفهم مشاعرهم تماماً.

من المؤكد أن أشياء أخرى حدثت،فطولي كان يزداد ثلاث بوصات كل سنة، ولقد لبست البناطيل الطويلة وربحت بعض الجوائز المدرسية كما ذهبت إلى دروس تثبيت الدين والمطالعة وكنت مجنوناً بالفئران البيض والنقش وطوابع البريد لكن كل ما أتذكره صيد السمك وفصل الصيف الدائم والمروج المنبسطة والتلال البعيدة الزرق وأشجار الصفصاف والبرك تحتها مثل كأس زجاج أخضر غامق، والأسماك تكسر صفحة الماء، وطيور السبد تصيد حول رأسك ورائحة الشراب ونبات المينولا. عليك أن لا تسيء فهمي، فأنا لا أنوي الحديث عن شعر الطفولة، وأعرف أنه محض هراء، فقد كان يروي لي منه الكثير صديقي العجوز بروتيوس المدرّس المتقاعد الذي سأخبركم عنه لاحقاً، يروي مقتطفات

من كتب وورد سويرث ولوسي غري، زمن المروج والأيكات. لم يكن له أولاد لا لأنهم ليسوا شاعريين بل لأنهم حيوانات متوحشة صغيرة وأنانيتهم تفوق أنانية الحيوانات بأربعة أضعاف، ولا يبالون بالمروج ولا الأيكات وما يهمهم هو إن كانت تؤكل أم لا لأنهم غير قادرين على التمييز بين نبتة وأخرى.إن قتل الأشياء قريب من الشعر كقرب الأولاد منه، لكنّ هناك حنيناً قوياً وشوقاً كبيراً وشعوراً مكثفاً إلى تلك الفترة ولأشياء لا نستطيع العودة إليها عندما نكبر كالشعور بأن الزمن ممتد وطويل أمامك لدرجة أن بإمكانك فعل ما تريد وإلى الأبد.

كنت ولداً صغيراً قبيح الشكل إلى حد ما، ولون شعر رأسي بلون الزبدة وهو مقصوص دائماً ما عدا غرته -لا رغبة عندي كي أعود طفلاً ثانية، ولن أصف طفولتي بالمثالية مثلما يفعل الكثيرون لأن أكثر الأشياء التي كنت أهتم بها لم تعد تترك لديّ أكثر من شعور بارد الآن، فلم يعد مهماً إن شاهدت لعبة كريكت أم لا، ولا إن حصلت على مئة رطل من الحلويات بثلاثة بنسات لكن الذي كان ولا يزال مهماً، وشعوري نحوه خاص ومتميز، هو صيد السمك رغم أنك قد تستهجن ذهاب شخص في الخامسة والأربعين وأب لطفلين ولديه بيت في الضاحية إلى الصيد لكنني أتوق إلى ذلك على الدوام دون أن أعرف السبب.

كما يمكنك القول إنني عاطفي اتجاه طفولتي، ولا اقصد طفولتي الشخصية إنما الحضارة التي كبرت فيها والتي كما أعتقد تلفظ آخر أنفاسها وأحد مكوناتها هو صيد السمك.

حالما فكرت بالصيد فانك ستفكر بأشياء لا تنتمي إلى العالم الحديث، لأنّ مجرّد فكرة الجلوس طوال اليوم تحت شجرة صفصاف، بجانب بركة هادئة، وإمكانية العثور على واحدة هادئة، أشياء تنتمي كلها إلى زمن ما قبل الحرب والراديو والطائرات وهتلر، إذ تحس بالسلام والآمان وأنت تستعرض أسماء السمك الانكليزي الروش والرد والداس والبربيس والسمك اليض والابراميس والكارب والتنش، كلها أسماء لطيفة جداً والناس الذين نعتوها بهذه الأسماء لم يسمعوا بالبنادق الآلية ولم يعيشوا حياتهم من رهاب الطرد من الوظيفة أو قضوا حياتهم بتناول الاسبيرين وارتياد دور السينما ولا يقلق تفكيرهم مسألة الابتعاد عن معسكرات الاعتقال.

هل رأيت أحداً يصيد السمك في هذه الأيام؟ لم يبق سمك في لندن وكل ما تجده على بعد مئة ميل نوادي صيد كئيبة انحشرت على طول القناة يؤمها الأثرياء لصيد سمك الاطروط في مياه خاصة حول الفنادق الاسكتلندية، وهو نوع من الألعاب والرياضة حيث تصطاد فيها سمكاً مدجّناً بطعوم اصطناعية. أين هذا من الصيد في جداول الطواحين أو برك

البقر؟ أين السمك الانكليزي الطبيعي؟ كان السمك يملأ البرك والجداول عندما كنت صغيراً لكنها جفت وتسممت الآن بالمواد الكيماوية التي تقذفها المصانع وامتلأت بالعلب الصدئة وإطارات السيارات.

إن أفضل ذكرياتي تدور حول السمك الذي لم أمسكه، ففي الرابعة عشرة من عمري أسدى أبي جميلاً للعجوز هودجز المتعهد والوكيل في بيت بينفيلد، ولكني نسيت ما هو العمل، فقد يكون دواء أشفى مهرته من الدود. وهودجز هذا كان شيطاناً فظيعاً نكد المزاج لكنه لا ينسى رد الجميل. وبعد فترة جاء ليشتري ذرة الدجاج وصادفته خارج الباب فأوقفني بقوة بوجهه المنحوت من جذع شجرة وأسنانه البنية القاتمة الطويلة وقال:

– مرحباً أيها الصياد الصغير، إنه أنت أليس كذلك؟ اسمع إن أردت الصيد يمكنك إحضار خيطك وحاول في تلك البركة التي خلف البيت ففيها الكثير من سمك الابراميس وسمك سليمان، لكن لا تخبر أحداً ولا تحضر معك هؤلاء الصبيان الصغار وإلا سلخت جلودهم.

حمل كيس الذرة على كتفه وانطلق وهو يعرج معتقداً أنه قد أكثر من الكلام، وبعد ظهر السبت التالي ركبت دراجتي وانطلقت إلى بيت بينفيلد وجيوبي مليئة بالحشرات والذباب باحثاً عن العجوز هودجز في كوخه. إن بيت بينفيلد غير

مسكون منذ عشر أو عشرين سنة، إذ لم يقدر السيد فارل دفع تكاليف العيش فيه ولم يؤجره، فقد سكن في لندن بإيجار مزرعته وترك الأرض والبيت يذهبان إلى الجحيم. كانت السبخة خضراء متعفنة والشجر المغروس تحول إلى غابة وصارت الحدائق مروجاً وشجيرات ورد شائكة، وعلى الرغم من كل الإهمال ظل بيتاً جميلاً جداً وخصوصاً عند النظر إليه من بعيد، إذ يبدو مكاناً عظيماً بأعمدته ونوافذه الطولية وقد بناه مهندس ايطالي في عهد الملكة آن. ولو ذهبت إليه الآن لعادت إليك الحيوية والقوة وفكرت بالحياة التي شهدها هذا البيت والناس الذين عمروه معتقدين أنَّ الحياة الحلوة ستدوم إلى الأبد، هذا ما تشعر به عندما تتجول حوله لكنني كنت صبياً لم يكترث لا بالبيت ولا بالأرض.

أنهى العجوز هودجز غداءه واعتدل مزاجه فسألته أن يدلني إلى البركة التي كانت على بعد مئات الياردات حيث تخفيها أشجار الصفصاف تماماً؛ بركة كبيرة بقطر مئة وخمسين ياردة أدهشتني جداً رغم صغر عمري. كنت تجد هذه العزلة والهدوء على بعد اثني عشر ميلاً من الجامعة وخمسين من لندن، وشعرت وكأنني على ضفاف نهر الأمازون، فقد أحاطت بالبركة أشجار لصفصاف الضخمة التي وصلت إلى الحافة في بعض الأماكن، وانعكست ظلالها على الماء، وفي الطرف المقابل بقعة من العشب مثل تجويف

بين نبات النعناع البري، وفي طرف آخر قارب خشبي قديم متعفن وسط نبات الديس. عجّت البركة بصغار أسماك الابراميس الذي يبلغ طول بعضها أربع أو ست بوصات، وكنت أرى إحداها تنقلب نصف قلبة وتومض بنية محمرة تحت الماء وأخرى تتشمس بين الطحلب وتغطس مرشرشة الماء كالقرميدة؛ إن محاولة صيدها عظيمة، وإنني حاولت ذلك في كل المرات التي ذهبت فيها إلى هناك بالداس والمنوة اللذين اصطلتهما من التيمز واحتفظت بهما أحياء في مرطبان مربى، وأحياناً بطعم دوار مصنوع من قطعة قصدير لكنها كانت متخمة ولم تعض على الصنّارة ولم تنفع معها أي علة صيد. لم ارجع من الصيد يوماً دون دزينة من سمك الابراميس الصغير. فلقد كنت أذهب يومياً في إجازات الصيف بصنارتي ونسخة من صحيفة الاتحاد أو الرفاق وكتلة من الخبز والجبن الذي تلفه لي أمي. وبعد ساعات من الصيد أستلقي على العشب وأقرأ الصحيفة فتفوح رائحة الخبز المعجون بالجبن وتتحرك سمكة وتقفز فجأة فتثيرني، ثم أعاود الكرة على الماء وأبدأ الصيد ثانية. ودام هذا الحال طوال فصل الصيف، وأفضل ما في الموضوع أنني كنت وحيداً كما لو أنها بركتي والأشجار من حولي ولا يكدر صفو السكون إلا طرطشة الماء التي يحدثها السمك، ورفوف الحمام التي تمر من فوق رأسي، ولكم كنت أتساءل عن عدد

المرات التي ذهبت فيها إلى البركة في غضون سنتين؟ ليس أكثر من اثنتي عشر مرة.

وبعيد ظهر احد الأيام لم أتمكن من صيد أي سمكة، فقررت أن أكتشف الأماكن الأبعد عن بيت بينفيلد، كانت الأرض سبخة جراء الطوفان؛ شقيت طريقي عبر شجيرات العليق الأسود والأغصان المتساقطة والوحل وبعد حوالى خمسين ياردة وصلت إلى بركة أخرى لم اعلم بوجودها من قبل؛ إنها صغيرة بعرض عشرين ياردة، قاتمة بسبب أغصان الأشجار المتشابكة فوقها، ماؤها صافٍ وعميق، وأرى على عمق خمس عشرة قدماً بوضوح، علقت الطعم بالصنارة مستمتعاً بالعمق والرطوبة والعفن، وبعد ذلك رأيت سمكة ضخمة أخرجتني من جلدي، ولن أبالغ لو قلت إنها بطول ذراعي تقريباً، انسلت عميقاً تحت الماء فأصبحت ظلاً ثم تلاشت في الماء الداكن في الطرف الآخر من البركة، وبعد ذلك ظهرت سمكتان قريبتان من بعضهما بعضاً فشعرت كأنّ سيفاً اخترق جسدي، فقد كانت أكبر سمكة حية أو ميتة أراها في حياتي، ثم مرت أخرى وأخرى،كانت البركة مليئة بالسمك، وقد يكون من الابراميس أو التنش لكن الاحتمال الأكبر من الكارب لأن الابراميس والتنش لا يصلان إلى هذا الحجم؛ وفسرت الأمر على النحو التالي: كانت هذه البركة متصلة ببركة أخرى، وبعد أن جف الجدول وأغلقت الأشجار

المكان أصبحت منسية وبالصدفة المحضة، ولم يصطد فيها أحد منذ سنوات بل عقود، فكبر السمك إلى هذه الأحجام الوحشية وربما عمرها مئة عام، ولم يعرف عنها أي مخلوق في الدنيا غيري، كذلك لم ينظر أحد إلى البركة منذ عشر سنوات ولا حتى العجوز هودجز أو السيد فاريل.

يمكنك تخيل شعوري. لم أقدر تحمل عذاب المراقبة فأسرعت عائداً لأحضر عدة الصيد التي لن تنفع مع تلك الوحوش العملاقة التي ستقضمها كالشعرة، ولم يعد بإمكاني الاستمرار بصيد صغار سمك البراميس حيث تسبّب لي منظر سمك الكارب الكبير بألم فظيع في معدتي فوصلت إلى دراجتي وانطلقت عائداً إلى البيت. لقد كان هذا سراً عظيماً بالنسبة لولد مثلي، بركة معتمة مخبأة وسط الأشجار ومترعة بالسمك الوحشي المبحر فيها الذي لم يحاول أحد صيده لذلك سيلتقط أول طعم تقدمه له، وكل الأمر يتعلق بإمساك الخيط بقوة فقط.

سوف أقوم بكل الترتيبات اللازمة. سأشتري عدة الصيد المناسبة بأي طريقة حتى لو اضطررت إلى سرقة النقود من درج أبي، وسأتدبر أمر النقود وأحصل على خيط غليظ وخيط حريري وصنانير نمرة خمسة وأعود بالجبن والذباب والعجين ودود الطحين ودود الأرض والجنادب وكل الطعوم المميتة التي تجذب سمك الكارب وأحاول معها لكنني لم أرجع ولم

أسرق النقود ولم أحاول معها حيث تغيرت الأشياء بعدها ومنعتني من ذلك، وحتى لو لم يكن هذا هو السبب لوجدت أسباباً أخرى لأنّ الأمور تحدث هكذا. أعرف طبعاً أنك تظن أنني بالغت في تقدير حجم تلك السمكات لكنها قد تكون من الحجم المتوسط أي بطول قدم، وأنها انتفخت في ذاكرتي تدريجياً لأن الناس يكذبون حول السمك الذي يصيدونه، ويبالغون أكثر حول السمك الذي تمسكه كلّاباتهم ويفلت، أما أنا فلم أمسك أي واحدة منها، ولم أحاول ذلك وليس لدي الدافع للكذب وأكرر القول بأنها اسماك ضخمة.

5

آه من صيد السمك.

سأدلي باعتراف واحد أو اثنين عن صيد السمك الأول: عندما أسترجع حياتي الماضية أستطيع القول، وبكل صدق، إنني لم أفعل شيئاً بث في نفسي الحيوية والروح مثل صيد السمك إذ بدت كل الأشياء الأخرى تافهة مقارنة به حتى النساء، علماً أنني لست ممن لا يهتم بهن، فقد أمضيت وقتاً طويلاً في مطاردتهن، وسأفعل الآن ذلك إن واتتني الفرصة، ولكن لو خيرتني بين امرأة جميلة ذات نسب وبين صيد سمكة كارب بوزن عشرة أرطال فإن الفوز سيكون من نصيب الأخيرة. أما الاعتراف الثاني: لم أذهب أبداً إلى الصيد بعد

السادسة عشرة من عمري لأن الأمور تسير على هذا المنوال، ولأن الحياة التي نعيشها هي هكذا بالطبع. لا اقصد عموم الحياة الإنسانية وإنما الحياة في هذا العمر وفي هذه البلاد، نحن لا نفعل ما نريد ونحب لا لأننا منشغلون دائماً مثل خياط يهودي أو عامل مزرعة وإنما يسكن في داخلنا شيطان يدفعنا باستمرار كي نرتكب حماقات وسخافات أبدية. لماذا يتوافر الوقت لعمل أي شيء ماعدا الجديرة والهامة منها؟فكر بشيء تهتم به وأحسب الدقائق التي خصصتها له وقارن ذلك بالساعات التي أهدرتها في أعمال مثل الحلاقة وركوب الحافلات والانتظار في محطات القطار وتبادل القصص الخليعة وقراءة الجرائد.

لم أذهب إلى الصيد بعد السادسة عشرة بل كنت أطارد الفتيات وأنا ألبس حذائي الأول ذا الأزرار، وياقتي العالية - ياقات عام 1909 التي تحتاج إلى رقبة زرافة - وكنت أدرس منهاجاً بالمراسلة عن التجارة والحسابات كي أحسن مستواي. أما السمك الكبير فتركته يسبح في البركة التي خلف بيت بينفيلد ولم يعرف بشأنه أحد غيري؛ شيء محزن، ربما أعود يوماً في إحدى عطل البنك وأصيدها لكنني في الواقع ما رجعت اليه أبداً. كان لدي الوقت لفعل أي شيء ماعدا هذا، ومن الغريب جداً أن المرة الوحيدة التي أوشكت فيها على الذهاب كانت زمن الحرب.

ففي خريف عام 1916 وقبل أن أصاب خرجنا من الخنادق إلى قرية خلف خط الجبهة في شهر أيلول (سبتمبر)، وكان الوحل يغطينا من الرأس حتى القدم، وكالعادة لم نعرف المدة التي سنقضيها هناك ولا الوجهة التي سنذهب إليها فيما بعد، ولحسن حظنا كان الضابط منحرف الصحة، ربما أصيب بالتهاب بسيط في القصبات أو ما شابهه لهذا لم يجبرنا على القيام بالعرض العسكري المعتاد والتفتيش ومباريات كرة القدم ومثلها من الأعمال التي يفترض فيها أن نحافظ على معنويات الجنود حين يكونون خارج المواجهة. أمضينا اليوم الأول مستلقين على أكوام القش في مخزن للحبوب، وكشطنا الوحل عن أحذيتنا، وفي المساء اصطف الشباب في رتل من اجل عاهرتين قذرتين تقطنان في طرف القرية. وفي الصباح تسللت متجولاً وسط الحقول التي أصبحت مهجورة ومقفرة وهذا مخالف للأوامر. كان صباحاً شتوياً ماطراً وكل ما يحيط بي هو الروث الكريه وركام الحرب؛ فوضى من القذارة والوحل والأعشاب والغائط والأوساخ والأسلاك الشائكة الصدئة التي يخرج منها العشب. من المؤكد أنك تعرف شعور الجندي الخارج من خط الجبهة، تيبس في المفاصل وخواء وعدم اهتمام بأي شيء ممزوج بالخوف والتعب ويغلب عليه الضجر والملل. لم نفهم في ذلك الوقت سبب الحرب ولا سبب استمرارها الأبدي، ليوم أو غداً أو بعده سنعود إلى الجبهة

وتقصفنا قذيفة لتحولنا إلى كوم لحم، لكن ذلك ليس أسوأ من الملل المرعب من الحرب الممتدة إلى الأبد.

كنت أتجول بجانب السياج عندما صادفني شاب كان يعمل في شركتنا، ولا أتذكر اسمه لكننا كنا نلقبه بالنوبي لأنه أسود ومترهل، ويبدو كالغجري وحتى في لباسه العسكري يوحي منظره أنه يحمل أرنبين مسروقين. كان بائع خضار متجولاً ويقطن في أفقر حي في لندن، يكسب رزقه من صيد الطيور وسرقة السمك والفاكهة في كنت أو ويسكس، وكان خبيراً في الكلاب وابن مقرض وأقفاص الطيور وكل هذه الأشياء،حالما رآني أومأ برأسه وتكلم بطريقة ماكرة:

– هيه جورج هل ترى شجيرات الحور في الجانب الآخر من الحقل؟ هناك بركة مملوءة بالأسماك الكبيرة اللعينة – كان الناس ينادونني جورج، ولم أكن سميناً آنذاك – هناك بركة مملوءة بالسمك، سمك كبير لم أرَ مثله، تعال وشاهد بنفسك.

شقّينا طريقنا في الوحل بصعوبة، كان نوبي صادقاً. وجدنا بركة موحلة ذات حواف رملية بجانب الحورات ومن الواضح أنها كانت مقلع حجارة ملأته الماء، وكانت تعج بسمك البرش. لقد رأينا ظهورها الزرقاء القاتمة المخططة وهي تنزلق تحت الماء في كل مكان في البركة بحيث يصل وزن بعضها إلى الرطل، كما أشكّ أن أحداً ضايقها خلال

سنتي الحرب مما وفر لها الوقت لتتكاثر.لا يمكنك تصور ما فعله منظر تلك الأسماك بي. فكأنها أعادت إليّ الحياة فجأة. دارت نفس الفكرة في رأسينا - كيف سنحصل على صنارة وخيط؟

- يا الهي هل سنأخذ بعضها؟

- نعم لكن يجب أن نعود إلى القرية للحصول على عدة صيد.

- حسناً، يجب أن نحترس لكن سوف نسرقها حتى لو عرف الرقيب.

- آه من الرقيب اللعين لو شنقوني، أو مهما فعلوا بي سوف آخذ بعضاً من هذا السمك.

لا تعرف كم كانت لهفتنا لصيد تلك الأسماك، وربما تعرف إن كنت في أحد أيامك السالفة في حرب وشعرت بالملل المثير للجنون وبالطريقة التي تتشبث بها بأي نوع من التسلية؛ فمرة رأيت شابين يتعاركان عراكاً مميتاً من اجل مجلة لا يزيد ثمنها عن ثلاثة بنسات، وهناك الأكثر مثل فكرة الهروب ليوم كامل من الحرب وجوّها للجلوس تحت شجرة حور وصيد سمك البرش بعيداً عن الكتيبة والضجة والعفن والثياب العسكرية والضباط والتحية وصوت الرقيب.

إن صيد السمك والحرب نقيضان.لم نكن متأكدين من نجاحنا مما سبب لنا الحمى. ولو عرف الرقيب سيوقفنا

حتماً، وهو ما سيفعله أي ضابط، والأسوأ من ذلك لا نعرف إلى متى سنبقى في القرية، فقد يكون أسبوعاً أو ساعتين أو لحظة كما لا توجد عندنا عدة صيد ولا حتى دبوس أو قطعة خيط لذا علينا البدء من الصفر، وأول خطوة هي الحصول على قصبة، وأفضلها لو كان عوداً من الصفصاف، لكن لم تكن هناك أشجار صفصاف في هذا الطرف من الأفق. تسلق نوبي إحدى الحورات وانتزع غصناً صغيراً، لم يكن جيداً لكنه أفضل من عدمه وهذّبه بسكينه حتى بدا كقصبة صيد فأخفيناه بين الأعشاب التي بقرب الضفة ونجحنا في التسلل إلى القرية دون أن يكتشف أمرنا أحد.

الخطوة التالية هي الحصول على إبرة لصنع كلّاب ومن أين نأتي بإبرة؟ لدى أحد الشباب إبر للرتق لكنها غليظة جداً ونهاياتها مثلمة، ولم نجرؤ أن نخبر أي شخص عن سبب حاجتنا للإبرة خوفاً من أن يسمع الرقيب، وأخيراً فكرنا بالعاهرتين اللتين تسكنان في طرف القرية، وعندما وصلنا هناك اضطررنا إلى الالتفاف والتوجه الى الباب الخلفي عبر ساحة موحلة. كان الباب مغلقاً والعاهرتان نائمتين، فهما تستحقان ذلك بلا شك، خبطنا على الباب وصحنا وصرخنا وركلناه بأرجلنا، وبعد عشر دقائق فتحت الباب امرأة قبيحة بدينة تلف نفسها في إزار وصاحت بالفرنسية شيئاً فرد نوبي:

– إبرة إبرة، هل عندك إبرة.

لم تدرك عما كان يتكلم طبعاً، وحاول نوبي أن يرطن بانكليزية مبسطة معتقداً أنها ستفهمها لأنها أجنبية.

- نريد إبرة خياطة، مثل هذه.

وقام بإيماءات تمثل الخياطة. أسأت العاهرة فهمه وواربت الباب لتدخلنا، وأخيراً تمكنا من إفهامها، وحصلنا على إبرة منها، وبعد العشاء عدنا وتمكنا من تفادي الرقيب الذي كان يتجول حول مخازن الحبوب في هذا الوقت بحثاً عن رجال للسخرة كعادته. اختبأنا تحت أكوام القش وخرجنا بعد أن غادر وأشعلنا شمعة لنحمّي الإبرة، وعندما أصبحت حمراء نجحنا في ثنيها بشكل كلاب لكننا حرقنا أصابعنا حروقاً بالغة لانعدام الأدوات باستثناء الأمواس.

الخطوة التالية هي الحصول على الخيط ولا توجد سوى الخيوط الصوفية الغليظة. وصادفنا احد لديه بكرة خيط لكنه رفض التخلي عنه فأجبرنا على مقايضته بعلبة سجائر. كان خيطاً رفيعاً جداً فقطعه نوبي إلى ثلاثة أقسام وربطها بمسمار دقه في الحائط وجدلها بحرص شديد، كذلك وجدنا فلينة بعد البحث في كل القرية قطعتها إلى نصفين ولصقتها بعلبة كبريت لتطفو فوق الماء. في هذا الوقت حل المساء وبدأ الظلام.

حصلنا الآن على الأساسيات، لكن كيف يمكن العمل دون الأمعاء التي كان أمل الحصول عليها ضعيفاً جداً إلى أن

خطر ببالي حاجب المستشفى الذي لم تكن الأمعاء الجراحية من معداته لكنه قد يملك منها، وعندما سألناه وجدنا معه لفة كاملة من الأمعاء الطبية في حقيبة الظهر فقايضنا علبة أخرى من السجائر بعشر قطع من الأمعاء المتعفنة بطول ست بوصات. نقعها نوبي لتلين ثم ربطها مع بعضها بعضاً فأصبح لدينا كل شيء الآن: الكلاب، القصبة، الخيط، الطوافة، الأمعاء ويمكننا أن نحفر لنستخرج الدود من أي مكان، والبركة مترعة بسمك البرش المخطط الضخم الذي يناديك لتصيده. استلقينا للنوم في شعور محموم حتى أننا لم ننزع أحذيتنا، غداً فقط إن كان لنا غد وإن نستنا الحرب يوماً واحداً. قررنا أن نهرب بعد التفقد ونبقى طول اليوم حتى لو شنقونا وهي العقوبة الميدانية رقم واحد.

اعتقد أنك قد خمّنت البقية إذ كانت الأوامر عند التفقد أن نحزم أمتعتنا ونستعد للمسير في غضون عشرين دقيقة. مشينا تسعة أميال حتى الطريق العام ثم ركبنا الشاحنات ورمونا في قسم آخر من الجبهة أما فيما يتعلق بالبركة فلم أرها أو أسمع عنها ثانية قط وأعتقد أنها سممت بغاز الخردل.

ومنذ ذلك الحين لم اذهب إلى الصيد أبداً حتى لو سنحت لي الفرصة، وبعدها أتت تتمة الحرب وتلتها حربي للحصول على وظيفة أسوة بالآخرين، ثم أصبحت مملوكاً لها. كنت رفيقاً

يافعاً وواعداً في مكتب التأمين وواحداً من رجال الأعمال الصغار المحتكين ذوي الآمال الكبيرة الذين قرأت عنهم في إعلانات كلية كلارك، ثم أصبحت من ذوي الدخل الأسبوعي المقدر بخمسة عشر جنيهاً وأقطن في بيت شبه منفصل في الضاحية، ومثلنا لا يذهب إلى الصيد أكثر مما يخرج مضاربو البورصة لقطف الأزهار في الربيع إذ لا يناسبهم أن تكون لهم هوايات أخرى.

كنت احصل على إجازة مدتها نصف شهر كل صيف، أقضيها في مارغريت أو بيرماوث أو يستبورن أو هاستينغاو بورتماوث أو برايتون مع تغيير طفيف خصوصاً مع امرأة مثل هيلدا. السمة الرئيسية لكل إجازة هي الحسابات الذهنية التي لا تنتهي، وكم سيأخذ منك حارس النزل، ويجب أن أخبر الأولاد بأنهم لا يستطيعون شراء سطول جديدة. كنا في بورتماوث منذ بضع سنوات ونحن نتسكع على الرصيف في عصر يوم جميل وعلى امتداد نصف ميل كان الشباب يصطادون السمك بصنانير قصيرة وبنهايتها أجراس وتمتد خيوطهم إلى خمسين ياردة في البحر وهذه من أغبى طرق الصيد، وبعد أن أصابهم الملل رجعوا إلى الشاطئ صاخبين؛ ورأت هيلدا شاباً يلصق دودة في كلابه فشعرت بالقرف، وتابعنا مشوارنا ذهاباً وإياباً وفجأة صدر صوت رنين عالٍ من أحد الأجراس، وكان أحد الشباب يلف خيطه والكل يراقبه

فبانت نهاية الخيط المبتل ثم قطعة الرصاص ثم سمكة كبيرة مسطحة من الأسماك المفلطحة تتلوى متدلية، رماها الشاب على الرصيف رفرفت للأعلى والأسفل مبللة ملساء رمادية منقطة بالأسود وبطنها بيضاء تفوح منها رائحة البحر الطازجة، فتحرك في داخلي إحساس جميل، وعندما تحركنا لنذهب قلت عرضياً وكي اختبر رد فعل هيلدا إنه لدي النية للصيد بما أننا هنا.

- ماذا؟ أتذهب للصيد يا جورج؟ أنت؟ حتى أنك لا تعرف كيف تفعل ذلك.

- لقد كنت صياداً كبيراً.

رفضت الفكرة دون سبب كعادتها، وإن ذهبت فهي لن تأتي معي كي لا تشاهد تلك الأشياء الكريهة على الكلّابات، وفجأة تدرك سبباً حقيقياً وهو أن العدة والقصبة والأشياء الأخرى ستكلف جنيهاً، القصبة وحدها بعشر شلنات وتفقد هدوءها في الحال. إنك لم ترَ كيف تنفجر هيلدا القديمة في وجهي عندما يتعلق الأمر بعشرة شلنات.

إن ذلك مضيعة للنقود في أعمال سخيفة، كيف تدفعون عشرة شلنات ثمن هذه الصنانير الصغيرة التافهة. عيب عليك أن تصيد وأنت في هذا العمر، انك رجل ناضج ولم تعد طفلاً يا جورج. ثم يهجم عليَّ الأولاد وتتسلق على أكتافي لورا وتسألني بطريقتها الطفولية: هل أنت طفل يا أبي؟ أما

ويلي الذي كان لا يتكلم بشكل مفهوم فيسمع العالم كله بصياحه: أبي طفل، أبي طفل. إنهم أوغاد صغار غير طبيعيين.

6

كانت القراءة من اهتماماتي أيضاً إلى جانب صيد السمك.

لقد بالغت إن أوحيت بأن الصيد كان الشيء الوحيد الذي اهتميت به، ومن المؤكد أنه يأتي في المقام الأول، لكن القراءة هي الاهتمام الثاني بلا أدنى شك. بدأت القراءة الطوعية أو المطالعة في العاشرة أو الحادية عشرة، وكانت اكتشافاً جديداً في عمري آنذاك، وأنا قارئ كبير، فلا تمر أسابيع كثيرة دون أن اقرأ فيها رواية أو اثنتين، ويمكن وصفي بالمشترك النموذجي في مكتبة بوتس. كانت يدي تقع دائماً على الكتب الأكثر رواجاً في أزمانها مثل الرفيق الصالح ورمح بنغال وقلعة هاتر، وكنت عضواً في الكتاب اليساري لسنة أو أكثر، وفي عام 1918، وعندما بلغت الخامسة والعشرين أفسدتني القراءة وبدّلت نظرتي وأرائي لكن لاشيء يشبه تلك الأيام، وأنت تكتشف فجأة أن بإمكانك فتح الجريدة الأسبوعية والغوص مباشرة في عالم لصوص المطابخ وأوكار الأفيون الصينية وجزر البولينيز وغابات البرازيل.

كانت أكثر فترة قرأت فيها من عمر الحادية عشرة إلى السادسة عشرة. قرأت في البداية الأسبوعيات الرخيصة والجرائد الصغيرة ذات الورق الصغير والرقيق والطباعة السيئة وكانت أغلفتها مصورة وبثلاثة ألوان، بعدها بقليل بدأت أقرأ الكتب مثل شرلوك هولمز ودكتور نيكولا والقرصان الحديدي ودراكولا وبيع اليانصيب ونات غولد ورنجر غول وأخرى نسيت أسماءها وقصصاً عن الملاكمة ولسباقات، وأظن لو أن والديّ كانا مثقفين لكان في حوزتي كتب جيدة لديكنز وثاكري وأمثالهم، والواقع أنهم في المدرسة دفعونا إلى كونتين دوروارد. لقد حاول العم ايزكيل أن يحثّني على قراءة كارليل وروسكين لكن بيتنا لم يكن فيه كتب، أما أبي فلم يقرأ أي كتاب في حياته غير الكتاب المقدس وكتاب ساعد نفسك لسمايلز.

لم اقرأ كتاباً جيداً بحسب ما اذكر إلا بعد وقت طويل، فقد قرأت أشياء أردتها واستفدت منها أكثر من اللغو الذي تعلمناه في المدرسة، ولست آسفاً على سير الأمور على هذا المنوال.

اندثرت الكتب الرخيصة والمثيرة التي وجدت عندما كنت ولداً وإنني أتذكرها بصعوبة. أذكر أسبوعيات منتظمة للأولاد التي لا يزال بعضها موجوداً، كما اندثرت قصص بوفالو ولم يعد يقرأ نانت غولد، أما نك كارتر وسيكستون بليك فهما لا

يزالان كما كانا، والجوهرة والمغناطيس إن كنت أتذكر جيداً بدأت في عام 1905 وكانت ب.او.ب لا تزال تطبع بأحرف صغيرة، وبدأت الرفاق في عام 1903 وكانت ممتازة، ثم صدرت موسوعة لا أذكر اسمها في أعداد صغيرة لا تستحق القراءة. وكان في المدرسة ولد يترك أعداداً منها أحياناً وأنا الآن أعرف طول الميسيسبي والاختلاف بين الاخطبوط والحبّار وتركيب أجزاء الجرس.

أما أخي جو فلا يقرأ أبداً، وهو من النوع الذي ينهي دراسته دون أن يقرأ عشرة أسطر متتالية، فمنظر الأحرف المطبوعة يسبب له المرض والغثيان، ولقد رأيته مرة يمسك بعدد من مجلة الرفاق قرأ منه فقرة أو اثنتين وابتعد كحصان جفل من تبن فاسد، وحاول إبعادي عن القراءة إلا أن أبي وأمي أعاداني إليها بعد إقرارهما بأنني ولدهما الذكي، وافتخرا بي لأنني أتذوق التعلم من الكتب، لكنهما كانا ينزعجان من قراءتي للرفاق وعصبة الشباب لاعتقادهما بأنني يجب أن أقرأ كتباً تحسّن مستواي رغم عدم معرفتهما بتلك التي تقوم بذلك. ومرة وقعت يد أمي على كتاب بعنوان كتاب الشهداء لفوكس، لكنني لم أقرأه علماً أن رسومه التوضيحية لم تكن سيئة. كنت أنفق بنساً في شراء الرفاق أسبوعياً وأتابع قصصهم المتسلسلة دونوفان الذي لا يقهر، وهو المستكشف الذي استأجره ملياردير أمريكي ليحضر له أشياء لا تصدق من

أصقاع الأرض المختلفة مثل ماسات بحجم كرة الغولف من براكين إفريقيا، وأنياب الماموث من غابات سيبيريا المتجمدة، أو كنوز الآنكا من البيرو. كان دونوفان يذهب في رحلة كل أسبوع وينجح دائماً. مكاني المفضل للقراءة هي الشرفة إلا إذا أخرج أبي أكياس الحبوب التي تكون اهدأ مكان في البيت، فأستلقي فوق تلك الأكياس ووسط رائحة الجبس الممزوجة برائحة السنفون وباقات من شبكات العناكب في كل الزوايا. وفي المكان الذي اجلس فيه هناك ثقب في السقف، ولوح خشبي ناتئ من الجص، وأحس به الآن. في أيام الشتاء الدافئة استلقي على بطني ومجلة الرفاق مفتوحة أمامي، ويركض فجأة فأر بجانب احد الأكياس كلعبة ويتوقف بلا حراك، وينظر بعيون صغيرة كحبتين فاحمتين. عمري أثنا عشر عاماً وأنا دونوفان الذي لا يقهر في أعالي الأمازون، وعلى بعد ألفي ميل أنصب خيمتي وجذور نبات السحلبية الغامض الذي يزهر مرة كل مئة عام تحت السرير في الخيمة، ويحيط بي هنود الهوبي هوبي الذين صبغوا أسنانهم باللون الأحمر القرمزي وجلودهم بالأبيض يدقّون طبول الحرب، ثم نتبادل النظرات أنا والفأر وسط رائحة السنفون والجص البارد، وأنا في أعالي الأمازون، يا لها من نعمة عظيمة.

7

كان ذلك عالماً حقيقياً...

أردت أن أخبرك عن العالم قبل الحرب، العالم الذي استنشقته عندما رأيت اسم الملك زوغ على الملصق الإعلاني، والفرص التي أخبرتك عنها ليست إلا غيض من فيض، لذا إما أنك تتذكر ذلك العالم ولا حاجة لأن أخبرك عنه أو لا تتذكره فلا فائدة ترجى من فعل ذلك. تحدثت كثيراً عما حدث لي قبل السادسة عشرة، وإلى ذلك الحين سارت الأمور على ما يرام مع عائلتي، وقبل عيد ميلادي السادس عشر بدأت بتلقي لمحات مما يسميه الناس بالحياة الواقعية التي تعني عدم الرضا. بعد ثلاثة أيام من رؤية السمكة الكبيرة في بينفيلد دخل أبي ليشرب الشاي وكان قلقاً جداً ومغبراً بالطحين، فأكل بطريقته الوقورة وباله مشغول وشارباه يرتفعان ويهبطان في حركة جانبية لأنه فقد أسنانه الخلفية، وعندما هممت لأقوم عن الطاولة ناداني:

- انتظر يا ولدي جورج لدي ما أقوله لك. لقد فكرت كثيراً وحان الوقت لتترك المدرسة. عليك أن تعمل لتكسب القليل لتعيل أمك والبيت. كتبت للسيد ويكسي وقلت له بأنني سأرسلك بعيداً.

بالطبع كان ذلك معداً مسبقاً، لقد كتب للسيد ويكسي

قبل أن يخبرني إذ اعتاد الآباء في تلك الأيام ترتيب كل شيء دون التشاور مع أبنائهم. استمر أبي بالتمتمة والمضغ والشرح القلق. لقد مر بظروف صعبة مؤخراً، وأصبحت الأحوال أصعب، ونتيجة لذلك وجب علينا أنا وجو أن نعمل لكسب عيشنا. لم أكن اهتم في ذلك الوقت بحال التجارة إن كانت في وضع جيد أم سيئ، وليست لدي الغريزة التجارية الكافية لمعرفة أسباب سوئها وتدهورها.

في الواقع إن أبي خسر كثيراً في منافسة آل سارازينز وهم بائعو بذور بالمفرق ولهم شأنهم، ولهم فروع في كل البلاد ومن بينها في لواربينفيلد، فقد استأجروا محلاً في السوق قبل ستة أشهر وزينوه بالطلاء البراق والكتابة المذهبة ودهنوا أدوات البستنة بالأخضر والأحمر؛ وهناك إعلانات كبيرة للبازلاء الحلوة التي تبهر البصر على بعد مئات الأمتار بالإضافة الى بيع بذور الزهور؛ فهم الموزعون العالميون للدواجن والمواشي علاوة على القمح والشوفان وغيرها وخلطات الدجاج المرخصة وبذور الطيور المحفوظة بأغلفة ساحرة وبسكويت للكلاب من كل الأشكال، وأدوية ومراهم ومساحيق ملطفة، وأشياء مثل مصائد الفئران وسلاسل الكلاب وحاضنات البيض، والبيض الصحي وأعشاش الطيور والنباتات وقاتلات الأعشاب والمبيدات الحشرية، وفي بعض الفروع فتحوا قسماً للمواشي والأرانب والأفراخ الصغيرة التي عمرها يوم واحد فقط.

لم يتمكن أبي من المنافسة بدكانه المغبر القديم، ورفضه فتح خطوط جديدة، لذلك تعامل اغلب المزارعين والتجار وأصحاب الشاحنات مع محلات البيع بالمفرّق وتجنّبوا محلات سارازينز، لكنهم بعد ستة شهور تحلّقوا حول أبناء الطبقة العليا القريبة الذين كانوا يملكون العربات الكبيرة والصغيرة فكان ذلك خسارة فادحة لأبي ولتاجر الذرة الآخر وينكل. لم أكن أفهم مثل تلك الأمور، وليس لدي اهتمام بالتجارة، فنظرتي لها كانت نظرة صبي، ولم أعمل في المحل أبداً، وكل ما كنت افعله حمل أكياس الحبوب إلى العلية وإنزالها أحياناً عندما يطلب أبي مني ذلك. إن الأولاد في مدرستي ليسوا أطفالاً جهلة مثل طلاب المدارس الداخلية، فهم يعرفون معنى العمل وقيمة الستة بنسات، لكن من الطبيعي لصبي مثلي أن يعتبر تجارة والده مملة ومضجرة،حتى ذلك الوقت بدت لي صنانير الصيد وعصير الليمون الفوار وغيره أكثر أهمية من أي شيء آخر.

رتّب أبي الأمر مسبقاً مع العجوز غريمت، وهو البقال الذي كان بحاجة إلى صبي ذكي يساعده في المحل فوراً، ثم بعد بفترة قصيرة تخلّص أبي من الصبي الذي كان يعمل عنده في الدكان، أما جو فكان في البيت يساعد أبي ريثما يحصل على وظيفة دائمة. ترك جو المدرسة قبل ذلك، وقضى وقته

في التسكع، وتحدث أبي عن إدخاله في قسم الحسابات في معمل الجعة، وبعد سبعة أيام أراد أن يجعله بائع خردوات لكن لا هذا ينفع ولا ذاك مع جو لأن كتابته كانت سيئة مثل خربشة صبي الحراث، ولا يحفظ جدول الضرب، ولكن كان عليه أن يتعلم أي صنعة، فبدأ بتصليح الدراجات في محل كبير في ضاحية والتون غير أنه مثله مثل الكثير من المعتوهين العاملين في المحلات لم يكن لديه ميل ليصبح ميكانيكياً. لقد كان عاجزاً عن الاستمرار في العمل ويتسكع بثياب الميكانيكي الملوثة بالشحم ويدخن السجائر ويعارك ويشرب الخمر ويتنقل من فتاة إلى أخرى، كما يلح في طلب النقود من أبي الذي كان مستاء ومحتاراً وقلقاً، ولا أزال استطيع رؤية الطحين يغطي رأسه الأصلع والقليل من الشعر الرمادي فوق أذنيه وشاربه ونظارته دون أن يتمكن من فهم ما يحدث.

سنوات كثيرة ظلت فيها أرباح أبي تصعد بثبات وبطء. ففي العام الفائت عشرة جنيهات وعشرون جنيهاً هذا العام، وهكذا إلى أن هبطت فجأة وبشدة بحيث لم يقدر على فهم السبب. لقد ورث تجارة البذور من والده، وتعامل بشكل شريف، فكانت أرباحه تتناقص، وقد قال مرات كثيرة وهو يمصمص أسنانه ليخرج منها كسرة طعام عالقة إن الأحوال سيئة، وإن التجارة بدأت بالكساد. ماذا يحدث للناس، وهل الخيول توقفت عن الأكل؟ ربما بسبب السيارات ذات الروائح

الكريهة! وكانت أمي قلقة جداً، ومن واجبها أن تفعل شيئاً ما. لقد لمحت نظرة بعيدة في عينيها مرة أو اثنتين عندما كان أبي يتحدث عن سوء الأوضاع، وكانت نفكر إن كنا سنتناول لحم بقر وجزراً على الغداء أم فخذ ضأن، وباستثناء بعض الحالات التي تحتاج فيها إلى بصيرة مثل شراء البياضات أو أواني المطبخ، فان أمي غير قادرة على التفكير بأكثر من الوجبات والأكل. سبّب المحل مصاعب جمة لأبي، وزاد قلقه ولم نفهم لا أنا ولا أمي ما كان يحدث. لقد مرت سنة سيئة خسر فيها أبي نقوده لكن هل كان أبي قلقاً على المستقبل فعلاً؟ لا أعتقد ذلك، وكان هذا في عام 1919 على ما اذكر. أبي لم يفهم ما يحدث لأن الأمور لم تكن تجري على هذا المنوال في أيام شبابه، ولم يقدر أن يتنبأ أن محلات سارازينز ستقلل من مبيعاته بمنهجية حتى تدمره وتبلعه وكل ما عرفه أن الظروف سيئة والتجارة بطيئة ومهملة.

من المفيد أن أخبرك أنني كنت عوناً كبيراً لأبي في زمنه الصعب، وإنني سأثبت فجأة أنني رجل. فتطورت كالأشياء التي قرأتها في الروايات الأخلاقية، ويمكن أن أذكر أنّ ابتعادي عن المدرسة قد آلمني، وكان عقلي الصغير يحن ويشتاق إلى المعرفة والتنقية كي أبتعد عن المهن الميكانيكية التي لا روح فيها والتي اتجهت للعمل فيها مجبراً.

في الحقيقة كنت مسروراً بفكرة الذهاب إلى العمل،

وخصوصاً عندما عرفت أن العجوز غريميت سيدفع لي اثني عشر شلناً في الأسبوع، كما يمكنني الاحتفاظ بأربعة منها، فبهت لون سمك الكارب في بيت بينفيلد الذي كان يملأ ويشغل فكري.لم يكن لدي اعتراض لترك المدرسة، وهو ما يحدث للأولاد عادة في مدرستنا، فيتركون زاعمين أنهم ذاهبون إلى الجامعة ليصبحوا مهندسين أو ليدخلوا عالم الأعمال في لندن، وبعد إجازة مرضية ليومين يختفي من المدرسة لنقابله بعد شهر ونصف على دراجة يوصل الخضار.بعد خمس دقائق من معرفتي بترك المدرسة صرت أتساءل عن البدلة الجديدة التي سألبسها في العمل، وطالبت فوراً ببدلة رجل ومعطف على الموضة، لكن أمي عارضت المعطف لأنه سوف يسبب لنا فضيحة لكونه على الموضة. اعتاد الآباء آنذاك إخافة أولادهم من لبس ثياب الكبار، وكانت تدور معارك متوقعة داخل كل عائلة قبل أن يستطيع أولادها لبس قبة عالية أو شعورهن للأعلى.

انحرفت المحادثة بعيداً عن مشاكل تجارة والدي، ودار جدل طويل ومزعج مع أبي الذي كان غضبه يزداد تدريجياً. معطف، حسناً لا تستطيع لبسه، لا يمكنك... ... لهذا لم أمتلك معطفاً على الموضة الدارجة لكنني ذهبت في بدلة جديدة جاهزة سوداء بقبة عريضة لأول مرة، وبدوت كمتسول عجوز. كل انزعاجي من التجارة نشأ من ذلك.

كان جو أنانياً جداً إذ كان يترك دراجته أمام المحل. وكان يقضي هذا الوقت القصير في التسكع الذي كان يسبب الكثير من الأزعاج لأبي. عملت ست سنوات في محل العجوز غريميت الذي كان رجلاً مسناً بقامة منتصبة وشعر رمادي ناعم كشعر عمي ايزكيل لكنه أضخم، وهو ليبرالي أيضاً، وأقل حدة وأكثر احتراماً في البلدة. وقد عدل مواقفه ووازن أشرعته أثناء حرب البوير، كما أنه عدو لدود للاتحادات المهنية، وعضو في جوقة الكنيسة واسم معروف على الصعيد المحلي بتنتاب. أما عائلتي نكانت مسيحية فقط، وعمي ايزيكيل غير مؤمن، ومرة طرد معاونه بسبب صورة لكير هاردي، وغريميت وكان أيضاً عضواً في مجلس البلدة والممثل الرسمي المحلي للحزب الليبرالي بلحيته البيضاء وكلامه المنمق عن حرية الضمير والرجل العجوز العظيم ورصيده البنكي الخافق وصلواته الارتجالية وهو يشبه السمان الأسطوري المنشق في القصة التي سمعت عنها على ما أعتقد:

- جيمس.
- نعم يا سيدي.
- هل وضعت رملاً في السكر.
- نعم يا سيدي.
- وهل أضفت لماء إلى الدبس؟

- نعم سيدي.

- إذاً هلمّ إلى الصلاة.

يعلم الله عدد المرات التي سمعت فيها هذه الحكاية في الدكان. فنحن عادة نبدأ اليوم بالصلاة قبل أن نرفع الستار. لم يكن العجوز غريميت يضع الرمل في السكر لأن ذلك لن ينفع، لكنه كان رجل أعمال ناجحاً ويتاجر بكل البقالة التي تحتاجها الطبقة العليا في بينفيلد والريف المحيط بها، ولديه ثلاثة معاونين بالإضافة إلى صبي المحل وسائق العربة وابنته التي تعمل محاسبة. وكنت صبي المحل خلال الستة أشهر الأولى، وبعدها ترك المحل أحد المعاونين للالتحاق بالجامعة فدخلت إلى المحل ولبست مئزري الأبيض، وتعلمت حزم الطرود وربط الزبيب وطحن القهوة وعمل شرائح من لحم الخنزير وتقطيع فخذه وكذلك سن السكاكين وكنس الأرض ونفض الغبار عن البيض دون كسره وبيع سلعة رديئة على أنها جيدة وتنظيف الواجهة وتقدير رطل الجبنة وفتح صندوق التعبئة وقطع ألواح الزبدة في شكل معين، وأصعب شيء معرفة مكان المخزون.

ذاكرتي عن البقالة ليست مفصلة كذاكرتي عن الصيد، ولكن لدي ما يكفي منها لأتذكر كيف أنوم بأصابعي بخدعة الخيط، وأستطيع العمل في مشرحة بشكل أفضل من العمل على الطابعة، كما أنني استطيع تدويخك بتقنيات جميلة بأنواع

الشاي الصيني ومكونات السمن النباتي ومتوسط وزن البيضة وسعر أكياس الورق بالآلاف. قضيت الخمس سنوات التالية وأنا شاب صغير بوجهي الدائري الوردي وشعري الذي بلون الزبدة، والذي كان مسرّحاً وطويلاً، مزيناً وممشوطاً إلى الخلف بطريقة سماها الناس آنذاك التسريحة النشيطة الناعمة. عملت جاداً خلف الطاولة لأكثر من خمس سنوات مرتدياً مئزري الأبيض وقلم الرصاص وراء أذني، وأنا اربط أكياس القهوة بسرعة البرق، وأتكلم مع الزبائن (حاضر يا سيدتي، بالتأكيد يا سيدتي، ما هو طلبك التالي يا سيدي) بلهجة فيها أثر من السوقية. كان العجوز غريميت بشغلنا بقسوة كبيرة حيث إنّ يوم العمل كان إحدى عشرة ساعة ماعدا يومي الخميس والأحد وأعياد الميلاد، كان كابوساً استمر زمناً طويلاً عند النظر إليه. لا تظن أنني بلا طموح ولقد أدركت أنّ البقاء معاون بقال إلى الأبد هو مستحيل، وسأوفر النقود بأي طريقة لأضع الأساس لعملي الخاص.

كان العالم قبل الحرب كبيراً، أي قبل هبوط الأسعار وإعانات العاطلين عن العمل، فاتّسع العالم لكل الناس حيث يمكن لأي شخص أن يؤسس مشروعه، وتوافرت الأمكنة للمحلات الجديدة على الدوام، لكن الوقت مر سريعاً 1909، 1910، 1911 ومات الملك ادوارد، وصدرت الصحف موشّحة بعلامات الحداد، وتمّ افتتاح دارين للسينما

في والتون وشاعت السيارات أكثر وانطلقت الحافلات العابرة للبلاد، وحلقت طائرة فوق بينفيلد ذلك الشيء القبيح الذي يشبه الكسيح حيث يجلس الطيار في وسطها على شيء يشبه الكرسي، وخرجت البلدة كلها تصيح، وبدأ الناس يرددون بأنّ إمبراطور ألمانيا قد كبر على حذائه، ومعنى هذا أن الحرب ضد ألمانيا قادمة. إزداد أجري تدريجياً حتى وصل إلى ثمانية وعشرين شلناً في الأسبوع، وذلك قبل الحرب فكنت أدفع لأمي عشرة منها مقابل طعامي. وعندما ساءت الأمور زدتها إلى خمسة عشر وما تبقى كان يكفيني ويشعرني بالغنى، فازداد طولي بوصة أخرى، وبدأ شارباي بالظهور، ولبست الجزمة ذات الأزرار والقبة العالية والقبة المستديرة والقفازات الجلدية مثل السادة تماماً. بين العمل والمشاوير فكّرت بالبنات والشباب، وانتابني طموح بأن أصبح رجل أعمال كبيراً مثل ليفر أو وليام وايتلي، وبذلت جهوداً كبيرة بين السادسة عشرة والثامنة عشرة لأحسّن من مستواي العقلي، وأدرب نفسي في مجال الأعمال، فعالجت نفسي من القلقلة والتأتأة، وتخلصت من اللهجة المحلية -كانت اللهجات الريفية تتلاشى من وادي التيمز ماعدا صبيان المزارع، أما كل من ولد بعد 1890 فقد تكلم اللهجة الكوكونية المحلية- ودرست منهجاً بالمراسلة في أكاديمية ليتل بيزنس التجارية، وتعلمت مسك الدفاتر والانكليزية الخاصة

بالتجارة والأعمال، وقرأت كتاب فن البيع، وكان محشوّاً بهراء فظيع، وطوّرت قدراتي بالحساب والكتابة، وعندما أصبحت في السابعة عشرة من عمري كنت أظل ساهراً حتى وقت متأخر في الليل، وأنا أتمرن على طباعة الكليشهات النحاسية على طاولة السرير وعلى ضوء مصباح زيتي صغير.

قرأت كثيراً قصص الجرائم والمغامرات وكتباً مغلفة بالورق توصف بالحارة يتداولها شباب المتاجر، وهي ترجمات موبسان وبول دي كوك، وعندما بلغت الثامنة عشرة صرت مثقفاً وحصلت على تذكرة في مكتبة كاونتي، وقرأت كتب ماري كوريللي ووهول كايين وانثوني هوب بصعوبة وانضممت في الوقت نفسه إلى دائرة بينفيلد للمطالعة التي أدارها القس، وكانت تجتمع مرة في الأسبوع خلال الشتاء للقيام بنقاش أدبي، وتحت ضغط القس قرأت سمسم ولیامز وبراونينغ.

مر الوقت مسرعاً، وتتالت أعوام 1910 و1911 و1912، ووصلت تجارة أبي إلى أسوأ حال لم تعرفه من قبل، فتغير والداي بعد هروب جو من البيت ولم يعودا كعهدهما بعد أن عملت عند غريميت بوقت ليس طويلاً. جو الذي أصبح رجلاً ضخماً مشاكساً في الثامنة عشرة وكان اكبر وأقوى من أفراد العائلة بكثير، بأكتاف عريضة جداً ورأس كبير، يدس يديه في جيوبه وينظر شزراً إلى المارة وكأنه يريد

مصارعتهم، فكان يقف في مدخل مشرب جورج ساداً الطريق، وإن جاء شخص ما ليدخل يتحرك إلى الطرف قليلاً ليفسح له في الدخول دون أن يخرج يديه من جيوبه ويصرخ قائلاً: هل هو محل والدك؟ وعندما يأتي الناس للشكوى منه يقول أبي وأمي لا نعرف ماذا سنفعل به؟ كان مستعداً لبيع أي شيء للشيطان مقابل شرابه ودخانه اللذين كان يستهلك الكثير منهما ولقد شكلت طلباته عبئاً ثقيلاً، ومرة خرج من البيت ولم يرجع ثانية بعد أن فتح عنوة درج النقود وأخذ كل ما فيه، ولحسن الحظ لم يكن فيه سوى ثمانية عشر جنيهاً كانت كافية للحصول على تذكرة رخيصة إلى أميركا إن رغب بذلك، ومن المرجح أنه فعلها لكننا غير متأكدين. تفشت أنباء فضيحة في البلدة كلها والنظرية الرسمية هي أن جو على علاقة بفتاة اسمها سالي شيفرز كانت تسكن في الشارع نفسه، وأنها أوشكت على الإنجاب، واتهم العشرات مع جو ولم يعرف من هو والد الطفل. تقبل أبي وأمي ذلك وفي سرهما سامحا جو على سرقة الجنيهات الثمانية عشر لكن لم يستطيعا إدراك أن جو هرب لأنه لم يقدر أن يتحمل حياة محتشمة في بلدة ريفية صغيرة، فهو يريد حياة تسكع ونساء وعراك، ولم يصلنا أي خبر منه أبداً، فربما انحدر نحو الأسوأ أو قتل في الحرب أو لم يتجشم عناء الكتابة لنا؛ ولحسن الحظ فقد ولد الطفل ميتاً لذا لم تكن هناك تعقيدات

أخرى. وبالنسبة لسرقة الجنيهات فقد بقي سرّاً بين أبي وأمي إلى أن ماتا واعتبراها نقيصة اكبر من طفل سالي شيفرز. لقد أزعجت مشكلة جو أبي وعجّزته قبل أوانه لأن ضياعه لم يكن خسارة فقط بل كان عاراً لأهلي، وازداد اللون الرمادي في شاربه وأصبح أصغر حجماً من ذي قبل بوجهه المدور المكسو بالتجاعيد ونظارته المغبرة، وبالتدريج كثر قلقه حول النقود، وقلّ اهتمامه بالشؤون الأخرى، كما قلّ حديثه عن السياسة وسوء أحوال التجارة وانكمشت أمي قليلا أيضاً، أمي التي عرفتها في طفولتي كشيء قادر ومهيمن بشعرها الأصفر ووجهها المشعّ وصدرها الضخم؛ إنها مخلوق عظيم كتمثال في مقدمة سفينة حربية فقد تحولت الآن إلى حجم اصغر يسيطر القلق عليها، وبدت أكبر من عمرها الحقيقي وأقل هيبة في المطبخ، تميل إلى طبخ لحم الضأن وتستعمل السمنة النباتية التي رفضت إدخالها إلى البيت في الأيام السابقة كما كان يقلقها سعر الفحم.

اضطر أبي إلى استئجار صبي للعمل في المحل بعد رحيل جو، وكان يستأجر أولاداً صغاراً جداً يبقيهم عنده سنة أو اثنتين لكنهم كانوا غير قادرين على حمل الأشياء الثقيلة، فكنت أساعده عندما أكون في البيت أحياناً وكانت أنانيتي تمنعني من مساعدته دائماً ولا أزال أراه وهو يشق طريقه ببطء عبر الساحة محني الظهر، ولا يظهر بسبب الكيس

الضخم الذي يزن أكثر من مئة وخمسين رطلاً الذي يضغط على رقبته وكتفيه ويحنيه إلى الأرض وهو ينظر بوجهه القلق ونظارته المغبرة من الأسفل؛ ولقد أصابه فتق في عام 1911 فأمضى عدة أسابيع في المستشفى واستأجر شخصاً يدير المحل لكنه استحوذ على قسم من رأس المال. إن منظر البقال المتجه نحو الإفلاس مرعب، لكنه غير مفاجئ مثل العامل المطرود من عمله ليعتمد على إعانة البطالة. إن استمرار التدهور التدريجي في التجارة صعوداً أو هبوطاً، أي بضعة شلنات خسارة أو ستة بنسات ربح والحالة الصحية للزبائن الذين تعاملوا معه سنوات والذين تحولوا إلى محلات سيرازينز وأصبح الزبون الذي يشتري دزينة دجاج يكتفي بطلب كميات من الذرة تكفيه أسبوعاً، لكن على الرغم من ذلك استمر وظل سيد نفسه مع ازدياد القلق والإهمال وانكماش المال لكن الاستمرار كان ممكناً، وإن جانبك الحظ تستمر سنوات حياتك كلها. مات عمي ايزيكيل عام 1911 تاركاً مئة وعشرين جنيهاً، ولقد شكل ذلك المبلغ دعماً كبيراً لوالدي حتى عام 1913 عندما رهن والدي تأمين حياته وهو ما لم أسمع به من قبل أو أفهمه في ذلك الوقت، وكل ما أدركته أن إدارة أبي لم تكن ناجحة وتجارته خاملة وراكدة. لقد نظرت إلى المحل على أنه شيء أبدي ودائم مثلما اعتقد أبي أيضاً، وإنني لذلك أحتاج إلى وقت طويل

لتأسيس مشروعي الخاص، وبالتأكيد سينتهي بي المطاف في الملجأ. كنت أمر أمام محلات سيرازينز كئيباً، لكن بتجرّد لقد فضلت واجهاتهم الزجاجية الملساء على محل والدي المغبر بيافطته (اس بولينغ) المغبرة التي لا تقرأ إلا بصعوبة بأحرفها البيضاء، وعلبة البذور الباهتة ولم يخطر ببالي أن سارازينز دودة شريطية تأكل أبي حياً.

كنت اقرأ له أحياناً عن منهج التجارة وأساليبها الحديثة الذي كنت أدرسه بالمراسلة، لكنه لم يكن يدرك أو يهتم. لقد ورث تجارة مستقرة، وعمل بجد وجهد، وتاجر تجارة شريفة وقدم بضاعة جيدة معتقداً أن هذا كاف لتحسين الأمور. إن عدد الباعة الذين انتهوا إلى الإفلاس كان قليلاً ومهما ساء الحظ فسيبقى عندك جنيهات قليلة بعد أن تموت، فكان سباقاً حاداً بين الإفلاس والموت، وأحمد الله أن الموت كان الأسبق لأبي وأمي.

كانت الحياة ممكنة في الأعوام 1911 و1912 و1913، ولقد قابلت ويلسي ووترز في أواخر عام 1912 لأول مرة من خلال جماعة القس للمطالعة، وحتى ذلك الحين كنت مثل كل الفتيان في البلدة أخرج وراء الفتيات، وكان ذلك عملاً غريباً، فعندما تكون في حدود السادسة عشرة من العمر، وفي مكان معروف في المدينة، فإنك مجبر على مجاراة الأولاد الذين يتمشون في مجموعات من شخصين ذهاباً وإياباً،

وينظرون إلى الفتيات اللواتي يقمن بالعمل ذاته أيضاً ويتظاهرن بعدم ملاحظة الأولاد، ويحدث أحياناً اتصال من نوع ما في الحال، فيتقاطر الأربعة، لكن من دون كلام. وأسوأ ما في تلك المشاوير هو الخروج لوحدك مع الفتاة في المرة الثانية حيث تفشل فشلاً ذريعاً في القيام بأي نوع من الحديث، لكن إيلسي وترز كانت مختلفة، والحقيقة أنني كنت أكبر وأكثر نضجاً.

لا أريد أن أحكي قصتي مع سالي وترز، حتى إن كانت هناك قصة، بل لمجرد أنها جزء من صورة عالم ما قبل الحرب حيث يبدو فيه الوقت أنه صيف دائم- إنه وهم ولقد أشرت إليه آنفاً - لكنني هكذا أتذكر الأشياء.

عندما أغمض عينيّ وأفكر في عالم ما قبل الحرب، ألمح الطريق الترابي الأبيض الممتد من أشجار الكستناء إلى البرك الخضراء ورشرشة بودفورد، وأرى أن إيلسي وترز جزء منه إلى النهاية.لا ادري إن كانت إيلسي تعتبر جميلة بمقاييس الحاضر لكنها آنذاك كانت في طول قامتي تقريباً، شعرها ذهبي باهت تطبقه وتلّفه فوق رأسها، وجهها جميل وناعم دائماً وتبدو ني أفضل حالاتها عند ارتدائها الثياب السوداء. ولقد كانت تعمل في محل ليلي برايت للأقمشة وتنحدر أصولها من لندن، وهي تكبرني بسنتين كما أعتقد.

إنني ممتن وشاكر لإيلسي لأنها أول من علمني الاهتمام

بالمرأة -لا أقصد النساء بشكل عام بل المرأة الفرد - التقينا لأول مرة في حلقة المطالعة، وبصعوبة لاحظت وجودها، وفي اليوم التالي دخلت إلى البلوتيز خلال ساعات العمل وهو ما لم أكن افعله عادة، فهو جو نسائي، وصمت مكبوت وأضواء خافتة ورائحة القماش الباردة وطنين خفيف للبكرات الخشبية التي تدور إلى الأمام من الخلف؛ كانت إيلسي منحنية وراء طاولة تقصّ قماشاً بمقص كبير في يدها وكان لها سحر لا استطيع وصفه وهي في ثوبها الأسود وقد تكور صدرها الطري على لطاولة، وحالما تراها تشعر أن بإمكانك أخذها بين ذراعيك وفعل ما تشاء بها. كانت أنثى حقيقية بكل معنى الكلمة، ومطيعة جداً وتفعل ما يطلبه منها الرجل دائماً، لكنها ليست ضعيفة ولا غبية أو صغيرة وتميل إلى السكوت وأحياناً مهذبة بشكل فظيع كما كنت أنا في تلك الأيام.

قضينا معاً سنة تقريباً، تمكننا فيها من العيش سوياً بالمعنى المجازي في بلدة مثل بينفيلد. فرسمياً كنا نخرج لنتمشى، وهذا عادي بدون خطوبة في طريق بطول ميل يتفرع من الطريق المؤدي إلى بينفيلد ويمتد تحت التلال، وفي قسم منه يكون مستقيماً ومغطى بأشجار الكستناء الضخمة، وعلى جانبيه العشب، وهناك ممر تحت الأغصان يدعى زقاق العشاق، كنا نذهب إليه في أمسيات شهر أيار (مايو) عندما يكون الشفق أزرق وطويلاً والهواء يدغدغ الوجوه كالحرير.

وفي أيام الآحاد كنا نذهب إلى المروج المائية في كامفورد على طول التيمز. يا الله ما أجمل عام 1913... هدوء وماء اخضر، وهو لن يتكرر ثانية. لا أقصد أن العام هو الذي لن يتكرر، إنما الشعور الداخلي بأنك لست على عجلة من أمرك وأنك غير خائف.

لم تسنح لي الفرصة إلا في أواخر الصيف عندما بدأنا ما سميناه بالعيش معاً. ولقد كنت خجولاً جداً وأخرق لأبدأ، كما أنني كنت جاهلاً كي أعرف إن كان هناك آخرون قبلي. وفي إحدى الأمسيات دخلنا بين أشجار الزان المحيطة ببينفيلد حيث رغبت أن نكون لوحدنا كما كنت بأمس الحاجة إليها. عرفت بأنها تنتظرني كي أبدأ، فخطر ببالي أن ندخل إلى أرض بينفيلد هاوس لكن العجوز هودجز الذي تجاوز السبعين كان سريع الغضب وقد يطردنا، وربما يكون نائماً في قيلولة بعد الظهر، فتسللنا من خلال فرجة في السياج وانحدرنا إلى الممشى بين أشجار الزان صوب البركة الكبيرة التي لم أذهب إليها منذ أربع سنوات والتي لم يتبدل فيها شيء إذ لا يزال المكان في عزلة مطلقة، وانتابني شعور خفي جميل وأنا محاط بالأشجار من كل صوب والقارب القديم المتعفن بين أشجار الديس. استلقينا في الوادي العشبي بجانب النعناع البري لوحدنا وكأننا في إفريقيا الوسطى. الله هو الذي يعلم كم قبلة قبلتها، ثم نهضنا وتمشينا ثانية. لقد أردتها بإلحاح

شديد، وأردت أن أقوم بالعمل الحاسم. لكنني كنت نصف خائف، وخطرت ببالي فكرة أخرى في ذات الوقت، فقد نويت المجيء إلى هنا منذ سنتين ولم أفعل، وكان من الغباء أن أدع الفرصة تفوت للنزول إلى البركة الأخرى وإلقاء نظرة على سمك الكارب الكبير، فشعرت أنني سأخذل نفسي إن لم أفعل، والحقيقة أنا لا اعرف لماذا لم أرجع من قبل. كان سمك الكارب مخزناً في عقلي، ولا يعرف بوجوده أحد غيري. سوف أعود وأمسكه في وقت ما وهو عملياً لي، فبدأت أتجول حول الضفة في ذلك الاتجاه، وبعد عشر ياردات رجعت إلى الوراء لأنه كان عليّ المرور عبر شجيرات العليق والأغصان المتعفنة المقطوعة، وأنا بأفضل الثياب المخصصة لأيام الآحاد، بدلة رمادية وقبعة مدورة وقبة توشك أن تقطع أذنيّ، وكان هذا هو لباس جميع الناس يوم الأحد في تلك الأيام. رغبتي في إيلسي كانت جامحة فعدت ووقفت بجانبها للحظة؛ كانت مستلقية على العشب واضعة يديها على وجهها، لم تتحرك عندما سمعتني قادماً وبدت في ثوبها الأسود طرية ناعمة ومستسلمة كما لو أن جسدها مادة لينة يمكنك أن تعمل ما تشتهي به. وفجأة توقف خوفي ورميت القبعة فوق العشب، فارتدّت إلى الخلف فجثوت بقربها واحتضنتها في الوقت الذي كنت لا أزال أشم رائحة النعناع البري. كانت المرة الأولى لي، لكن ليست لها كذلك ولم

تفعل الكثير..... وتوقفت وكان ما كان. تلاشى سمك الكارب من ذهني، وفي الحقيقة لم أفكر به طيلة السنوات الطويلة التي أعقبت ذلك.

وخلال عامي 1913 و1914 وبالتحديد في ربيع العام 1914 عندما أزهر البرقوق ثم الزعرور البري وبعدهما الكستناء، وبعد ظهر أيام الأحد، وعلى طول الممر حيث الريح تهز أشجار الأسل الكثيفة التي كانت تتأرجح مثل شعر امرأة، وأمسيات حزيران (يونيو) الطويلة والممشى المغطى بأشجار الكستناء، وصوت البومة الذي كان يُسمع في المكان، وجسد إيلسي الذي يلتصق بي. لكنّ شهر تموز (يوليو) كان حاراً جداً في تلك السنة، فقد تعرّقت كثيراً في المحل بالإضافة إلى رائحة الجبن والقهوة المطحونة القوية، ثم يأتي المساء البارد في الخارج ورائحة المينولا وتبغ الغليون في الممشى خلف البساتين والتراب الناعم تحت الأقدام والسبد الذي يتصيد خنافس النباتات.

يا إلهي، وما الفائدة من ذكر ذلك لشخص إن لم يكن محباً لعالم ما قبل الحرب؟ لكنني عاطفي ومتعلق به وأنت كذلك لو تذكرته لتعلقت به أيضاً. صحيح أنك إذا استرجعت فترة محددة من الماضي فإنك تميل إلى تذكر الأشياء السّارة والصغيرة جداً وهذا ينسحب على عالم ما قبل الحرب أيضاً. لقد كان الناس يملكون شيئاً لا نملكه نحن الآن، لكن ما هو؟

كانوا لا ينظرون إلى المستقبل كشيء مرعب، والحياة لم تكن أسهل وأنعم مما هي عليه الآن بل كانت أصعب وأقسى. فالناس عملوا بجهد اكبر وعاشوا براحة أقل وماتوا بألم اشد، عمل العمال الزراعيون ساعات طويلة من أجل أربعة عشر شلناً في الأسبوع، وانتهوا مهترئين وبإعاقات دائمة وتقاعد شيخوخة بخمسة شلنات، كما تمنحهم الكنيسة نصف جنيه في المناسبات، وأوضاعهم أسوأ بكثير مما يسمى بالفقير المحترم. واتسون تاجر قماش صغير في الطرف الآخر من الشارع العام فشل بعد سنين من الصراع، وكان رصيده جنيهين وتسعة بنسات، ولقد مات مباشرة بسبب ما أسموه القرحة، أما الطبيب فقال: مات بسبب الجوع، ومع كل ذلك ظل متمسكاً ببدلة الفراك السوداء القديمة إلى النهاية. أما الساعاتي، ذلك الحرفي الماهر الذي بدأ كصبي في العمل ثم أصبح رجلاً وعمل مدة خمسين سنة إلى أن أصابه العمى ودخل الملجأ مضطراً. أما أحفاده فكانوا يتصارخون في الشارع عندما أبعدوه في حين خرجت زوجته تتسوّل، وبمجهود يائس كانت ترسل له شلناً في الأسبوع كمصروف جيب. ما تراه الآن مرعباً جداً والأعمال التجارية الصغيرة تتدهور ويتحول التجار القدماء الأقحاح بالتدريج إلى الإفلاس، ويموت الناس بالسرطانات وأمراض الكبد ويقسم الأزواج المدمنون على الإقلاع عن الخمر يوم الاثنين ليعودوا

إليها يوم السبت، وتنتحر البنات بسبب الأطفال اللاشرعيين والبيوت التي بلا حمامات وتكسير الجليد الذي في الأحواض كل صباح في الشتاء، ورائحة العفونة في الشوارع الخلفية في الصيف الحار وساحة المقبرة المغبرة وسط البلدة بحيث تتذكر النهاية المحتومة كل يوم، ورغم كل ذلك فإنّ الناس كانوا يملكون شيئاً في تلك الأيام، نحن لا نملكه الآن، وهو الشعور بالأمان، وبدقة أكبر إنه الشعور بالاستمرارية. حتى في غياب الأمان فالكل مدرك أنه سيموت، وقلة منهم عرفت أنهم سيفلسون لكن الذي لم يعرفوه هو أن ترتيب الأشياء ونظامها قد يتغيران، فمهما يحدث لهم فان الأشياء سوف تستمر من بعدهم كما ألفوها، ولا اعتقد بأن ما أسموه بالإيمان الديني قد شكل فرقاً، فكل الناس كانوا يرتادون الكنائس في كل أنحاء البلاد آنذاك.

أنا وإيلسي كنا نذهب إلى الكنيسة أيضاً باعتباره عملاً طبيعياً حتى عندما كنا نعيش في الحرام أو الرذيلة كما اسماها القس، وإن سألت الناس عن إيمانهم في الآخرة فأغلبهم سيجيب بنعم، لكنني لم ألتقِ بأحد خلق عندي الانطباع بأنه مؤمن حقيقي بالحياة المستقبلية، وأعتقد أن الناس يؤمنون بهذا كإيمان الصغار بآباء أعياد الميلاد لكنها من دون شك كانت فترة استقرار، والحضارة وقفت فيها على أرجلها الأربع كالفيل لذلك لم تكن الأشياء المستقبلية مهمة،

إذ من السهل عليك الموت إن عرفت أن الأشياء التي تهمك ستبقى حية بعدك، نأنت عشت حياتك وبدأت تتعب وحان أوان الموت. بهذه الرؤية نظر الناس إلى الحياة. حياتهم كأفراد انتهت لكن أسلوب حياتهم مستمر وخيرهم وشرهم سوف يظلان خيراً وشراً، لم يشعروا أن البساط قد سحب من تحت أقدامهم.

ازدادت إخفاقات أبي دون درايته لأنه ظل يعتقد أن التجارة تتضاءل والظروف صعبة فعجز عن دفع فواتيره، وأحمد الله أنه مات فجأة إذ أصيب بأنفلونزا حادة تحولت إلى ذات الرئة في بداية عام 1915، ولم يعرف أن تجارته قد دمّرت ولم يذق طعم الإفلاس. ظل يعتقد حتى النهاية بأن التدبير الجيد والعمل الجاد والتعامل الشريف والعادل لا يمكن أن يقود إلى الفشل، وهذا انسحب على الكثير من الباعة حتى انتهوا ليس إلى الإفلاس وفراش الموت بل إلى الملاجئ، ولوفغروف لم يقدر أن يدرك أنه خارج العصر ومنقرض كوحيد القرن، وهو يحدق بالسيارات وعربات الشحن.

وأمي أيضاً لم تعش طويلاً لتعرف أن الحياة التي تربّت عليها قد انتهت إلى الأبد، حياة ابنة البائع المحتشم وزوجته المحتشمة اللذين يخشيان الله في عهد الملكة الطيبة فيكتوريا.

لقد كانت الأوقات صعبة والتجارة في وضع سيئ، وأبي

كان على قلقه لكن الأمور تواصلت على نفس المنوال، إنه نظام الحياة الانكليزي الذي لم يتغير منذ الأزل بنسائه اللواتي يخشين الله ويطبخن الحلوى والزلابية والتفاح في الأفران الضخمة ويلبسن الثياب الداخلية الصوفية وينمن على الريش ويصنعن مربى الخوخ في تموز (يوليو) والمخلل في تشرين (أكتوبر) ويقرأن هيلدا هوم كومبانيون بعد الظهر والذباب يطنّ حولك والسيقان السيئة والنهايات السعيدة؛ عالم عائلي صغير ودافئ. لن أقول إنّ أبي وأمي ظلا كما هما حتى النهاية، لقد اهتزا قليلاً وأحبطا أحياناً لكنهما على الأقل لم يعيشا ليعرفا إن كل ما آمنوا به كان مجرد تفاهات فارغة. عاشا في نهاية حقبة عندما كانت الأشياء تذوب لتتحول إلى سيل متدفق جارف دون درايتهما. ظناً أن الاشياء أبدية ولا يمكن لومهما لأنّ الأمور بدت هكذا. بعدها جاءت نهاية تموز (يوليو) وحتى بينفيلد عرفت بان أشياء كانت تحدث إشارات غامضة ومقالات لا تنتهي في الصحف كان والدي يحضرها ليقرأها بصوت عالٍ لأمي، واستمرت أياماً، وفجأة كانت الملصقات الكيبرة في كل مكان وبأحرف كبيرة:

الإنذار الألماني النهائي...

فرنسا تحشد وتعبئ للحرب.

لقد بقينا عدة أيام ربما أربعة، فقد نسيت التاريخ الدقيق.. كان يخنقنا شعور غريب وجو حار جداً. كنا في

المحل لكن دون أن نعمل على الرغم من أن كل من في الجوار اندفع لشراء المواد الغذائية المعلبة والطحين ودقيق الشوفان بالنقود التي معه كأننا مصابون بالحمى نتعرق وننتظر فقط، وفي المساء يذهب الناس إلى محطة القطار فيتقاتلون بضراوة للحصول على صحف المساء التي تصل على متن قطار لندن. وفي عصر أحد الأيام جاء ولد إلى الشارع العام مسرعاً ويداه ممتلئتان بالجرائد والناس يصيحون في مداخل بيوتهم: لقد دخلنا.. لقد دخلنا.. التقط الولد ملصقاً من الرزمة ولصقه على واجهة المحل المقابل:

انكلترا تعلن الحرب على ألمانيا.

اندفعنا أنا والمعاونون الثلاثة إلى الخارج وهتفنا، وهتف الكل معنا، لكن العجوز غريميت الذي استفاد كثيراً من رعب الحرب لم يؤيدها، وظل متمسكاً ببعض مبادئه الليبرالية، وقال: إنها ستكون حرباً خاسرة. وبعد شهرين كنت في الجيش وفي فرنسا بعد سبعة شهور.

8

لم أصب حتى وقت متأخر من عام 1916 عندما خرجنا من الخنادق وسرنا في طريق يفترض أنه لا يتعدى أمتاراً فقط لكن طوله كان ميلا تقريباً. فجأة أطلق الألمان علينا بضع قذائف من النوع الثقيل والشديد الانفجار بمعدل قذيفة في

الدقيقة، وكانوا قد حصلوا على مدى لرمي مسبقاً؛ ولقد اعتدنا على سماع (وز - وي -بوم) ثم تهبط على الحقل الذي على يميننا، وأعتقد أن الطلقة الثالثة هي التي أصابتني،عرفت أنها ستصيبني فور سماع صوتها، وكأنها تقول أنا وراءك أنت، سألحق بك، وعند آخر أنت انفجرت طبعاً. ذلك لم يستغرق ثلاث ثوان فشعرت أن يداً ضخمة من الهواء جرفتني معها وصحوت فوراً على شعور من التحطم الذي سببه الانفجار لأجد نفسي وسط علب قصدير قديمة وقطع من الخشب والنفايات والأسلاك الشائكة الصدئة وعبوات المتفجرات الفارغة. سحبوني وأزالوا الأوساخ عن جسمي ووجدوا أن إصابتي لم تكن بليغة إذ انغرست بعض الشظايا الخشبية في أحد طرفيّ وأسفل فخذي، ولحسن الحظ انكسر ضلعي عند سقوطي مما كان كافياً لإعادتي إلى انكلترا فأمضيت ذلك الشتاء في مستشفى ميداني على المرتفعات القريبة من ايستبورن.

هل تتذكر تلك المستشفيات الميدانية في زمن الحرب؟ صفوف طويلة من الأكواخ كأكواخ دجاج المزرعة على قمم تلك المرتفعات الباردة الموحشة التي سميت بالشاطئ الجنوبي مما جعلني أسأل عن حال الشاطئ الشمالي حيث تهب الريح علينا من كل الاتجاهات دفعة واحدة، بينما قطعان من الفتيان يتجولون في بدلاتهم القطنية الزرقاء الباهتة

والربطات الحمراء صعوداً ونزولاً بحثاً عن مكان يلجأون إليه من الريح دون جدوى. وأحياناً كان يزورنا الأولاد المتفوقون من مدارس ايستبورن ليقدموا للجرحى دهن النعناع والسجائر، يقودونهم في طوابير فترى ولداً بوجه قرنفلي بعمر الثامنة يمشي نحو مجموعة من الرجال المصابين الجالسين على العشب فيفتح علبة سجائر ويناولهم بتقدير واحترام وكأنه يطعم قرداً في حديقة الحيوان. لقد كانوا يسمون الجنود 'تومي' لكن كل جريح من هؤلاء قادر أن يلف ويتجول أميالاً كثيرة بأمل الحصول على واحدة من الفتيات اللواتي كانت أعدادهن غير كافية، وفي أسفل المخيم أيكة صغيرة ترى فيها قبل الغروب زوجاً ملتصقاً بكل شجرة وإن كانت غليظة فإنك ترى ثنائياً آخر في مقلبها الآخر.

الشيء الأساسي في ذاكرتي فيما يتعلق بذلك الزمن هو الجلوس بجانب شجرة الجولق والريح قارصة مجمدة لدرجة أنني لا أستطيع ثني أصابعي من شدة البرد، وطعم النعناع الكريه؛ هذه هي ذاكرة جندي نموذجي وحياة الجنود لا شك متشابهة. قبل أن أصاب أرسل الضابط الآمر اسمي في مهمة لأنهم كانوا آنذاك بحاجة ماسة إلى الضباط، وكل من هو غير أميّ تماماً يمكنه الحصول على أن ينتدب في مهمة إن أراد، فذهبت من المستشفى مباشرة إلى معسكر تدريب الضباط قرب كلوشستر. غريب ما تسببه وتفعله الحرب بالناس، فقبل

ثلاث سنوات كنت معاون بقال نشيطاً في مئزري الأبيض منحنياً على طاولتي، وأنا أردد: نعم يا سيدتي.. بالتأكيد يا سيدتي.. الطلب التالي يا سيدي.. أي حياة بقال، وكانت فكرة أن أكون ضابطاً في الجيش مثل فكرة الحصول على مرتبة فارس، وها أنا أتبختر في قبعة وياقة صفراء مرفوع الرأس وسط جمع من السادة المؤمنين، وغير المؤمنين وهنا بيت القصيد حيث لا يُستغرب شيء في تلك الأيام، وكأنك في قبضة آلة ضخمة تسلبك حرية التصرف والإرادة وفي ذات الوقت تنعدم لديك نية المقاومة، ولولا هذا الشعور الذي يتملك الناس فلن تدوم الحرب أكثر من ثلاثة أشهر وستحزم الجيوش أمتعتها وتعود إلى أوطانها.

لماذا تطوعت للالتحاق في الجيش؟ أو لماذا انضم مليون معتوه إلى الجيش قبل تنفيذ التجنيد الإلزامي؟ بسبب اللهو والمتعة وبسبب بلادي انكلترا وأهلي البريطانيين، لكن أليس ذلك محض هراء، والى متى سيستمر؟ أغلب الشباب الذين عرفتهم نسوا كل هذا الكلام الفارغ قبل أن يصلوا إلى فرنسا، ولم يكن الرجال في الخنادق وطنيين ويكرهون القيصر، ولم يبالوا البتة ببلجيكا الشجاعة الصغيرة ولا بالألمان الذين اغتصبوا الراهبات على الطاولات في شوارع بروكسل ودائماً على الطاولات لكي يبدو الأمر فظيعاً. وعلى الرغم من هذا لم يخطر ببالي أن أفرّ وأنجو لأن الآلة تمسك

بك وتفعل بك ما تشاء، ترفعك إلى الأعلى أو ترميك إلى الأسفل، أو تضعك في أماكن لم تحلم بها، وليس غريباً إن رمتك على سطح القمر!.

انتهت حياتي القديمة فور انضمامي إلى صفوف الجيش ولم تعد تعني لي شيئاً، وإن صدقتني أم لا فإنني لم ارجع إلى بينفيلد سوى مرة واحدة فقط لحضور جنازة أمي. يبدو أنّ هذا لا يصدق لكنه كان طبيعياً حينها، واعترف أن السبب يعود إلى إيلسي التي توقفت عن مراسلتي بعد شهرين أو ثلاثة لأنها أقامت علاقة مع شخص آخر، ولم اعد راغباً في لقائها بالتأكيد، وإلا لحصلت على إجازة مثلما فعلت عندما ذهبت لزيارة أمي التي انتابتها نوبات اثر انضمامي إلى الجيش، لكنها فخرت بزيي العسكري. مات أبي في عام 1915 عندما كنت في فرنسا، ولن أبالغ إن قلت إنّ موته يؤلمني الآن أكثر مما آلمني في حينه، فقد كان نبأ سيئاً تلقيته دون اهتمام ولامبالاة، وبشكل غبي مثل أي شخص في الخنادق، وأتذكر كيف زحفت في الخندق نحو الضوء لأقرأ الرسالة، وشعرت بألم في ركبتي، وبرائحة الوحل ودمع أمي المتألمة الذي ترك بقعاً على الرسالة. إنّ تأمين حياة أبي المرهون قد فقد قيمته، وكان هناك مبلغ صغير في البنك إذ سيشتري سارازين المخزون وسيدفع مبلغاً صغيراً مقابل استخدامه لمؤسسة تجارية وهذا ما سيوفر لأمي أكثر من مائتي جنيه، بالإضافة

إلى الأثاث.. فاستأجرت مؤقتاً مع ابنة عمها، وهي زوجة مالك صغير استفاد من الحرب وحقق نجاحاً. كانت تسكن قرب دوكسي على بعد أميال قليلة من والتون، وكان الإحساس بأن كل شيء هو مؤقت، وما حدث يعتبر طبيعياً، أما لو كان ذلك في الماضي أو حتى منذ سنة فسيبدو الأمر كارثة مرعبة، وسيكون مثل مشاهدة مأساة مؤلفة من خمسة عشر فصلاً. لقد بيع المحل بعد موت أبي، وأصبح لدى والدتي مائتا جنيه. إن الشعور بعدم امتلاك الشخص لنفسه قد طغى على كل شيء، ولم يعد الناس يفكرون بأشياء مثل الإفلاس أو الملاجئ. هذا الوضع انطبق على أمي التي ليس لديها سوى أفكار غامضة جداً عن الحرب، فجاءت لزيارتي في المستشفى في ايستبورن مرة منذ أكثر من سنتين، وأصبت بصدمة حين رأيت مظهرها كونها بدت ذابلة ومتقلصة. لكن ربما لأنني كبرت وسافرت بدا لي كل شيء صغيراً، ولكن من دون شك إنها هزلت كثيراً وشحبت أكثر؛ تكلمت بطريقتها القديمة عن العمة مارثا ابنة عمها التي تقيم معها، والتغييرات التي حدثت في بينفيلد بعد الحرب، والأولاد الذين انضموا إلى الجيش، وسوء الهضم المتفاقم عندها، وشاهدة قبر أبي وجسده المسجى الجميل، والحديث الذي سمعته منذ سنتين ومع هذا كانت مثل شبح ناطق. من جهتي لم أكن أكترث لأنني عرفت فيها كائناً عظيماً ورائعاً وحامياً

كربان سفينة، ومثل دجاجة تحضن أفراخها، أما الآن فهي ليست سوى عجوز هزيلة في رداء اسود. لقد تبدل كل شيء وتلاشى، وهذه هي آخر مرة رأيتها فيها على قيد الحياة، ثم وصلتني برقية تقول إنها مريضة جداً وذلك عندما كنت في مدرسة التدريب في كلوشستر فأخذت إجازة طارئة لكن الأوان قد فات وماتت قبل أن أصل إلى دوكسي.كان ما تخيلته هي والآخرون على أنه عسر هضم ليس سوى ورمٍ، فأصيبت برشح مفاجئ أدّى إلى وضع حدّ لحياتها، وحاول الطبيب التخفيف عني بأنّ الورم كان حميداً ولقد أدهشتني تلك التسمية الغريبة.

دفنّاها بجانب قبر أبي، وكانت تلك آخر نظرة لي إلى بينفيلد التي تبدلت خلال السنوات الثلاث الأخيرة حيث أغلقت بعض المتاجر وعلّقت على واجهات بعضها الآخر أسماء مختلفة، ورحل الرجال الذين عرفتهم تقريباً منذ إن كانوا أولاداً، ومات قسم منهم، فسيد لوفغروف قتل في سومي وغنجر واتسون صبي المزرعة وأحد أفراد عصابة الكف الأسود مات في مصر، وأحد الشباب الذين عملوا معي في محل غريمبت فقد ساقيه والعجوز لوفغروف أغلق محله وسكن في كوخ قرب والتون معتمداً على تأمين الحياة القليل جداً. أما العجوز غريميت فقد حقق نجاحاً تجارياً في الحرب، وتحول إلى وطني، وأصبح عضواً في الهيئة المحلية

التي حاكمت معارضي الحرب، وأكثر ما أضيف إلى منظر المدينة الفارغة والمهجورة أهمية هو اختفاء الخيول، إذ صودرت كل الأحصنة الجيدة منذ زمن طويل ولم يبق سوى عربة المحطة، لكن البهيمة التي تجرها لم تعد تستطيع الوقوف لولا وجود العريش. تجوّلت خلال الساعة التي أمضيتها في بينفيلد أحيي الناس وأنا بالزي العسكري ولم أشاهد إيلسي لكنني رأيت كل التبدلات وكأنني لم أرها لأن عقلي كان مشغولاً بأشياء أخرى وخصوصاً مظهري العسكري ورتبة الملازم الثاني والسوار الأسود الذي بدا جميلاً على اللون الكاكي وسروالي القصير الجديد ذا القماش المضلع.وقفت على طرف القبر ثم رموا بعض التراب على الكفن، وأدركت ما يعنيه موت الأم وهي مسجّاة وفوقها سبعة أقدام من التراب فشعرت برعشة في عيوني وأنفي لكن حتى لحظة ذلك لم يخرج السروال القصير من بالي.

لا تظن أو تعتقد أنني لم أتأثر وأحزن على وفاة أمي بل على العكس حزنت لأنني لم أكن في الخنادق وإني أشعر بالأسى الذي يسببه الموت، لكن ما لم أفهمه أو أهتم به هو أن الحياة القديمة التي ألفتها قد رحلت أيضاً. أرادت الخالة مارتا الفخورة بابن أختها الضابط أن تلفت الأنظار لو أنني سمحت لها ورجعت إلى دوكسلي في الباص، أما أنا فاستقليت العربة إلى محطة القطار لأذهب إلى لندن ومنها إلى

كلوشستر. كذلك مررت بالدكان الذي لم يشغله احد منذ وفاة أبي، لقد كان مغلقاً وواجهته مسودة بالغبار ويافطته محروقة، كما رأيت البيت الذي ولدت وترعرعت فيه إلى أن أصبحت رجلاً صغيراً، فقد زحفت بأرض مطبخه وشممت رائحة السنفون وقرأت دونوفان الذي لا يقهر وكتبت واجباتي المدرسية وخلطت عجينة الصيد، وفيه عملت على إصلاح ثقوب إطار الدراجة وفيه أيضاً لبست أول ياقة عريضة. أشياء تحسّ في أبديتها كأنها مثل أهرامات مصر أما الآن فهي مجرد أشياء عابرة إن وطئتها قدمي. أبي وأمي وجو والصبية والكلب العجوز نيلر والطائر جاكي والقطتان والكلب سبوت الذي خلف نيلر والفئران التي في العلية كلها راحت ولم يبق سوى التراب، ولم اعد اهتم بها قط. طبعاً أسفت على موت أمي وموت أبي أيضاً، ولكن بالي كان مشغولاً دائماً بأشياء أخرى، فكنت فخوراً بأن يراني الناس بالسيارة وهو شيء لم أعتد عليه بعد، وحذاء عسكري خاص بالضباط ناعم وجميل وهو يختلف عما يلبسه الجنود وعن ثياب الآخرين في كلوشستر والستين جنيهاً التي تركتها لي أمي وشكرت الله لأنني لم أر إيلسي.

لقد عملت الحرب العجائب في الناس والأغرب من ذلك طريقة قتلها لهم أو عدم قتلهم أحياناً. فكانت مثل طوفان كبير يجرفك معه إلى حتفك، وفجأة تقذفك موجة

مرتدة لتجد نفسك حياً وتقوم بأشياء لا تصدق وبلا معنى، وتأخذ مقابل ذلك أجراً زائداً. كانت هناك كتائب من العمال الذين يشقون طرقاً لا تؤدي إلى أي مكان في الصحراء، وهناك رجال آخرون ألقي بهم في جزر قصية في المحيط الهادي ليحذروا من السفن الحربية الألمانية التي غرقت قبل سنوات من ذلك، وكانت هناك وزارات لهذا وذاك مع جيوش من الموظفين والكتبة استمرت في الوجود سنوات عديدة بعد انتهاء وظيفتها، وبنوع من البطالة المتعمّدة كان الناس يقحمون في أعمال ووظائف لا معنى لها، فتنسى السلطات أمرهم سنوات طويلة، وهذا ما حدث معي، ولولاه لما كنت هنا. لكن تسلسل الأحداث ممتع إلى حد ما.

بعد فترة قليلة من نشر اسمي كانت هناك دعوة للضباط من إدارة المحاسبة. وفور سماع الضابط الآمر في المعسكر بأنني أعرف شيئاً عن أمور التجارة والمحاسبة علما أنني لم أصرح عن عملي وراء طاولة بيع سابقاً أرسل اسمي وسارت الأمور كما يجب، وكنت على وشك المغادرة إلى مدرسة تدريب المحاسبة في ميدلاند.

هناك طلب على كل الضباط الصغار الملمين بمهنة المحاسبة للعمل شبه سكرتير في مكتب السير جوزيف شيم الذي كان من الأسماء الكبيرة في الإدارة، ويعلم الله وحده لماذا اختاروني. لقد اعتقدت أن الأمر قد اختلط عليهم وظنوا

أنني شخص آخر، وبعد أيام ثلاثة كنت أحيي السير جوزيف في مكتبه.كان خبيراً كبيراً ذا قامة منتصبة وشعر مخطط بالشيب وقور الطلعة له تأثير مباشر، ويدا عسكرياً محترفاً وضابطاً متميزاً ممن استحقوا وسام الخدمة المميزة أو من فرسان القديس جورج، وكأنه الأخ التوأم للرجل الذي ظهر في إعلان ديريسكي. أما في حياته الخاصة فكان مدير أحد المحلات المتسلسلة المشهورة في كل العالم ونظامها المدعو شيم لتقليص الأجور؛ توقف عن الكتابة عندما دخلت وتفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي.

- هل أنت من طبقة النبلاء؟

- كلا.

- حسناً، إذاً ربما نجد لك عملاً.

وفي غضون ثلاث دقائق استدرجني وعرف أنه لا خبرة لي في السكرتارية ولا أعرف الاختزال ولا أستطيع الطباعة، وإنني عملت في بقالية بثمانية وعشرين شلناً في الأسبوع، لكنه قال لي ستعمل لأنه يوجد الكثير من النبلاء في هذا الجيش اللعين ولكنه يبحث عن شخص يستطيع العد إلى العشرة. أحببته وتشوقت للعمل عنده لكن القوى الغامضة التي تحرك الحرب فرقتنا ثانية.هناك شيء أسموه قوة الدفاع عن الساحل الغربي كانت تتشكل أو لديهم النية بتشكيلها، وهناك فكرة مبهمة عن تأسيس مستودعات تموينية ومخازن أخرى في

نقاط مختلفة على طول الشاطئ، ومن المفترض أن يكون السير جوزيف المسؤول عن تلك المستودعات في الزاوية الجنوبية الغربية من انكلترا. ففي اليوم التالي بعثني لأفتش المخازن الموجودة في مكان يدعى مستودع الميل الثاني عشر في كورنيش الساحل الشمالي أو ربما كانت مهمتي أن اكتشف إن كانت المستودعات موجودة أم لا لأنهم لم يكونوا متأكدين من ذلك. وصلت إلى هناك وكانت المستودعات تتألف من إحدى عشرة علبة من لحم البقر فقط، ووصلت برقية من وزارة الحرب تكلفني بمسؤولية مخازن الميل الثاني عشر وأن أبقى فيها حتى إشعار آخر، وأبرقت بالرد أنه لا توجد مخازن، ولكن فات الأوان فقد وصل كتاب رسمي في اليوم التالي بتعييني الضابط الآمر لمستودعات الميل الثاني عشر وتلك هي نهاية القصة وبقيت هناك إلى نهاية الحرب.

لا أعرف ولا فائدة من سؤالي عن ماهية قوة الدفاع عن الساحل الغربي، وما هو عملها. ويبدو أنه لم يكن هناك أحد على معرفة بما يحدث. إنها خطرت ببال احد الأشخاص بسبب إشاعة غامضة عن غزو ألماني عبر ايرلندا، كما أعتقد أيضاً أن فكرة المستودعات التموينية التي كان من المفترض أن تكون على طول الشاطئ أيضاً وهمية، وكل الأمر دام ثلاثة أيام مثل الفقاعة، وبعدها نسيت الفكرة ونسيت أنا معها أيضاً إحدى عشرة علبة من لحم البقر تركت خلف بعض

الضباط الذين كانوا في مهمة غريبة والذين تركوا وراءهم عجوزاً أطرش يدعى لبجرد. أما مهمة العجوز الموكولة إليه فلم أعرفها وإن كنت تصدق فإنني بقيت في حراسة العلب تلك من منتصف عام 1917 إلى بداية عام 1919. قد لا تصدق لكن هذه هي الحقيقة ولكوننا في ذلك الزمن فلا يوجد شيء غريب، فقبل عام 1918 بطلت عادة توقع الأشياء المعقولة.

كانوا يرسلون إليّ كل شهر استمارة رسمية يطلب مني فيها توضيح عدد وحلة المعاول وأدوات حفر الخنادق ولفات الأسلاك الشائكة والبطانيات والأرضيات العازلة للماء ومعدات الإسعاف الأولي وصفائح الحديد المموج وعلب المربى التي في عهدتي. أدخلت صفراً أمام كل بند في الاستمارة وأعدتها لكن لم يحدث شيء. ويبدو أن الشخص الموجود في لندن كان يصنف الاستمارات ويرسل استمارات جديدة أخرى. وهكذا كانت تحدث الأمور. الضباط الكبار الذين كانوا يديرون الحرب نسوا وجودي. ولم أرد بذاكرتهم كما أنني كنت في مكان منعزل ولا يؤدي إلى أي مكان آخر، وبعد انقضاء سنتين في فرنسا لم اشتعل بالوطنية بل ما رغبت فيه هو الخروج منها.

كان جزءاً معزولاً من الشاطئ لا يمكن أن ترى فيه أي روح سوى بعض الفلاحين الذين لم يسمعوا بالحرب

المشتعلة، وعلى بعد ربع ميل، وعند أسفل التل يهدر البحر وتضرب الأمواج السهول الرملية الممتدة ويدوم هطول الأمطار تسعة شهور، وفي الثلاثة أشهر الأخرى تهب رياح عاتية من المحيط الأطلنطي، وليس هناك أحد سواي والعجوز بريفيت لبجرد بالإضافة إلى كوخين عسكريين الأول مقبول ويتألف من غرفتين سكنته مع العلب الإحدى عشرة؛ كان لبجرد عفريتاً عتيداً ولم أعرف عنه سوى أنه كان بستانياً قبل انضمامه إلى الجيش، لذلك فإنّ من الممتع أن ترى كيف يتحول الإنسان إلى نموذج بسرعة. قبل أن أصل إلى مستودع الميل الثاني عشر، كانت هناك بقعة حول أحد الكوخين التي بدأ لبجرد بشتل البطاطا فيها، وفي الخريف حرث بقعة أخرى حتى صار عنده حوالى نصف فدان صالحاً للزراعة، وفي بداية عام 1918 صار يربي الدجاج الذي أصبحت أعداده جيدة. وفي نهاية الصيف وقبل بداية السنة أنتج خنزيراً، ويعلم الله من أين، ولا أعتقد أنه سأل نفسه ماذا نفعل هناك، وللآن يربي الخنازير ويزرع البطاطا في البقعة التي كان يقوم عليها مستودع الميل الثاني عشر، وإني أتمنى له التوفيق والحظ الجيد.

وبعد فترة صرت أزاول عملاً لم تسنح لي الفرصة سابقاً للتفرغ له هو القراءة. لقد ترك من كان قبلي من الضباط بعض الكتب وأكثرها كان من الطبعات الرخيصة ذات السبعة بنسات

ومن النوع التافه التي كان يقرأها الناس آنذاك مثل ايان وسابر وكريغ كندي وغيرها، لكن كان واحد منهم يعرف الكتب التي تستحق القراءة، وأنا شخصياً لم أكن أعرف أي شيء في هذا الخصوص سابقاً، فالكتب الوحيدة التي قرأتها هي القصص البوليسية بالإضافة إلى كتاب جنسي مبتذل، وأنا لا أصنف نفسي من المثقفين، لكن لو سألتني عن كتاب جيد حينها لأجبتك الجيد هو الذي لا يملك الشخص الوقت لقراءته، وبما أنني كنت في ذلك المكان المهجور، ولا يوجد ما أقوم به والبحر يهدر على الشاطئ والمطر الغزير يسيل على زجاج النافذة وهناك صف كامل من الكتب يحدق بوجهي على الرف المؤقت الذي وضعه أحدهم على حائط الكوخ، لهذا من الطبيعي أن اقرأها من الجلد إلى الجلد؛ ولقد قمت بمحاولات كثيرة للتمييز بينها لكنني كنت في البداية مثل خنزير يشق طريقه عبر برميل من الزبالة. كان بينها ثلاثة أو أربعة كتب تختلف عن البقية. لا تخطئ الفهم وتذهب بفكرك بعيداً وتتصور أنني اكتشفت فجأة مارسيل بروست أو هنري جيمس، فأنا لن أقرا كتبهم حتى لو كانت عندي. إن الكتب التي أتكلم عنها ليست كتب مثقفين، لكن ين آن وآخر كان الحظ يحالفني بالحصول على كتاب يناسب مستواي العقلي الذي بلغته آنذاك، وكان أحدها كتاب ل هـ. ج. ويلز (تاريخ السيد بولي)، وكانت طبعته من النوع

الرخيص كذلك ورقه المقطع لكن تأثيره فيّ كان كبيراً، فأنا بتربيتي الريفية وأصادف ذلك الكتاب! كتاب آخر لـ كومبتون ماكينزي بعنوان (مخطط الشارع) الذي كان فضيحة الموسم قبل بضع سنين، وكنت قد سمعت إشاعات غامضة عنه في بنفيلد، وآخر لكونراد بعنوان (النصر)، ولقد أضجرتني بعض أقسامه لكنه أجبرني على التفكير كمؤلفه، بالإضافة إلى أعداد قديمة من مجلات ذات أغلفة زرقاء تنشر فيها قصص د. هـ. لورانس التي لا أتذكر اسمها لكنها كانت عن مجند ألماني يدفع رئيسه الرقيب الألماني من حافة قلعة ثم يهرب سراً لكن يتم القبض عليه في غرفة نوم حبيبته، ولقد حيرتني كثيراً، ولم أدرك المغزى، وتركتني في إحساس غامض وحب لقراءة القصص المشابهة. استمرت شهيتي للكتب عدة شهور، وكانت كالعطش، ولقد مثّلت المدخل الحقيقي لي إلى عالم القراءة. منذ أيام دونوفان لم يكن لدي أي فكرة عن كيفية الحصول على الكتب، واعتقدت أن الطريقة الوحيدة هي شراؤها وهذا يبين الخلاف الذي نحدثت عنه في التربية لأنني أعتقد أن أبناء الطبقة الوسطى ذوي دخول الخمسين جنيهاً في الأسبوع يعرفون كل شيء عن كتب نادي التيمز ومودي عندما كانوا في أمهدتهم، كذلك عرفت بعد وقت بوجود مكتبات الإعارة فاشتركت في مودي ومكتبة أخرى في بريستول، وقرأت في السنة التالية لويلز وكونراد وكيبلينغ وغلاسورثي، وباري بينو

وو.جاكوبز وبيت ريدج واليفر اونيون وكومبتون ما كينزي وه. سيتون ميريمان وموريس بارلينغ وستيفن ماكينا وماي سنكلير وارنولد بينيت وانثوني هوب وايلينور غلين وو.هنري وستيفن كيوك وسيلاس هوكينغ وجين ستراسون بورتر ولا اعرف كم اسماً لدي في القائمة. إن نصف الكتب التي اعتبرها الناس في تلك الأيام مهمة هي منسية الآن.في البداية كنت أبلعها كتمساح وقع على نطيع من جراد البحر، لكن بعد قليل أصبحت مثقفاً أكثر واستطعت أن أميّز بين الجيد والتافه، وقرأت (أبناء وعشاق) للورانس وتمتعت بها قليلاً واستمتعت جداً بـ (دوريان غري) لاوسكار وايلد و(الليالي العربية الجديدة) لستيفنسن. كان لويلز أكبر الأثر عليّ، وقرأت (مياه ايستر) لجورج مور وحاولت مرات كثيرة مع روايات هاردي لكنني كنت أعلق في وسطها دائماً وحاولت أيضاً مع إيبسن الذي تركني في انطباع المطر الدائم الهطول في النرويج. كنت ملازماً ثانياً ولم يبقَ للهجتي المحلية أي أثر، وصرت أميز بين ارنولد بينيت وايلينور غلين. وقبل أربع سنوات كنت اقطع الجبن في شرائح وراء الطاولة في مئزر أبيض، وأطمح أن أصبح معلم بقالة، وبالإجمال أعتقد أنه عليّ الاعتراف بأن الحرب أفادتني مثلما أضرّتني. على أي حال كانت قراءة الراويات في تلك السنة هي التعليم الحقيقي الذي حصّلته. لقد فعلت الكتب فعلها الكبير في عقلي وصار لي موقف ورأي استفهامي لم أكن أحصل عليه لو تابعت حياتي بالطريقة

العادية الحسية، وأسأل إن كنت قد أدركت الشيء الذي غيرني حقيقة وأثر عليّ فعلياً. لم تكن الكتب التي قرأتها بقدر ما كانت الحياة التافهة المتعفنة التي كنت أحياها. لقد كانت بلا معنى، وفي عام 1918 كنت أجلس بجانب الموقد في كوخ عسكري اقرأ الروايات وعلى بعد بضع مئات من الأميال عن فرنسا حيث كانت المدافع تهدر وقطعان من الأولاد البائسين يبللون سراويلهم من الخوف ويساقون إلى وابل من نيران البنادق الآلية مثلما ترمي فحمة صغيرة في آتون فرن كبير. كنت واحداً من المحظوظين. لقد غبت عن أعين الضباط الكبار وها أنا هنا في حفرة قذيفة دافئة أقبض راتباً مقابل وظيفة غير موجودة. ويصيبني الذعر أحياناً لخوفي من أن يتذكروني ويجدرني لكن ذلك لم يحدث قط، وظلت الاستمارات الرسمية الرمادية تأتي كل شهر أملأها وأعيدها إليهم، ثم يرسلون استمارات جديدة أخرى أعيدها بعد ملئها، وهكذا وكان لهذا سحر كبير مثل حلم المجانين إذ إنّ أثره وأثر الكتب التي قرأتها نزعا مني الإيمان بأي شيء.

لم أكن الشخص الوحيد على هذه الحال، وكانت الحرب مليئة بالنهايات الفضفاضة والكثير من الزوايا المنسية، وفي هذا الوقت كان ملايين الناس مسمرين في مناطق مهجورة بشكل أو بآخر، جيوش كاملة كانت تتقهقر على جبهات الحرب التي نسي الناس أسماءها.لقد كانت وزارة الحرب وزارة ضخمة بجيوش من الموظفين والكتبة الذين

يكسبون جنيهين أو أكثر في الأسبوع ويكومون تلالاً من الورق مع أنهم يعرفون تماماً، وبشكل جيد، أن ما يقومون به مجرد تكديس للأوراق ولم يعد أحد يصدق تلك القصص الوحشية والهراء عن بلجيكا الصغيرة الشجاعة؛ وأعتقد بأن الألمان رفاق طيبون كرهوا الفرنسيين كالسم، وكان الضباط الصغار يعتبرون هيئة الأركان العامة عبارة عن مجموعة من المتخلفين عقلياً. اجتاحت إنكلترا موجة من عدم الإيمان ووصلت إلى مستودع الميل الثاني عشر، ومن المبالغة القول إن الحرب قد حوّلت الناس إلى منقفين لكنها حولتهم إلى عدميين في الوقت الراهن. الناس الذين كانوا سيؤدون أدوارهم في حياتهم بطريقة طبيعية ويميلون للظن بأنهم مثل طعم الحلويات الدسمة قد تحولوا إلى شيوعيين متطرفين. لو لم تكن الحرب فماذا كنت أفعل؟ لا أعرف ولكن كنت سأكون شيئاً مختلفاً مما أنا عليه الآن، وإن لم تقتلك الحرب فإنها ستجعلك تفكر، وبعد كل تلك الفوضى المجنونة التي تفوق الوصف لا يمكنك الاستمرار بالإيمان بأبدية المجتمع التي لا تقبل الجدل كالأهرامات.

9

رمتني الحرب خارج الحياة التي ألفتها لكن الفترة الغريبة التي تلتها أنستني الحرب تماماً. من المؤكد أنَّ الإنسان لا

ينسى شيئاً إطلاقاً، وأنك تتذكر قشرة البرتقال التي رأيتها في البالوعة منذ ثلاث عشرة سنة والملصق الملون لتوركي الذي رأيته في المحطة، لكنني أتكلم عن نوع آخر من الذاكرة، أي أنني أتذكر الحياة القديمة في بينفيلد وصنارة الصيد ورائحة السنفون وأمي الواقفة خلف إبريق الشاي والطائر جاكي ومشرب ومعلف الخيل في السوق، تلك الأشياء التي لم تعد حية في عقلي وبعيدة جداً، لقد انتهيت منها ولم يخطر في بالي يوم العودة إليها.

تلك السنوات التي تلت الحرب مباشرة كانت أكثر غرابة من الحرب نفسها، لكن الناس لا يتذكرونها جيداً. لقد أصبح عدم الأيمان بأي شيء أقوى من قبل، فقد سرح ملايين الناس من الجيش واكتشفوا بأن الوطن الذي قاتلوا من أجله لا يريدهم وأن لويد جورج وشلّته كانوا يغذّون الأوهام الفعالة لخدمة مخططاتهم. حشود غفيرة من العسكريين المسرّحين يتجولون ني الشوارع ذهاباً وإياباً يقعقون بصناديق جمع المال، والنساء المقنعات يغنين في الشوارع ورجال في سترات رسمية يعزفون على آلات الاورغ اليدوية. الناس كلهم في انكلترا كانوا يندافعون للحصول على الوظائف وأنا أحدهم لكنني كنت محظوظاً أكثر من غالبيتهم لأنني حصلت على منحة جرح صغير بالإضافة إلى النقود القليلة التي كنت ادّخرتها في السنة الأخيرة من الحرب لعدم وجود المجال

لصرفها، لهذا خرجت من الجيش بمبلغ لا يقل عن ثلاثمائة وخمسين جنيهاً، وذلك شيء ممتع؛ ومن المؤكد أنك لاحظت ردة فعلي وها أنا هنا ومعي مبلغ كافٍ لأقوم بالشيء الذي تربيت من أجله وحلمت به سنوات طويلة، أي أن افتح محلي الخاص، فلدي مال وفير وإن انتظرت الفرصة المناسبة وكنت متيقظاً سأتمكن من إيجاد عمل تجاري صغير ومناسب بثلاثمائة وخمسين جنيهاً في عام 1925. لقد فكرت بذلك فعلاً، لكن يبدو أنني تجاوزت عالم البيع والشراء وذلك بسبب الجيش الذي حولنا إلى سادة مزيفين، وجعلنا نعتقد اعتقاداً ثابتاً بوجود مبلغ قليل من المال يأتي من مكان ما دائماً، ولو أنك اقترحت عليّ في عام 1919 أن أفتح محل تبغ أو حلويات أو مخزناً عاماً لسررت كثيراً ورشيت البذور على أكتافي ولارتفع مستواي الاجتماعي لأنني في ذلك الوقت لم أكن أعيش في الوهم السائد وسط الضباط المسرحين ولا أتخبل أن أمضي حياتي في تناول مشروب الجنّ الوردي.

أدركت ضرورة لحصول على وظيفة، وطبيعي أن تكون في التجارة لكن دون أن أعرف نوع العمل بالضبط، أي عمل بمنصب رفيع وهام مع سيارة وهاتف وإنْ أمكن مع سكرتيرة وسفر دائم. في غضون السنة الأخيرة من الحرب سيطرت الأوهام على غالبيتنا، فالشاب الذي عمل بائعاً متجولاً حلم

بنفسه مندوب مبيعات، والمندوب بدوره حلم أن يكون مديراً كبيراً. إنه تأثير حياة الجيش ولبس الإشارات ودفاتر الشيكات وتسمية وجبة المغرب بالوجبة الرئيسية. هذا لم يصب سوى الضباط الصغار فقط، وطوال تلك الفترة كانت تطوف في بالي فكرة أننا عندما نخرج من الجيش ستكون الوظائف بانتظارنا، وستدر علينا مرتبات لا تقل عما يدفعه الجيش لنا. ومن المؤكد أنه لو لم تروّج هذه الأفكار فلن يكون هناك قتال في أي حرب. حسناً إنني لم أحصل على تلك الوظيفة، وليس هناك من هو متلهف ليدفع لي ألفي جنيه في السنة مقابل الجلوس في مكتب مؤثث لإملاء الرسائل على سكرتيرة شقراء بلاتينية، لكني اكتشفت أن ثلاثة أرباع الرجال الذين كانوا في الجيش يعلمون على الصعيد المالي بأن الوضع في الجيش أفضل بكثير مما سيكون عليه بعده؛ وتحولنا فجأة من سادة نحمل تكليف جلالة الملكة إلى منبوذين بؤساء عاطلين عن العمل. انحطت أفكاري من ألفي جنيه في السنة إلى ثلاثة أو أربعة جنيهات في الأسبوع لكن حتى وظائف الثلاثة جنيهات بدت غير متوافرة إذ كل الوظائف شغلت مسبقاً إما من قبل الأشخاص الأكبر منا ببضع سنوات أو ممن هم أصغر منا ببضعة شهور، أما أولاد الزنا المساكين الذين ولدوا ما بين 1890 و1900 فقد تركوا في العراء، ورغم كل ذلك لم يخطر ببالي أن أعود إلى مهنة التجارة حيث من

المحتمل أن أجد عمل معاون بقال للعجوز غريميت إن كان لا يزال حياً ويعمل بالتجارة، وقد يزكيني، اذ لم أكن على تواصل مع بينفيلد لكنني دخلت في مدار مختلف؛ وحتى لو لم ترتفع أفكاري الاجتماعية من الصعب التخيل بعد أن رأيت وتعلمت العودة إلى الحياة القديمة الآمنة، والوقوف وراء طاولة البيع. أريد أن أظل في سفر كبائع متجول لأنه يناسبني.

لا توجد وظائف بمرتب للباعة المتجولين، وإنما توافرت وظائف يكون راتبها على أساس العمولة. ولقد كان هذا بداية النصب، فهي طريقة بسيطة جداً لزيادة مبيعاتك والإعلان عن بضاعتك دون مخاطر. هذه العملية في الأوقات الصعبة كونهم يبقونك على أعصابك بالتلميح إلى إمكانية توافر الوظائف التي بمرتب في الأشهر الثلاثة التالية، وعندما تضجر من الانتظار يحل مكانك فقير بائس آخر. ولم يمر وقت طويل قبل أن أحصل على وظيفة راتبها على أساس العمولة، وأحمد الله أنني لم انحدر إلى فئة الكناسين الجوالين أو الأسوأ. كنت أسافر حاملاً السكاكين والملاعق والشوك ومسحوق الصابون والقناني والعلب الأخرى والأدوات المكتبية وورق النسخ وأشرطة الطابعات وحباسات الورق وغيرها ولم أنشل أبداً، فأنا من النوع الذي يستطيع بيع الأشياء بعمولة، ولدي المقدرة والأسلوب، ولم أقترب

من المكسب الكبير أبداً لأنّ هذا يستحيل في هذا النوع من الأعمال.

عملت في هذا المجال سنة كانت غريبة من الرحلات العابرة للبلاد الى الأماكن السيئة التي نتوقف فيها في الضواحي ووسط المناطق؛ أماكن لن تسمع بها لو عشت مئة عام، وتلك البيوت التي تقدم المنامة والطعام بملاءاتها القذرة وروائحتها السيئة والبيض المقلي في وجبة الإفطار الذي يشبه صفاره الشاحب الليمون، وأعداد من الباعة البؤساء الذين التقي بهم باستمرار. إنهم أرباب عائلات بمعاطفهم الرثة وقبعاتهم المدورة في أواسط أعمارهم يصدقون بأن التجارة ستنتعش وستصل أرباحهم إلى خمسة جنيهات في الأسبوع، عداك عن المشي المتعب من دكان إلى آخر، والمساومات مع الباعة الذين يرفضون سماعك وإهانة النفس عندما يدخل زبون وتنسحب إلى الخلف ولا تظنّ أن هذا قد أزعجني، فبعض الناس ينظر إلى هذا النوع من الحياة على أنه عذاب، كما يوجد البعض الآخر ممن لا يستطيع دخول المحلات وفتح الحقائب التي تحتوي النماذج التي يروجونها دون التعبير عن امتعاضهم وكأنهم يصعدون قمة جبل. أما أنا فلست كذلك، بل كنت صلباً وأستطيع التحدث إلى الناس ليشتروا حاجات لا يريدونها، ولا أنزعج إن صفقوا الباب في وجهي. إن بيع الأشياء بعمولة عمل أحبه شرط أن أحصل على ربح

منه، ولا أدري إن كنت تعلمت شيئاً في تلك السنة من العمل. فلقد تغلبت على هراء الجيش في داخلي وانزاحت الأفكار التي التقطتها خلال فترة سنة والتي قضيتها في قراءة الروايات إلى مؤخرة رأسي، ولم أقرأ أي كتاب أو حتى رواية بوليسية خلال فترة العمل كلها لأنني كنت دائماً على الطرقات. كذلك لم أعد مثقفاً وإنما كنت في القاع وسط حقائق الحياة المعاصرة. لكن ما هي تلك الحقائق؟ حسناً إن الحقيقة الرئيسية هي الصراع المجنون والأزلي لبيع الأشياء، ومع بعض من الناس تأخذ الأمور شكل بيع الناس لأنفسهم وهذا يعني الحصول على وظيفة والمحافظة عليها. أعتقد أنه لم يمر شهر واحد على نهاية الحرب إلا وكان هناك رجال أكثر بكثير من الوظائف المتاحة في أي مهنة كانت، مما تسبّب بشعور مخيف من الحياة، مثل وجودك على متن قارب غارق مع سبعة عشر رجلاً وأربعة عشر طوق نجاة فقط، لكن ما هو العصري في هذا؟ وهل له علاقة بالحرب؟ يبدو أنه كذلك. إنه الشعور بأنك في قتال وتدافع أبدي، ولن تحصل على أي شيء إلا إذا انتزعته من شخص آخر، فهناك من يطلب وظيفتك دائماً وفي الشهر التالي أو الذي بعده سيقلصون الملاك وتطرد من عملك. أحلف جازماً أن هذا لم يكن موجوداً قبل الحرب.

مرت فترة بعد لحرب دون أن أفلس تماماً، فقد كنت

أربح القليل وما زال عندي بعض النقود في البنك التي تساوي حوالي مائتي جنيه، ولم أكن خائفاً من المستقبل لأنني كنت متيقناً بأنني سأحصل على وظيفة دائمة عاجلاً أم آجلاً، ولقد حدث ذلك بعد سنة وبضربة حظ. في الحقيقة أنا من النوع الذي يتدبر أمره في كل الظروف، ولست من النوع الذي يموت من الجوع ولو في أصعب الأوضاع، واحتمال أن ينتهي بي المطاف إلى الملجأ مثل احتمال وصولي إلى مجلس اللوردات، فأنا من النوع الوسط الذي انجذب إلى مستوى الخمسة جنيهات كل أسبوع بشكل طبيعي وطالما هناك وظائف سوف أهيئ لنفسي واحدة.

حدث ذلك بينما كنت أتجول لترويج حبّاسات الورق وأشرطة الطابعات فدخلت إلى بناية تضم مكاتب في شارع فلينت، بناية لم يسمحوا بدخول الباعة الجوالين إليها لكنني أقنعت صاحب المصعد أن حقيبة النماذج هي حقيبة دبلوماسية. كنت أسير في أحد الممرات أبحث عن مكتب شركة لفراشي أسنان رخيصة عندما رأيت شخصاً مهماً جداً قادماً من الجهة المقابلة فعرفت في الحال أنه على قدر من الأهمية. أنت تعرف رجال الأعمال الكبار فهم يشغلون حيزاً أكبر ويصدرون ضجيجاً أعلى في مشيهم من الناس العاديين، وتلوح منهم علامات الغنى التي تحسّ بها من على بعد خمسين ياردة، وعندما اقترب مني عرفته. إنه السير جوزيف

شيم! لكنه الآن ملني بالطبع ولم أجد أي صعوبة في معرفته، ربما هو هنا من أجل مؤتمر لرجال الأعمال أو ما شابهه وكان يتبعه رجلان من الموظفين أو السكرتيرين وكأنهما يحملان ذيل ثوبه، أو هذا ما أوحى به منظرهما. تنحّى جانباً في الحال، ومن الغريب جداً أنه عرفني رغم أنه لم يرني منذ سنين ولدهشتي وقف وتكلم معي:

- أنت، مرحباً، لقد رأيتك في مكان ما من قبل،ما اسمك؟ إنه على طرف لساني وماذا تعمل؟

- بولينغ يا سيدي كنت في إدارة الحسابات العسكرية.

- بالتأكيد أنت الولد الذي قال بأنه ليس نبيلاً. ماذا تفعل هنا؟

كان من الممكن أن أقول إنني أبيع أشرطة الطابعات وينتهي كل شيء لكن غمرني الإلهام المفاجئ الذي يأتيك أحياناً وقلت:

- حسناً يا سيدي في الحقيقة إنني أبحث عن وظيفة.

- وظيفة؟ ليست سهلة في الوقت الحاضر.

نظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل وابتعد عنه حاملا الذيل مسافة قليلة ورأيت وجهه الحسن وحاجبيه الرماديين وأنفه الذكي وهو يتفحصني فأدركت أنه سيساعدني.

غريبة سلطة هؤلاء الأغبياء. مر من جانبي في هيبته ومجده وبطانته تتبعه وبنزوة التفت جانباً فجأة مثل إمبراطور

يرمي قطعة نقدية لأحد المتسولين.

- إذاً أنت تريد وظيفة ؟ ماذا يمكنك أن تعمل؟

وأسعفني إلهامي ثانية ولكن مع رجل مثله لا يجدي شيئاً سوى الحقيقة ولا فائدة من المبالغة في توصيف الكفاءات والالتزام بالحقيقة هو الأفضل.

- لا شيء يا سيدي لكن أريد العمل كبائع متنقل.

- بائع؟ لست متأكداً أنه لدي شيء لك في الوقت الحاضر. دعنا نرى.

برم شفته للحظة، ربما لنصف دقيقة وفكر بعمق. غريب! حتى في ذلك الوقت كان غريباً أن مثل هذا الرجل المهم والكبير الذي يساوي نصف مليون جنيه على الأقل يشغل تفكيره لمصلحتي ومن أجلي. لقد حرفته عن طريقه وضيّعت من وقته ثلاث دقائق على الأقل، كل ذلك بسبب ملاحظة عابرة حدثت منذ سنين لصقت بذاكرته وهو راغب أن يتحمل عبئاً قليلاً مطلوباً ليجد وظيفة لي، وأجرؤ على القول إنه يقوم بذلك في اليوم الذي قد يكون صرف نيه عشرين موظفاً، وأخيراً قال:

- هل تحب العمل في شركة تأمين؟ آمنة ودائمة. أنت تعرف أن على الناس الحصول على تأمين مثلما عليهم أن يأكلوا.

قفزت من الفرح طبعاً بفكرة الدخول إلى شركة التأمين.

إن السير جوزيف كان مشاركاً في فلايينغ سالامندرز ويعلم الله بكم شركة أخرى غيرها. إثر ذلك تقدم أحد المرافقين إلى الأمام ورفع مسند الكتابة وبقلم حبر أخرجه من جيبه، خربش السير جوزيف ملاحظة لمسؤول في الفلاينغ سالامندرز، ثم شكرنه وتابع سيره. مشيت متسللاً إلى الجهة الأخرى ولم نرَ بعضنا ثانية أبداً.

حصلت الآن على وظيفة كما قلت سابقاً وتملكتني ولا أزال أعمل في الفلاينغ سالامندرز منذ ثماني عشرة سنة، وقد بدأت العمل في المكتب لكنني الآن أعمل مفتشاً، وللتأثير أكثر مندوباً. أعمل يومين في الأسبوع في مكتب المقاطعة وبقية الأيام أتنقل مسافراً لأقابل الزبائن الذين يرسل أسماءهم عملاؤنا المحليون نخمّن المحلات والملكيات الأخرى، وبين الحين والآخر أصدر بضعة أوامر على مسؤوليتي وأكسب حوالى سبعة جنيهات في الأسبوع، وبعبارة أوضح هذه نهاية حياتي الفاعلة، وعندما انظر إلى الوراء أدرك أن حياتي الحقيقية انتهت منذ أن كنت في السادسة عشرة، وأنّ كل الأشياء المهمة التي حدثت لي فعلياً تعود إلى قبل ذلك التاريخ، لكن وكما يقال تستمر الأشياء بالحدوث وتستمر الحياة كالحرب مثلاً. لكن منذ الوقت الذي حصلت فيه على الوظيفة مع الفلاينغ سالامندرز لم يحدث أي شيء مهم في حياتي، لكن كما هو معروف أن السعداء لا تاريخ لهم، أو

ما يمكن وصفه أنه حدث باستثناء زواجي من هيلدا الذي وقع بعد سنتين ونصف أي في بداية عام 1923.

10

سكنت في بيت يقدّم الطعام أيضاً في ايلينغ، ودارت السنوات وخرجت بينفيلد من ذهني تماماً. فقد كنت عاملاً من عمال المدينة النشيطين، أخرج مسرعاً للحاق بقطار الثامنة وخمس عشرة دقيقة، وأحيك المؤامرات لزملائي في الوظيفة وسمعتي جيدة في الشركة ومقتنع بالحياة إلى حد ما. لقد أسرني وهم النجاح بعد الحرب والأحاديث الطويلة الحلوة والنشاط والقوة والعزم والشجاعة والنجاح والدخول والخروج واتساع القمة لأكثر من شخص وعدم القدرة على سد الطريق أمام الرجال الأخيار وإعلانات الجرائد عن الشاب الذي يربت الرئيس على كتفه، والمدير الحذق الذي يجر الكعكة الكبيرة ويعزو نجاحه إلى منهج مراسلة تعلمه.لا أدري كيف بلعنا كل هذه الترهات؟

أنا لست عدوانياً أو مغروراً وكذلك لست عاطلاً أو عاجزاً، وإنني بطبيعتي غير قادر أن أكون هكذا لكنها كانت روح العصر. انجح واستفد وإنْ رأيت رجلاً ينهار اقفز على أحشائه قبل أن يقف ثانية. هكذا كانت بداية العشرينيات عندما تفسخت آثار الحرب ولم يبدأ انهيار الأسعار بعد انتزاع أحشائنا.

اشتركت في البوتس وذهبت إلى حفلات الرقص الرخيصة وانضممت إلى نادٍ محلي للتنس من نوادي الضواحي الارستقراطية مؤلف من خيمة خشبية صغيرة وسياج بشباك عالية وشباب بثيابهم البيضاء القصيرة يثبون للأعلى ويصيحون: عشرين، أربعين... الفرص والأفضلية للجميع بأصوات مقلدة للنخبة العليا.

تعلمت التنس ولم أصبح راقصاً جيداً وكان تواصلي مع الفتيات جيداً أيضاً وعمري حوالي الثلاثين ولم يكن مظهري جيداً؛ وجه أحمر وشعر أصفر، وفي تلك الأيام كان خوض الحرب ميزة. لم أنجح لا في ذاك الوقت ولا في غيره في أن أبدو بمظهر السيد لكن لا يمكن اعتباري حانوتياً صغيراً من مدينة ريفية، ويمكنني الاستمرار حتى نهاية العيش وسط مجتمع خليط في مكان مثل ايلينغ مع أجراء المكاتب وحرفيي الطبقة الوسطى المتداخلين في بعضهم بعضاً.

قابلت هيلدا لأول مرة في نادي التنس وكانت في الرابعة والعشرين حينذاك،جميلة وعيونها واسعة جداً، لذا شبّهتها بالأرنب، كما أنها لم تكن تتكلم كثيراً لكنها تبقى على هامش الحديث الجاري موحية أنها تنصت، وإن قالت شيئاً سيكون أوه، نعم، وأنا أعتقد هذا أيضاً وكانت توافق رأي آخر متكلم دائماً. لماذا تزوجتها؟ سألت نفسي هذا السؤال مرات لا يعلم إلا الله عددها ولا أزال بعد أكثر من خمس

عشرة سنة من الزواج، ومن المؤكد أنك سألت نفسك ذلك أيضاً إن كنت متزوجاً.

تزوجتها لأنها شابة وجميلة، والأكثر من ذلك لأنها جاءت من أصول مختلفة كلياً عن أصولي. كان من الصعب عليّ أن أفهمها، لذا تزوجتها كي اكتشفها، أما لو تزوجت إلسي ووترز فقد كنت أعرف من تزوجت مسبقاً. تنتمي هيلدا إلى طبقة لا أعرف عنها شيئاً إلا من خلال الإشاعات والأقاويل، وهي طبقة ضباط معدمة؛ فعائلتها من جنود وبحارة ورجال دين وموظفين انغلوهنود منذ أجيال، ولم يكن عندهم نقود أبداً، طبعاً ولم يقم أي منهم بعمل حقيقي. كان هناك نوع من جاذبية الندرة، فأنا الذي انتمي إلى طبقة صغار الباعة الذين يشربون الشاي مع السندويش، طبقة الكنيسة الانجليكانية ولا يؤثر ذلك عليّ الآن. لا تسئ فهمي، فلم أقصد أنني تزوجت من هيلدا لأنها تنتمي إلى الطبقة التي كنت أخدمها في محل البقالة لأنّ فكرة تسفيه نفسي في السلم الاجتماعي غير واردة، والسبب فقط أنني لم أفهمها، لذا كنت مغفلاً وما لم أدركه بخصوص فتيات الطبقة الوسطى المفلسة أنهن يتزوجن أي شيء في بنطال كي يتخلصن من البيت فقط..

لم يمر وقت طويل حتى أخذتني هيلدا إلى البيت لأتعرف على عائلتها، ولم أكن أدري بوجود مستعمرة كبيرة

من الانغلوهنود في ابلينغ حيث تسنى لي اكتشاف هذا العالم الجديد تماماً. هل تعرف تلك العائلات الانغلوهندية؟ شبه مستحيل،متى ما دخلت بيوت هؤلاء الناس تحس وأنت في الشارع أن هذه هي انكلترا، وأنك في القرن العشرين لكن حالما تطأ قدمك عتبة مدخل أحد تلك البيوت ستشعر بأنك في الهند وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر. أثاث من خشب الساج المحفور والصواني النحاسية ورؤوس النمور المغبرة على الجدران وسيجار تريكينوبولي والمعاول الحمراء وصور الرجال الصفراء في الخوذ الشمسية والكلمات الهندوستانية التي يتوقع منك أن تفهم معناها والحكايات النادرة عن صيد النمور وأقوال سميث لجونز في 87. عالم صغير خلقوه لأنفسهم مثل كيسة قيح وهو كان ممتعاً وجديداً بالنسبة لي. والد هيلدا العجوز فينسنت لم يكن في الهند فقط، بل في بورنو أو ساروواك. لقد نسيت أيهما وكان من النوع العادي، فهو أصلع تماماً ولا يبان من وراء شاربيه كما أنه مخزن لحكايات الكوبرا والوشاح الأخضر وأقوال جابي المقاطعة عام ثلاثة وتسعين أما أم هيلدا فكانت بلا لون مثل الصور الباهتة التي على الجدران، أما ابنهم هارولد فيعمل رسمياً في سيلان. لقد كان في إجازة في الوطن حين قابلت هيلدا أول مرة. إنهم يقطنون في بيت صغير مظلم في شارع خلفي من الشوارع المدفونة في ايلينغ الذي تنبعث منه دائماً

رائحة الحيوانات البرية والسيجار التي لا تسمح لك بالحركة إلا بصعوبة. تقاعد العجوز فينسنت عام 1910 ومنذ ذلك التاريخ أبدى وزوجته نشاطاً ذهنياً وبدنياً مثل زوج من الصدفيات. كنت آنذاك معجباً بعائلة هيلدا بما فيها من رواد وعقداء وحتى أدميرالات، أما ما يخص موقفهم مني وموقفي منهم فهو درس ممتع عن حال الأغبياء عندما يكونون خارج عالمهم. فلو أنك وضعتني وسط التجار ومدراء الشركات والباعة الجوالين لاستطعت الحكم عليهم بشكل صحيح وعادل لكنني افتقر إلى الخبرة مع طبقة الضباط المأجورين ورجالات الدين، فكنت ميالاً للتزلف إلى هؤلاء المنبوذين المتعفنين واعتبرتهم أرفع مني في المنزلة الاجتماعية والثقافية، وهم بدورهم أساؤوا فهمي واعتبروني رجل أعمال ناجحاً وسوف أصبح غنياً في وقت تصير لأن الأعمال والتجارة هي لغز بالنسبة لهم سواء كانت تأميناً أم بيع مكسرات، وكل ما يعرفونه أنها شيء تافه يمكنك الحصول على المال منه. تكلم العجوز كثيراً عني كرجل أعمال، وواضح أنه لا يعرف الفرق بين الموظف وبين صاحب العمل، فطالما أنني أعمل في الفلايينغ سالامندرز فأنني سأرتقي إلى قمتها عاجلاً أم آجلاً وأعتقد أنه تخيل نفسه وهو يستدين مني المال في المستقبل. أما هارولد فإنني متأكد أنني رأيت ذلك في عينيه، وإنني حتى وأنا في وضعي المالي،

الحالي كنت سأقرضه لو ظل حياً لكنه مات بعد سنوات قليلة من زواجنا بسبب الحمى التيفية، كما مات أيضاً العجوزان فينسنت.

تزوجنا أنا وهيلدا لكنه كان فشلاً وإخفاقاً منذ البداية. لهذا تسأل لماذا تزوجتها ولماذا تزوجتك؟ طبعاً إنّ مثل هذه الأشياء تحدث. وإن كنت تصدّقني لقد فكرت بقتل هيلدا جدياً خلال السنتين أو الثلاث الأوائل لكن التفكير شيء والتطبيق أمر آخر. إنه نوع من التخيل يستمتع به الشخص، إضافة إلى إنّ كل الرجال الذين يقتلون زوجاتهم يلقى القبض عليهم دائماً، وعندما تقتل امرأة يكون المتهم الأول هو زوجها مما يعطي لمحة عما يعتقده الناس بالزواج.

إننا نعتاد الأشياء مع مرور الزمن، فبعد سنة أو سنتين أوقفت التفكير بقتل هيلدا واستبدلته بالتعجب منها. ساعات طويلة في أماسي الآحاد، وبعد أن أعود من العمل استلقي على السرير بكامل ثيابي ماعدا الحذاء متعجباً من النساء لماذا هن هكذا، وكيف يصبحن، وهل يفعلن هذا عن سابق تصميم وتصور؛ فتبدو لي السرعة المفاجئة التي تتحطم بها النساء جسدياً ومعنوياً بعد الزواج مخيفة جداً، وكأنهن متماسكات ومخصصات لعمل شيء واحد فقط، وبعد انجازه يذبلن كالزهرة التي تطرح بذورها. إنه الموقف الكئيب من الحياة، فإن كان الزواج عملية احتيال مكشوف توقعك المرأة

في فخه فإن ذلك لم يعد مهماً بالنسبة لي لا من قريب ولا من بعيد. تلتفت الزوجة إليك قائلة والآن أمسكت بك أيها اللقيط، ستعمل لحسابي بينما أنا استمتع بوقتي؛ فالزوجات لا يرغبن في الاستمتاع بالوقت إنما يفضلن النزول إلى أواسط العمر بأسرع ما يمكن بعد معركة رهيبة لإحضار رجالهن إلى المذبح ثم يسترخين وتتلاشى منهن الطاقة والشباب والنظرات ومتعة الحياة في ليلة وضحاها. هذا ما آلت إليه حال هيلدا إذ أضحت امرأة رثة الثياب مكتئبة جداً في منتصف عمرها. لا أنكر أنني كنت جزءاً من السبب لكن حتى لو أنها تزوجت من شخص آخر فلن تتغير النتيجة. اكتشفت ما كان ينقص هيلدا بعد أسبوع من زواجنا، وهو التلذّذ بالحياة والاهتمام بالأشياء لذاتها وعمل أشياء تحبها والاستمتاع بذلك بفعلها لكنها لم تفهم هذا. كوّنت فكرتي الأولى عن عائلات الطبقة الوسطى المتعفنة من خلال هيلدا، والحقيقة الجوهرية تكمن في جفاف جيوبهم بسبب عوزهم للمال، فهذه العائلات تعيش على معاشاتها التقاعدية أو الهبات السنوية القليلة جداً التي لا تزيد بل يمكن أن تقل، لذلك ينتابهم الشعور بالفقر الشديد وينظرون إلى الستة قروش أكثر مما تنظر إليها عائلة عامل مزرعة كعائلتي؛ ويكون عوز المال في أسوأ حالاته عند وجود أولاد في المدرسة، وعندما يكبرون خصوصاً الفتيات اللواتي تتأصل فيهن فكرة أن

الشخص ليس في حالة ضنك دائم بل يجب أن يكون تعيساً بسببه.

في البداية عشنا في بيت ذي غرف صغيرة. أذهب إلى عملي على نفقتي الخاصة وبعدها نقلت إلى بلشلي، فصارت الأوضاع أفضل، لكن موقف هيلدا من النقود لم يتبدل: فاتورة الحليب والفحم وإيجار البيت وإقساط المدرسة.قضينا كل حياتنا على نغمة سنصبح في الملجأ الأسبوع القادم.

لم تكن هيلدا أنانية حتى عندما تتوافر السيولة، وكنت أجد صعوبة في إقناعها لشراء بعض الثياب المناسبة لها كما يسيطر عليها الإحساس بوجوب إثارة القلق وخلق جو من البؤس بسبب الشعور بالواجب. أنا لست من هذا الصنف، وموقفي من النقود ليس كذلك، ويشبه موقف كل العمال، وأرى أننا يجب أن نعيش الحياة حتى لو واجهنا المأزق الأسبوع التالي الذي نعتبره مدة طويلة، وما يصدم هيلدا دائماً هو رفضي للقلق فتهاجمني دائماً: جورج يبدو أنك لا تدرك. ليس لدينا نقود إطلاقاً. شيء خطير، ثم تدخل في نوبة تقويس الكتفين ولف يديها على صدرها، ولو سجلت ملاحظاتها في قائمة ستخرج ثلاثة أشياء خارج قوسين: لا نستطيع أن ندفع، وتوفير عظيم، ولا أدري من أين سنأتي بالنقود. إنها تفعل أي شيء بطريقة سلبية، فإن صنعت كعكة لا تفكر بالكعكة بل بكيفية توفير الزبدة والبيض. وعندما نكون في السرير معاً كل

ما تفكر فيه الخوف من إنجاب طفل، أما أساليبها في تدبير المنزل فكانت بالتأكيد استهلاك الأشياء وجعلها تعمل وتدوم لأطول مدة ممكنة.

هيلدا غير متكبرة أيضاً ولم تحتقرني يوماً لأنني لم أكن من النبلاء بل على العكس فأنا أكثر من نبيل في سلوكي من وجهة نظرها، ولم نتناول وجبة في مشرب دون شجار عنيف هامس لأنني أعطيت النادلة بقشيشاً كبيراً. والغريب أنها في السنوات الأخيرة القليلة أصبحت أكثر انتماء إلى الطبقة الوسطى الدونية في الشكل والمضمون.بالطبع كل هذا التوفير لم ولن يؤدي إلى نتيجة. عشنا في المستوى نفسه من الجودة والسوء الذي عاشه الآخرون في إيلسيمير رغم الطهي على نار هادئة ومحاولاتها بالتوفير من فاتورة الغاز والحليب والزبدة وأحذية الأولاد وإقساط المدرسة، واستمرت هيلدا في الأمر وكأنه لعبتها.

انتقلنا إلى بلشلي واشترينا بيتاً في إيلسيمير في السنة التالية أي قبل ولادة بيلي بقليل، وأصبحت مفتشاً فصرت أكثر ابتعاداً عن البيت وتوافرت لي فرص أكثر مع نساء أخريات لكنني لم أكن خائناً، طبعاً ليس على الدوام، وعندما تتاح لي الفرصة؛ ومن الغريب جداً أن هيلدا لم تكن غيورة جداً لكنها مثل كل النساء تبدي أحياناً مكراً يفوق قدراتها المتوقعة فتجعلني أصدق مسألة التخاطر من خلال الطريقة

التي تمسكني بها حتى عندما أكون غير مذنب، فقد كانت شكاكة حتى عندما أكون بريئاً.

في السنوات الخمس الأخيرة كنت بريئاً تماماً وهذا هو حال بدين مثلي، وأعتقد أنني وهيلدا لم تتأثر علاقتنا مثلما حصل لنصف الأزواج في إيلسيمير. فكرت كثيراً في الانفصال عن هيلدا لكن في العادة لا تصل الأمور إلى الفعل، واستمرت مسيرة حياتنا، ومع مضي الزمن تخليت عن الصراع واستسلمت، فعندما تعيش مع امرأة خمسة عشر عاماً يكون من الصعب تخيل الحياة بدونها إذ تصبح جزءاً من نظام الأشياء، وأجرؤ القول إنك يمكن أن تعترض على الشمس أو القمر لكن هل تريد فعلاً تغييرهما إضافة إلى وجود الأولاد، فالأطفال صلة كما يقولون أو ارتباط إن لم أقل إنهم كرة وقيد.

أقامت هيلدا صداقات كبيرة خلال السنوات الأخيرة وأقواها كانت مع صديقتين مقربتين، الأولى السيدة ويللر والثانية الآنسة مينز. السيدة ويللر أرملة، واكتشفت مؤخراً أنها تحمل أفكاراً سيئة عن الذكور ولا تستحسن دخولي إلى الغرفة إذ أنها ترتجف عندما تراني. إنها امرأة صغيرة الحجم ذابلة، وفي رأسي انطباع بأن لها نفس اللون الرمادي لكنها مفعمة بالحيوية وتمارس تأثيراً سلبياً على هيلدا، كما أنّ لديها نفس الرغبة في توفير الأشياء ولكن بشكل مختلف

قليلاً، فهي ترى أنه بالامكان أن تستمع بوقتك دون أن تدفع شيئاً مقابل ذلك، وتتحدث دائماً عن صفقات وتسالي لا تكلف شيئاً، وأثناء موسم التنزيلات والحسومات في المحلات الكبيرة تكون السيدة ويللر على رأس الطابور وهي تفتخر بذلك، وبعد قتال حول طاولة البيع تخرج دون أن تشتري شيئاً. أما الآنسة مينز فهي نوع مختلف تماماً وتمثل حالة حزن سلبي حقيقية، فهي امرأة طويلة ونحيفة في الثامنة والثلاثين بشعر اسود ووجه يوحي بالثقة.تعيش على دخل ثابت من التأمينات. وهي من بقايا مجتمع بلشلي القديم عندما كانت بلدة ريفية صغيرة قبل أن تكبر الضاحية. ويبدو عليها أن والدها كان قساً وقد وبخها كثيراً في حياته، وهما منتج جانبي خاص من الطبقات الوسطى. تلك النسوة اللواتي يتحولن إلى أكياس ذبلة قبل أن ينجحن في النجاة من البيت. لا تزال الآنسة المسكينة العجوز بكل تجاعيدها تبدو طفلة تماماً، ولا يزال عدم الذهاب إلى الكنيسة مغامرة كبيرة عندها. إنها تثرثر دائماً عن التقدم الحديث والحركات النسائية وتملأها لهفة غامضة لفعل شيء ما لتنمية عقلها لكنها لا تعرف من أين تبدأ، وأعتقد أنها لصقت بهيلدا وويللر بسبب العزلة المطلقة ولأنهما تأخذانها أينما تذهبان.

كن يمضين وقتاً طويلاً مع بعضهن إلى حد أنني حسدتهن تقريباً على ذلك مرات ومرات. فالسيدة ويللر هي

القائدة الروحية التي نجرجرهما إلى بلاهات يتعذر تسميتها من فلسفة اللاهوت إلى ولادة القطط بشرط أن تكون مجانية، وكن يذهبن إلى طباخين مهووسين، ولقد التقطت السيدة ويللر مرة كتاباً يدعى الطاقة المشعة الذي ورد فيه امكانية العيش على الخس وأشياء أخرى لا تكلف نقوداً مما جذب هيلدا، وبدأت بتجويع نفسها وحاولت تجريب ذلك على الأولاد لكن اعتراضي حال دون ذلك. ثم ترددن إلى العلاج الإيمائي وعلاج تمارين الذاكرة وبعد مراسلات كثيرة اكتشفن عدم قدرتهن في الحصول على الكتيبات مجاناً؛ ثم كانت فكرة السيدة ويللر عن طبخ علب التبن ومادة قذرة أخرى تدعى خمر النمل الذي لا يكلف شيئاً لأنه مصنوع من الماء، لكنهن أهملن الفكرة بعد أن قرأن مقالاً في إحدى الجرائد يتحدث بأن خمر النمل يسبب السرطان، بعدها انضممن إلى نادٍ نسائي يدير رحلات إلى المصانع. لكن السيدة ويللر قررت أن الشاي المجاني الذي تقدمه المصانع لا يساوي الاشتراك، كما نجحت ويللر في التنقيب عن معرفة شخص يعطي بطاقات مجانية تصدرها جمعية للمسرح، فكن يجلسن ساعات طويلة للاستماع إلى مسرحيات خاصة بالمثقفين دون أن يفهمن كلمة واحدة ولا يقدرن حتى على قول اسم المسرحية بعد انتهاء العرض، لكنهنّ يشعرن أنهن يحصلن على شيء مقابل لا شيء؛ ومرة ذهبن إلى الروحانيين بعد أن

صادفت السيدة ويللر شخصاً منبوذاً يعمل وسيطاً روحياً بين عالم الأحياء وعالم الأرواح، حيث تكلف الجلسة ثمانية عشر بنساً لها ولرفقتيها ليتمكنَّ من رؤية ما وراء الحجاب (الغيب). ولقد رأيته مرة في بيتنا عندما جاء للقيام بجلسة استحضار. لقد كان شريراً، أما منظره فمهلهل ويسيطر عليه رعب قاتل من الهذيان الذي يصيب مدمني الكحول. ارتجف وهو يخلع معطفه وتشنجت أصابعه فسقطت حلقة من الخيوط القطنية من سرواله وهي المادة التي تصنع منها الهيولى ونجحت في رميها له قبل أن تراها النسوة وأظنه كان ذاهباً إلى جلسة أخرى بعد تلك. وكان آخر اكتشافات السيدة ويللر في السنوات الأخيرة هو نادي الكتاب اليساري عام 1936 عندما وصلت أخباره إلى بيلشلي. انضممن إليه فوراً وكانت المرة الوحيدة التي صرفت فيها نقوداً دون أن تحتج هيلدا لأنها رأت أن شراء كتاب بثلث ثمنه الحقيقي عمل مربح. إنّ موقف تلك النسوة غريب فعلاً!. حاولت الآنسة مينز أن تقرأ كتاباً أو أثنين وهو ما لم يخطر ببال الاثنتين الأخريين، ولم يكن لديهن أي رابط مباشر بنادي الكتاب أو أي فكرة عن ماهيته. وأعتقد أن السيدة ويللر ظنت في بادئ الأمر أنه يمكنها أن تفعل شيئاً بالكتب المجانية المتروكة في عربات القطار لكنهن عرفن فيما بعد أن ثمن الكتاب ستة بنسات بدلاً من نصف جنيه فاعتبرن ذلك شيئاً جيداً. بين الحين والآخر

يعقد نادي الكتاب اجتماعات ويسمح للناس بإلقاء الخطب فكانت السيدة ويللر تأخذهن دائماً ولديها حماس للاجتماعات العامة أياً كان نوعها شرط أن تكون داخل البيوت ويكون الدخول مجانياً فيجلسن مثل كتل الحلوى ولا يعرفن شيئاً عما يدور في الاجتماع ولا يهمهن ذلك. لديهن شعور مبهم وخصوصاً الآنسة مينز أنهن يطورن عقولهن دون أن يدفعن شيئاً.

هذه هي هيلدا، وعلى العموم أعتقد أنها ليست أسوأ مني. وفي بداية زواجنا شعرت أحياناً أنني أودّ خنقها لكن لم أعد أهتم بعد أن أصبحت بديناً واستقريت، وذلك في عام 1930 عندما سمنت فجأة وكأن قذيفة مدفع ضربتني والتصقت في داخلي. كيف يكون شعورك عندما تنام في إحدى الليالي وأنت شاب وعيونك على الفتيات وتستيقظ في الصباح التالي بشعور تام بأنك عجوز سمين مسكين وليس أمامك سوى الكد المضني وخروج الأحشاء لتشتري أحذية لأولادك.الآن نحن في عام 1938 في مكان مخصص للترميم حيث يرشمون السفن الحربية استعداداً لحرب أخرى، لقد صدف أن رأيت اسماً على ملصق صورة حرّك في داخلي كل هذا القدر من الأشياء الميتة منذ سنين مضت.

القسم الثالث

1

عندما رجعت إلى البيت في ذلك المساء كنت لا أدري كيفية صرف الجنيهات السبعة عشر. قالت هيلدا إنها ذاهبة إلى نادي الكتاب اليساري لتحضر محاضرة يلقيها رجل قادم من لندن؛ ولا أريد أن أذكر بأن هيلدا لا تعرف موضوع المحاضرة، فأخبرتها بأنني سأذهب معها رغم كرهي للمحاضرات عموماً لكن رؤى الحرب التي تملكتني في الصباح ومنظر الطائرة القاذفة التي حلقت فوق القطار أدخلاني في مزاج من التأمل والتفكير. وضعنا الأولاد في أسرّتهم باكراً بعد جدلهم المعتاد، وذهبنا في الوقت المحدد للاستماع إلى المحاضرة المقررة عند الساعة الثامنة.

كان المساء مغبراً والقاعة باردة وغير مضاءة جيداً إنها قاعة خشبية ذات سقف قصديري لإحدى الطوائف المنشقة الرخيصة. اجتمع فيها حوالى خمسة عشر شخصاً وفي مواجهة

المنبر ملصق جداري كتب عليه موضوع المحاضرة الذي لم يدهشني إطلاقاً (خطر الفاشية). ترأس الجلسة السيد ويت شيت الذي يعمل في مكتب مهندس معماري، فقام بتقديم المحاضر للكل بأنه السيد فلان، العدو المشهور للفاشية بطريقة تشبه تقديم عازفي الاورغ المشهورين. ولقد كان المحاضر صغير الحجم في الأربعين يلبس بدلة سوداء ولقد حاول فاشلاً إخفاء رأسه الأصلع بخصلات من شعره.

لا تبدأ مثل تلك الاجتماعات في الوقت المحدد عادةً، إذ هناك دائماً فترة من التأجيل والتظاهر بحجة ما على أمل حضور بعض الناس.كانت الساعة الثامنة وخمساً وعشرين دقيقة عندما نقر ويت شيت على الطاولة وبدأ لغوه. وويت شيت هذا رجل مقبول الشكل ذو وجه قرنفلي يشبه وجوه الأطفال تعلوه ابتسامة دائمة ومن جهتي أعتقد أنه سكرتير الحزب الليبرالي المحلي وعضو في المجلس المحلي ويرأس أمسيات محاضرات المصباح السحري لاتحاد الأمهات. ويمكن القول إنه ولد ليكون رئيس جلسات، كما يمكنك أن ترى الصدق في عينيه. أخرج المحاضر رزمة من الأوراق أكثرها قصاصات جرائد، وثبتها تحت كأس الماء، وبدأ المحاضرة بلعق شفتيه والقصف الكلامي، فهل ذهبت إلى المحاضرات العامة؟ عندما أذهب إلى واحدة منها أجد نفسي،كما في هذا المساء، أفكر بذات الفكرة، لماذا يفعل هذا؟ ولماذا يخرج الناس من بيوتهم في

ليل شتوي؟ نظرت في أرجاء الصالة وكنت في الصف الأخير، ولا أتذكر أبداً أنني حضرت اجتماعاً عاماً دون أن أكون في الصف الأخير إن أمكنني ذلك بينما هيلدا والآخرون حشروا أنفسهم في المقدمة كالعادة . كانت الصالة صغيرة وكئيبة وجدرانها صنوبرية قاتمة مع سقف معدني مضلّع وتيار هواء بارد يلزمك البقاء في معطفك بالإضافة إلى مجموعة صغيرة تحلّقت حول المنبر في الضوء وهناك إلى الخلف حوالى الأربعين صفاً من المقاعد الفارغة. كانت أرضية المقاعد صغيرة وعلى المنبر خلف المحاضر هناك شيء مربع ضخم مغطى بممسحة مثل كفن ضخم، إنه بيانو.

لم أصغِ جيداً في البداية، حيث كان المحاضر ضئيل الحجم أما شكله فمزرٍ، لكنه متكلم جيد، وجهه أبيض وفمه سريع الحركة ويتمتع بصوت جهوري من كثرة الكلام في اللقاءات والاجتماعات. كان يشتم النازية وهتلر ولم أسمع ما قاله لأنني لم انتبه لأننا كنا نقرأ نفس هذا الهراء في جريدة نيوز كرونكل كل صباح، وكان صوته يصلني على شكل غير مفهوم (بر بر بر) وكانت تأسرني عبارة من حين لآخر،مثل الوحشية والبهيمية والنوبات الشنيعة من السادية والعصي المطاطية ومعسكرات الاعتقال والاضطهاد الجائر لليهود والعودة إلى عصور الظلام والحضارة الأوروبية قبل أن يفوت الأوان، كذلك إذلال كل الشعوب المحترمة وتحالف الأمم

الديمقراطية وموقف ثابت والدفاع عن الديمقراطية، ديمقراطية.... فاشية..... ديمقراطية..........

استمتعت برؤية هذا الرجل التافه ذي الوجه الأبيض والرأس الأصلع وهو واقف على المنبر يطلق الشعارات. ماذا يفعل؟ إنه يثير الكراهية عامداً وبشكل صارخ، وبصراحة مطلقة باذلاً أقصى جهده لجعلك تكره بعض الأجانب الذين ينعتهم بالفاشيين. غريب جداً منطق هذا السيد المشهور، فلقد أصبحت معاداة الفاشية صنعة ومهنة غريبة، فماذا كان يعمل قبل مجيء هتلر، وماذا سيفعل إن اختفى هتلر؟ وخطرت ببالي فكرة أخرى. إنه يعني ما يقوله ولا يزيف أي كلمة يقولها، فهو يحاول أن يثير كره المستمعين الذي لا يقارن بالكره الذي يضمره هو، وكل شعار أطلقه كان حقيقة مقدسة عنده، ولو نظرت في داخله لوجدت ديمقراطية.... فاشية..........

ممتع معرفة ما يفعله هذا الرجل ومن هم على شاكلته في حياتهم الخاصة، وتساءلت إن كانت له واحدة أم أنه يتجول من منبر إلى آخر مطلقاً شعاراته ومثيراً الكراهية؟

ألقيت نظرة على المستمعين، وفكرت بهم بقدر ما استطعت. نحن خرجنا من بيوتنا في ليلة شتوية باردة لنسمع محاضرة هادفة ولها غرض واحد، يديرها نادي الكتاب اليساري وأنا معني لأنني واحد من الحضور هذه المرة. خطر

بالي وأنا أنظر إلى المستمعين الذين فهم نصفهم محور المحاضرة بينما النصف الآخر لم يفهم شيئاً رغم أن المحاضر ظل يشتم هتلر والنازية أكثر من ساعة.

جلس ويت شيت بجانب طاولة المحاضر وكان يراقبه وعلت وجهه ابتسامة صفراء فبدا مثل نبات إبرة الراعي حيث يمكنك معرفة ما سيقوله في خطابه مسبقاً لأنه الخطاب نفسه الذي ألقاه في نهاية محاضرات المصباح السحري لإعانة بناطيل اميلا ديزاين، وهو تعبير عن الشكر والإفصاح عن رأي الجميع والمساء الأكثر إثارة.

جلست الآنسة مينز منتصبة ورأسها مائل قليلاً كالعصفور. تناول المحاضر ورقة من تحت قدح الماء وبدأ بقراءة إحصائيات عن معدل الانتحار في ألمانيا، ويمكنك أن تلاحظ من خلال رقبة الآنسة مينز عدم ارتياحها وتساؤلها إن كان هذا يساعد في تحسين عقلها أم لا، وتمنت لو تعرف عما تدور حوله المحاضرة. أما الاثنتان الأخريان فجلستا كقطعتين من الحلويات وبجانبهما امرأة ذات شعر احمر تحيك سترة بدون رسوم؛ وتمتم اثنان واحد اثنان واحد ثم واحد اثنان معاً. كان المحاضر يصف كيف كان النازيون يقطعون رؤوس الناس بتهمة الخيانة العظمى، وكيف كان الجلاد يطلق طلقة وهمية أحياناً. من بين المستمعين امرأة ذات شعر اسود وهي إحدى معلمات المدرسة المحلية، إنها

بخلاف الأخريات بدت مستمتعة في الصف الأول ومثبتة عينيها السوداويين الكبيرتين باتجاه المحاضر بفم مفتوح كأنها تريد شرب المحاضرة كلها. خلفها مباشرة يجلس رجلان عجوزان من حزب العمال أحدهما بشعر رمادي قصير جداً والثاني أصلع الرأس وبشارب متدلٍ يلبسان معطفيهما وهم أعضاء في الحزب منذ 1900. ولقد ضحيا بعشرين سنة من حياتهما في سبيل الحركة وسجلا في القائمة السوداء. كذلك قضيا عشر سنوات أخرى يطالبان المجلس بفعل شيء للأحياء الفقيرة القذرة، أما الآن فتبدل كل شيء فجأة ولم يعد يهتم الحزب بهذه التفاهات القديمة لتورطه في السياسة الخارجية وهتلر وستالين والمقابر الجماعية والبنادق الرشاشة والعصي المطاطية ومحور روما برلين والجبهة الشعبية والحلف المعادي للكومنترون وأشياء لا معنى لها.

جلس أمامي مباشرة ثلاثة شبان من أعضاء الحزب الشيوعي المحلي، الأول غني ويعمل في هيسبريدز العقارية وأظن أنه ابن أخ كروم والثاني يعمل موظفاً في أحد البنوك وكان قد صرف لي بعض الشيكات، أما الثالث فولد نظيف ذو وجه مستدير، عيناه زرقاوان كالطفل. له شعر أشقر كأنه مصبوغ ويبدو في السابعة عشرة رغم تجاوزه العشرين. كان يرتدي بذلة زرقاء وربطة عنق براقة ومن ذات اللون تتناسب مع شعره، وكان بمحاذاتهم شيوعي آخر لكنه يبدو مختلفاً عن

سابقيه، فهو من النوع غير المسالم والهادئ، إنه من التروتسكيين. إنه أصغر عمراً منهم، نحيل جداً وأسمر جداً، إنه عصبي يوحي وجهه بالذكاء وهو يهودي طبعاً. أخذ هؤلاء الأربعة المحاضرة بشكل مختلف عن الآخرين ووقفوا على أقدامهم فور بدء فترة الأسئلة وساد الجو بعض التوتر فتململ التروتسكي في جلسته وخاف ألّا يصل المنصة قبل الآخرين.

توقفت عن سماع كلمات المحاضر الذي يمكنه الاستمرار في الكلام لمدة شهر دون توقف. شيء فظيع! كأنه أورغ بشري يطلق نفس الدعايات عليك على مدار الساعة المرة تلو الأخرى مكرراً الكره.. الكره .. لنكره أكثر وأكثر حتى تشعر أن شيئاً ما دخل إلى جمجمتك وهو يطرق على دماغك بقوة. غمضت عينيّ للحظة وتلبت الطاولة عليه فدخلت إلى جمجمته لمدة ثانية، فشعرت بما كان يحتمل في نفسه؛ ويمكنك القول إنني كنت هو ورأيت ما يراه. رؤى فظيعة لا يمكن الإفصاح عنها أبداً. إن ما قاله عن ملاحقة هتلر لهم وعن ضرورة الاتحاد لمواجهته وأن نكرهه جداً دون الدخول في التفاصيل شيئ محترم وما كان يراه مسألة مختلفة جداً. حطم وهشم واضرب في المنتصف تماماً واحداً وواحداً آخر. إنها صورة لنفسه وهو يحطم وجوه الناس بمفاتيح الربط - طبعاً وجوه الفاشيين- تجاويف عظمية مثل قشرة البيض ووجوه تتحول في ثانية إلى لطخة كبيرة من مربى الفراولة.

هذا ما رأيته في دماغه ومشيه ونومه، وكلما أفكّر فيه أكثر أحبه أكثر، وطالما أن الوجوه المهشمة نازية فلا ضير من ذلك. لكن ما هو سبب ذلك وما هو التفسير؟

إنه الخوف الذي يملأ قلب كل شخص عاقل والذي يرى أبعد مما يراه الآخرون، لهذا هو خائف أكثر منهم. هتلر يطاردنا! أسرعوا! امسكوا بمفاتيح الربط ولنتحد كلنا، هشموا وجوهاً أكثر لتحافظوا على وجوهكم من التهشم وتعصبوا وتحزبوا واختاروا قادتكم. هتلر أسود وستالين أبيض ويمكن أن يكونا العكس في عقل الشاب فكلاهما يعنيان مفاتيح الربط والوجوه المحطمة.

بدأت أفكر في الحرب التي اندلعت ، الحرب القادمة والمؤكدة وأسأل من هو الخائف من الحرب؟ أقصد الخائف من القتال والبنادق الآلية؟ إنه أنت وكل من رآها، وليست الحرب هي الوحيدة المهمة فقط بل ما بعد الحرب، ذلك العالم الذي سننحدر إليه. عالم الكره والشعارات والقمصان الملونة والأسلاك الشائكة؛ عالم الزنزانات السرية المظلمة والمخبرين الذين يراقبونك حتى في نومك والمواكب والملصقات والحشود المؤلفة من ملايين الناس التي تهتف للقائد مظهرين حبهم لكنهم يكرهونه في باطنهم لدرجة التقيؤ. هل سيحدث ذلك؟ هل توافقني؟ أحياناً أرى أن الأمر مستحيل وأحياناً أخرى أراه محتماً لكن في هذه الليلة كنت

متأكداً بأنه سيحدث ولا محالة. هذا هو معنى خروج تلك المجموعة الصغيرة من بيوتها في ليلة شتوية باردة للاستماع إلى محاضرة من هذا النوع، وهؤلاء الأشخاص الخمسة أو الستة من الحضور الذين استوعبوا فحوى المحاضرة هم القواعد المتقدمة والمخافر الأمامية لجيش جرار، إنهم ذوو بصيرة ثاقبة مثل الجرذان التي تكتشف غرق السفينة. مفاتيح الربط جاهزة يا أولاد، حطموا الآخرين قبل أن يحطموكم. إنهم مرعوبون جداً من المستقبل الذي سنقفز إلى جوفه مثل أرنب يسقط في فم ثعبان ضخم. لكن ماذا سيحدث لرجال مثلي إن كانت هناك فاشية في انكلترا؟ في الواقع لن يكون هناك أي اختلاف لكنها ستشكل فرقاً كبيراً بالنسبة للمحاضر والشيوعيين الأربعة المستمعين، فهم إما أن يحطموا وجوه الآخرين أو تتحطم وجوههم ويعتمد ذلك على من سيربح. أما الرجال العاديون من أمثالي فسيستمرون كالمعتاد. رغم هذا فان الحرب تخيفني وأؤكد لك أنها تخيفني وسألت نفسي عن السبب عندما توقف المحاضر وجلس.

ساد صوت أجوف ثقيل معتاد بعد التصفيق الذي تسمعه عندما لا يوجد في القاعة سوى خمسة عشر شخصاً. بعدها ألقى ويت شيت مقطوعته وقبل أن يقول جاك روبنسون وقف الشيوعيون الأربعة على أقدامهم ودخلوا في جدل جماعي استمر عشر دقائق بهراء لم يفهمه أحد عن المادية

الدياليكتيكية ومصير الطبقة العاملة وما قاله لينين عام 1918؛ ثم نهض المحاضر بعد أن تناول جرعة من الماء ولخّص المحاضرة مما ترك ألماً عند التروتسكي جعله يتلوى في مقعده بينما ارتاح الثلاثة الآخرون. لكن الموضوع استؤنف ثانية بشكل غير رسمي ولفترة أطول ولم يتكلم أحد من الحاضرين وانصرفت هيلدا والأخريات خوفاً من أن يكون هناك تأمين بدل إيجار القاعة. أما المرأة ذات الشعر الأحمر فاستمرت في حياكتها وهي تردد درزاتها بصوت مسموع، وجلس ويت شيت يدون ملاحظات شفرية، أما الفتاة ذات الشعر الأسود فكانت تنقل نظرها من شخص إلى آخر بفم مفتوح بينما الرجل العجوز الذي بدا مثل الفقمة بشاربه المتهدل ومعطفه المرفوع حتى أذنيه أخذ ينظر إليهم مستغرباً عن سبب هذا كله. أخيراً نهضت وارتديت معطفي وتحول الجدال الجماعي إلى جدال خاص بين التروتسكي الصغير والولد ذي الشعر الأشقر حول الانضمام إلى الجيش أو عدمه في حالة اندلاع الحرب. شقيت طريقي بمحاذاة أحد الصفوف لأخرج عندما هتف لي ذو الشعر الأشقر قائلاً:

- سيد بولينغ انتبه من فضلك. أنظر هنا، إن اندلعت حرب وتوافرت لك الفرصة لتحطيم الفاشية نهائياً فهل تحارب؟ أقصد لو كنت شاباً.

أعتقد أنه ظن أنني في الستين.

– أنت تراهن بأنني لن أقاتل لكن لدي ما يكفي من تجربة الحرب فقد اشتركت في الحرب الأخيرة .

– لكن هذه المرة لتحطيم الفاشية.

– أوه الفاشية، لقد سبب الكثير من التحطيم والدمار سابقاً.

قاطعني التروتسكي الصغير بالوطنية الاشتراكية وخيانة العمال لكن الآخر قاطعه قائلاً:

– إنك تفكر في عام 1914 وتلك كانت حرباً امبريالية، أما هذه المرة فهي مختلفة، أنظر إلى ما يحدث في ألمانيا من معسكرات اعتقال وضرب النازيين للناس بالعصي المطاطية وإجبار اليهود على البصق في وجوه بعضهم بعضاً ألا يجعل هذا دمك يغلي؟

يرددون غليان الدم دائماً وهي ذات العبارة التي سمعناها في الحرب الأولى.

– أنا تركت الغليان منذ عام 1916 وستتركه أنت عندما تعرف رائحة الخنادق!

وفجأة رأيته جيداً وكأنني لم أره إلا في هذه اللحظة: وجه صبي وسيم بعيون زرقاء وشعر مسترسل حدّق بعينيّ لحظة والدموع تملأ عينيه ولقد عرفت بماذا كان يشعر. إنه صبي ضخم الجثة وربما يلعب الركبي لصالح البنك وذكي، يجلس وراء الطاولة خلف الزجاج المبرغل يدخل الأرقام في

الدفتر الأساسي ويعدّ أكوام النقود المعدنية ويتزلف إلى المدير، ويشعر بأن حياته تتعفن، وفجأة تعبث كل هذه الفوضى في أوروبا. قذائف تنفجر فوق الخنادق وموجات من المشاة تهجم عبر سحابات من الدخان وهم يحشون بنادقهم، وربما سيحارب بعض أصدقائه في اسبانيا ويتوق للمحاربة معهم ولا نستطيع أن نلومه على ذلك. انتابني شعور للحظة بأنه ابني، وبمنطق الستين يكون ذلك ممكناً، وفكرت بالأيام الحارة التي تسبب الإغماء في شهر آب (أغسطس) عندما علّق صبي الجرائد الملصق على الواجهة:

انكلترا تعلن الحرب على ألمانيا فاندفعنا إلى الرصيف هاتفين ومهللين.

- اسمع يا بني إنك تفهم الأشياء بشكل خاطئ، لقد توهمنا في عام 1914 بأنها حرب مختلفة وأنها عمل مجيد لكنها في الحقيقة لم تكن كذلك، وإنما كانت فوضى قذرة، ولو حدثت ثانية سأبتعد عنها فلماذا سيملأ الرصاص جسدك؟ ابتعد عنها من أجل فتاة ما ولا تظن أن الحرب مجرد بطولات ومهمات وأوسمة لكني أؤكد لك أنها ليست كذلك، وإن اندلعت فلن تكون كما تتخيل ولن تشعر بأنك بطل ولن تذوق طعم النوم أياماً وستتعفن مثل ابن عرس وتتبول في سروالك من الخوف وتعجز عن حمل بندقيتك بيديك الباردتين. لن تترك أي أثر بالطبع وسيعتبرونك منقرضاً أو

ربما تقف بباب أحد المحلات تعتل الأجهزة . لكن كل هذا لا يقارن بما سيحدث بعد الحرب.

بدأ الناس بالانصراف وغادر ويت شيت المحاضر إلى بيته بينما سار الشيوعيون الثلاثة ومعهم اليهودي لكنهم عادوا ثانية إلى التضامن العمالي والديالكتيك وما قاله تروتسكي عام 1917 ولا عجب فهم متشابهون!

كانت ليلة مظلمة جداً وماطرة حيث بدت المصابيح المعلقة التي تضيء الشارع كالنجوم، وسمعت من بعيد دوياً على طول الطريق الدولي. كانت تتملكني رغبة في أن احتسي شيئاً لكن الساعة تجاوزت العاشرة وأقرب حانة تبعد نصف ميل إضافة إلى أنني كنت بحاجة إلى شخص أتحدث إليه في قضايا هامة ليست الحانات مكانها المناسب.

وإنه لمن المضحك أن دماغي كان نشيطاً طوال اليوم، وذلك عائد إلى عدم ذهابي إلى العمل، وإلى أسناني الاصطناعية الجديدة التي كان لها دور في تحسّن وضعي بشكل أو بآخر. وهكذا أمضيت اليوم كله مفكراً في الماضي وكذلك في المستقبل الآتي. أردت التكلم عن الزمن الصعب والرديء الذي قد يأتي أو لا يأتي، وعن الشعارات والقمصان الملونة والرجال المنظمين في أوروبا الشرقية الذين سيهصرون جوف انكلترا العجوز. إن التحدث مع هيلدا محاولة يائسة، لهذا خطر لي الذهاب إلى صديقي العجوز

بروثيوس الذي يظل مستيقظاً حتى وقت متأخر. بروثيوس هذا مدرّس متقاعد يسكن في الدور الأرضي من بيت في القسم القديم من البلدة قرب الكنيسة؛ كما أنه أعزب ووحيد مع كتبه وغليونه ولديه امرأة تقوم بأعمال البيت. إنه ملمّ باللغتين الإغريقية واللاتينية وكذلك في الشعر، وإن كان نادي الكتاب اليساري يمثل التقدم فان برثيوس يمثل الثقافة، وكلاهما غير نافعين في بلشلي.

كانت غرفة العجوز بروثيوس الصغيرة مضاءةً حيث كان يجلس ويقرأ طيلة ساعات الليل. نقرت الباب بهدوء فجاء متهادياً ببطء كعادته واضعاً غليونه بين شفتيه وأصابعه داخل الكتاب ليحافظ على مكان الصفحة حيث كان يقرأ. إنه رجل ذو طلعة جذابة وشعر رمادي مجعد ووجه نحيل حالم باهت اللون صبياني، على الرغم من أنه في الستين من عمره؛ ومما يثير الضحك هو نجاح بعض مدرّسي المدارس والجامعات في المحافظة على الظهور بمظهر الأولاد إلى يوم مماتهم، ويتجلى ذلك في حركاتهم. فلدى العجوز بروثيوس طريقة في المشي ذهاباً وإياباً بوجهه الوسيم وشعره المجعد فيتراجع إلى الوراء كأنه يحلم بقصيدة دون أن يشعر بما حوله، ولا يمكنك النظر أليه دون أن تدرك أنه عاش في مدرسة أكسفورد لكن أخيراً عاد إلى مدرسته القديمة. حياة كاملة عاشها في جو من الاغريقية واللاتينية ولعبة الكريكت والسلوك المميز؛ وله طريقة

في ارتداء ملابسه، اذ يرتدي دائماً سترة صوفية ثمينة- اولد هاريس- وسروالاً رمادياً، يدخن الغليون ويحتقر السجائر. وعلى الرغم من بقائه ساهراً حتى منتصف الليل إلا أنه يستحم كل صباح بالماء البارد. وكان رأيه فيّ، على ما أعتقد، أنني شخص مرح وقليل التهذيب نوعاً ما، فأنا لم ألتحق بمدرسة خاصة ولا اعرف اللاتينية، وكان يقول لي إنني لا أتأثر بالجمال، وهو المرادف الآخر للقول إنني غير متعلم. رغم هذا فأنا أحبه، وهو مضياف على أكمل وجه ومستعد دائماً لاستقبال الضيوف والتحدث ساعات طويلة وتقديم الشراب الذي يكون في متناول اليد. عندما تسكن في بيت مثل بيتنا وترزح تحت عبء زوجة وأولاد يصبح من المستحسن الخروج إلى جو العزوبية حيث لا تشعر بأهمية شيء سوى الكتب والشعر والتماثيل الإغريقية، إذ لا شيء يستحق الذكر منذ أن غزا القوطيون روما. يا لها من راحة!

أجلسني على مقعد جلدي بجانب الموقد، وقدم لي الويسكي والصودا. لم أرَ غرفة جلوسه دون أن تكون معتمة بدخان غليونه، فالسقف اسود والجدران مغطاة بالكتب من الأرض إلى السقف ماعدا الباب والنوافذ وفوق الموقد، ويمكنك أن تجد أي شيء تتوقعه على خزانة أدوات المطبخ، فهناك صف من الغلايين القديمة المتسخة ومصباح فخاري حفره وأخرجه من صقلية بنفسه، وصور لتماثيل إغريقية

بأجنحة ورؤوس مقطوعة ومسرعة كأنها تحاول اللحاق بحافلة. وأتذكر كم اندهش العجوز بروثيوس عندما سألته، دون دراية، لماذا لم يضعوا لها رؤوساً.

بدأ بروثيوس بملء غليونه من مطربان على الخزانة وقال متذمراً بأن المرأة التي لا تطاق والتي تسكن القسم العلوي اشترت مذياعاً وكان أملي في أن أعيش ما تبقى من حياتي بمعزل عن ضجيج هذه الأشياء. هل تظن أننا نستطيع فعل أي شيء معها؟ وهل تعرف الوضع القانوني؟ أخبرته بأننا لا نستطيع فعل أي شيء، لكني أعجبت بطريقته الأكاديمية في قوله (لا تطاق)، وأضحكني وجود إنسان في عام 1938 يعترض على وجود مذياع في البيت. كان بروثيوس يتمشى ذهاباً وإياباً بطريقته المعتادة واضعاً يديه في جيوبه وبهيئته الحالمة، وبدأ حديثاً عن قانون ما ضد الآلات الموسيقية في أثينا في عهد بيركليز؛ الأمور دائماً هكذا مع بروثيوس، فكل أحاديثه تدور عن أشياء وقعت منذ قرون، وكيفما بدأت الحديث يعود إلى التماثيل والشعر والإغريق والرومان، فإن ذكرت الملكة فيكتوريا يخبرك عن السفن الفينيقية ذات الثلاثة مجاديف.

إنه لم يقرأ أي كتاب حديث، ويرفض معرفة حتى أسماءها، ولم ينظر قط إلى أي جريدة سوى التايمز، ويفخر بأنه لم يذهب إلى السينما أبداً، ويعتبر الألفي سنة الأخيرة

كلها عالماً حديثاً ويستثني منها بعض الشعراء أمثال كيتس ووردسويرث.

أنا جزء من العالم الحديث لكنني أحب سماع ما يقول وهو يتمشى حول الرفوف حيث يخرج كتاباً تلو الآخر، وبين الحين والحين يقرأ لك قطعة وسط نفثات دخان غليونه يكون قد ترجمها عادة من اللاتينية، أو يقوم بمهمة القراءة أثناء مشيه. إنه نوع مسالم ورقيق، معلّم مدرسة نموذجي، يريحك الاستماع إليه ويبعدك عن عالم الترامات وفواتير الغاز وشركات التأمين، إلى عالم كله معابد وأشجار زيتون وطواويس وفيلة ورجال بشباكهم ورماحهم ذات الرؤوس الثلاثية، وأسود مجنحة ومشانق وآلات منجنيق وجنرالات وقادة في دروع نحاسية تدوس خيولهم فوق تروس الجنود؛ لهذا من السخف أن يصادق وينسجم مع رجل مثلي، لكن من ايجابيات الرجل السمين القدرة على التأقلم في أي مجتمع، بالإضافة إلى أننا نلتقي في شيء مشترك يتعلق بالقصص الخليعة، وهي الشيء المستجدّ الوحيد الذي يهتم به رغم أنه يذكرني دائماً أنها ليست حديثة لكنه في الحقيقة كان غرّاً في هذا المجال. فكان يحكي لي دائماً قصة ولكن بطريقة مستورة، وأحياناً ينتقي شاعراً لاتينياً ويترجم أشعاراً بذيئة تاركاً الكثير لخيالك، أو يلمّح إلى حياة أحد الأباطرة الروم الخاصة والأشياء التي حدثت في معبد عشتار، ويبدو

أن هؤلاء الرومان والإغريق كانوا فاسقين جداً. كذلك لدى العجوز بروثيوس لوحات زيتية جدارية لمكان ما في ايطاليا يقف لها شعر الرأس.

عندما أملّ الشغل وحياة البيت يفيدني كثيراً الذهاب إلى بروثيوس لأتحدث معه، لكن هذه الليلة لا تبدو كمثيلاتها إذ لا يزال تفكيري منشغلاً، ومثلما فعلت في محاضرة نادي الكتاب اليساري لم أكن أصغي إلى بروثيوس. كنت أسمع صوته فقط الذي لم يدخل تحت جلدي بعكس صوت المحاضر. كان هادئاً جداً واكسفوردياً تماماً، وأخيراً وعندما كان في سياق قوله حول شيء ما صفّقت وقلت:

- أخبرني يابروثيوس عن رأيك بهتلر.

اندهش جداً وأخرج غليونه من فمه.

- أتقصد هتلر ذلك الرجل الألماني؟ أنا لا أفكر فيه يا صديقي العزيز.

- لكن المشكلة أن هذا الساقط هو الذي يجبرنا أن نفكر فيه قبل أن يموت.

خجل العجوز بروثيوس من كلمة (ساقط) وتابع مشيه ونفث دخانه:

- أنا لا أرى سبباً للاهتمام به، إنه مجرد مغامر، وأمثال هؤلاء يأتون ويروحون، إنهم مؤقتون جداً.

لم أكن أعرف معنى مؤقتين لكنني تشبثت برأيي.

- أعتقد أنك مخطئ؛ لأن هتلر شيء مختلف، وأيضاً جو ستالين، فهما ليسا مثل رجال العصور القديمة الذين صلبوا الناس وقطعوا رؤوسهم من أجل التسلية. إنهما يسعيان لإحداث شيء جديد تماماً، شيء لم يسمع به أحد من قبل.

- يا صديقي العزيز لا يوجد ما هو جديد تحت الشمس.

طبعاً هذا هو قول بروثيوس المفضل، وهو لم يسمع بوجود أي جديد. وكلما أخبرته عن شيء يحدث في الحاضر يقول لك إن الشيء نفسه حدث في حكم الملك فلان، حتى لو تكلمت عن الطائرات سيرد عليك إنها كانت في كريت أو ميسينيا أو أي مكان آخر في اليونان. حاولت جاهداً أن أشرح له ما شعرت به أثناء المحاضرة التي ألقاها الرجل الصغير، والرؤى التي تصورتها عن الزمن الرديء القادم لكنه لم يصغِ واستمر بتكرار عبارته عن عدم وجود أي جديد تحت الشمس، وتناول كتاباً عن الرف وقرأ منه مقطعاً عن طاغية إغريقي عاش في عصور ما قبل الميلاد نبدا كأنه الأخ التوأم لهتلر. استمر النقاش قليلاً لأنني كنت أريد التكلم مع أي أحد.

من المضحك أنني لست مثقفاً ولست أحمق في ذات الوقت، وفي أغلب الأوقات العادية ليس لدي اهتمامات غير متوقعة من شخص في أواسط العمر، متزوج وله طفلان،

ودخله سبعة جنيهات في الأسبوع، ومع ذلك أحس إلى درجة كافية بأن الحياة القديمة التي اعتدنا عليها سوف تستأصل من جذورها، وأرى الحرب القادمة وما بعد الحرب أيضاً، وطوابير الطعام والشرطة السرية ومكبرات الصوت التي تملي ما يجب فعله. لست الاستثناء الوحيد إذ يوجد ملايين آخرون مثلي من الرجال العاديين الذين أقابلهم في كل مكان؛ إنهم رجال أصادفهم في الحانات وسائقو حافلات وباعة متنقلون.. كلهم يحسون أن العالم يسير في الاتجاه الخاطئ، أما هذا الرجل المتعلم والمثقف الذي أمضى حياته مع الكتب ونقع نفسه في التاريخ لا يستطيع أن يرى بأن الأشياء تتبدل، ولا يعتقد بأهمية هتلر، ويرفض تصديق قدوم الحرب الوشيكة ربما لأنه لم يشارك في الحرب الأخيرة، ولم تدخل في صميم أفكاره. كذلك يعتقد أنها عرض تافه مقارنة بمشهد حصار طروادة، ولا يفهم لماذا الاهتمام بالشعارات ومكبرات الصوت والقمصان الملونة، وهو يكرر دائماً من هذا الذكي الذي يهتم بمثل هذه الأشياء. سيندثر هتلر وستالين لكن الأشياء التي يسميها العجوز بروثيوس - حقائق أبدية - ستبقى وهذا شكل آخر للقول بأنَّ الأشياء سوف تستمر بذات الدقة التي عرفناها منذ الأزل والى الأزل .إنهم مثقفو أكسفورد الذين يتمشون في مكاتبهم المليئة بالكتب ويقتبسون اللاتينية ويدخنون التبغ الجيد الممهورة بشعار النبالة. إن الحديث معهم بلا جدوى.

لقد أثر الشاب ذو الشعر الملون المسترسل في نفسي. تحول النقاش بالتدريج كما يحدث دائماً إلى الحديث عن أشياء حدثت قبل الميلاد، ثم عن الشعر، وسحب برثيوس كتاباً آخر عن أحد الرفوف، وبدأ يقرأ قصيدة كيتس أغنية إلى عندليب أو ربما كانت قبرة . وعلى الرغم من قلة اهتمامي بالشعر لكن الحقيقة الغريبة هي أنني أحب سماع العجوز بروثيوس وهو يتلوه بصوته العالي، ولا شك في أنه يقرأ بشكل جيد، فقد اعتاد على ذلك من قراءاته للطلاب في الصفوف ،إذ يتكئ على شيء وغليونه في فمه ونفثات صغيرة من الدخان تخرج مترافقةً مع صوته الرزين الذي يرتفع وينخفض مع الأبيات، حيث ترى تأثره وانفعالاته.أنا لا اعرف ما هو الشعر، وما يجب أن يسبب، وأعتقد أن له تأثيراً عصبياً على بعض الناس مثل الموسيقى، لكن عندما يتلو بروثيوس الشعر أنا لا أصغي إليه فعلياً مما يعني أنني لا أستوعب الكلمات. ولكن صوته كان يجلب لي الشعور بالسلام والطمأنينة الذهنية أحياناً كهواء بارد يهب في الغرفة. لقد شعرت أن هذا ركام. الشعر! ما هو الشعر؟ إنه نغمة، هبّة تيار في الهواء، وماذا ستكون فائدته في التصدي للبنادق الآلية؟ نظرت إليه وهو مستند إلى رف الكتب. كم أنهم مضحكون رجال المدارس، فهم يظلون طلاباً باستمرار، وكل همومهم تدور حول المدرسة والدراسات القديمة وبعض قطع صغيرة من اللاتينية واليونانية والشعر؛ ولقد تذكرت أول مرة

قابلت فيها بروثيوس، فقد قرأ لي ذات القصيدة وبذات الأسلوب، وارتجف صوته عند ذات المقطع عن النوافذ السحرية، كذلك خطرت في بالي فكرة أن هذا الرجل ميت. إنه شبح، وأمثاله من الناس أموات. وخطر في بالي أيضاً أنَّ كثيراً من الناس الذين نراهم يمشون هم أموات. ونقول إن الشخص قد مات عندما يتوقف قلبه، لكن الأمر ليس كذلك ويبدو اعتباطياً لأن أجزاء من الجسم لا تتوقف عن العمل، فالشعر مثلاً يستمر في النمو سنوات. ربما يموت الإنسان عندما يتوقف دماغه، وأقصد عندما يتوقف دماغه عن استيعاب أفكار جديدة، والمثال على ذلك العجوز بروثيوس فهو متعلم ومثقف جداً، وله ذوق رفيع لكنه عاجز عن التغير والتبدل، ويقول الأشياء نفسها ويجتر ذات الأفكار المرة تلو الأخرى، وأمثاله كثيرون، إنهم عقول ميتة ومتوقفة عن العمل من الداخل وتتحرك للأمام وللخلف فقط وبنفس المسار الصغير ليذبلوا باستمرار كالأشباح.

أعتقد بأنَّ العجوز بروثيوس قد توقف عن التفكير منذ الحرب الروسية اليابانية تقريباً. يا له من رعب! إن كل المحترمين الذين لا يريدون تحطيم الوجوه بمفاتيح الربط مثل بروثيوس مهذبون ومحتشمون، لكن عقولهم توقفت ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد ما هو قادم لأنهم عاجزون عن رؤيته حتى لو كان أقرب من أرنبة أنوفهم. إنهم يؤمنون أن انكلترا لن تتغير، وأنها كل العالم، ولم يدركوا أنها مجرد

بقايا وركن صغير جداً صادف أن أخطأته القنابل، لكن ماذا عن الرجال الحاليين في أوروبا الشرقية، هؤلاء الرجال المنظمون والمؤمنون بالشعارات، فهم يتحدثون بالرصاص. إنهم قادمون في طريقهم إلينا، ولن يمر وقت طويل حتى يلحقوا بنا، وليس عندهم قوانين مركز كوينزبيري وسيشلّون كل المثقفين. رجال أموات وغوريلات أحياء ولا يبدو وجود أي شيء بينهما.

انصرفت بعد نصف ساعة بعد فشلي التام في إقناع العجوز بروثيوس بأهمية هتلر، ومشيت عبر الشوارع المرتعدة وأنا لا أزال أفكر بذات الأفكار. توقف الترام عن السير.كان البيت مظلماً وهيلدا نائمة. تدحرجت إلى الطرف الآخر من السرير دون أن تستيقظ، وكانت الحدبة التي بين كتفيها من جهتي. مضحكة تلك الكآبة الهائلة التي تسيطر عليك طوال الليل؛ ويبدا لي قدر أوروبا مهماً أكثر من الإيجار وفواتير المدرسة وعملي الذي يجب أن أقوم به غداً، لكن في لحظة أخرى بدت مثل هذه الأشياء مجرد حماقة كبيرة لشخص عليه كسب قوته، لكنها لم تخرج من تفكيري ولا تزال رؤى القمصان الملونة وصوت البنادق الآلية تملأه، وآخر شيء أتذكره قبل أن أنام هو عجبي من اهتمام شخص مثلي في مثل هذه المواضيع.

2

تفتحت أزهار الربيع، ولهذا أفترض أنه يوم من أيام شهر آذار (مارس). كنت أقود سيارتي عبر وسترهام متوجّهاً إلى بدلي لإجراء تخمين لمحل تاجر حديد تلاعب بالرصيد وسيواجه قضية تأمين وقد اعتراه الخوف والشك في إمكانية الدفع في اللحظة الأخيرة. إنني أجيد التحدث إلى الناس بالإضافة أن بداتي تساعدني في ذلك لأنني أضعهم في مزاج مبهج يشعرهم بالارتياح، وبأنّ الأمور سوف تسير على أفضل ما يرام بما في ذلك مسألة توقيع الشيكات بحيث توجد طرق مختلفة للتعامل مع بالإشارة إلى ما يمكن أن يحدث لزوجاتهم إن ماتوا دون تأمين.

انطلقت السيارة القديمة متعرّجة تصعّد وتهبط على التلال الوعرة. ولقد كان يوماً رائعاً من أيام آذار (مارس) عندما يتخلى الشتاء عن برده، وبعد أيام من الطقس الموحش أو ما يسميه الناس بالساطع، أي عندما تكون السماء زرقاء باردة وقاسية والرياح تقشطك مثل شفرة حلاقة مثلمة، وفجأة تهدأ الريح وتظهر شمس صفراء باهتة وسكون لا يحرك حتى الورقة، وفي الأماكن البعيدة، ومن خلال السديم تنتشر الأغنام على سفوح التلال وهي ترعى مثل ألواح الطباشير، أما الأودية فلا تزال النار مشتعلة فيها، ويتلوى الدخان

صاعداً للأعلى وببطء. كان الجو دافئاً لدرجة أنه يمكنك أن تنزع ثيابك. وعندما وصلت إلى بقعة طينية من الطريق كان فيها العشب مغطى بزهرة الربيع تباطأت وتوقفت على بعد عشرين ياردة. كان الطقس لا يفوّت فشعرت بضرورة الخروج من السيارة لشم الهواء وقطف باقة زهر لهيلدا إن لم يكن هناك قادم على الطريق.

أطفأت محرك السيارة وترجلت. لا أحب أن أترك محرّك السيارة يعمل وهي متوقفة إلى جانب الطريق لأنني أخاف أن تنخلع الرفارف لأنها من طراز العام 1927؛ لقد قطعت فيها أميالاً كثيرة، وعندما ترفع الغطاء وتنظر إلى المحرك يذكرك بإمبراطورية النمسا القديمة، فهي مربوطة بقطع من الخيوط لكن قوابسها موصولة ولا توجد أية آلة مثلها تتحرك في اتجاهات مختلفة في الوقت نفسه كحركة الأرض التي لها اثنان وعشرون نوعاً مختلفاً من الاهتزازات. وإن نظرت إليها من الخلف وهي تعمل فكأنك تشاهد إحدى فتيات هاواي وهي ترقص الهولا هولا.

كانت هناك خمس بوابات مسدودة بجانب الطريق فاستندت إلى واحدة منها. لكني لم ألحظ أي روح على مدى النظر. دفعت قبعتي إلى الخلف قليلاً لأحصل على قليل من الهواء حيث كان العشب وراء السياج مملوءاً بأزهار الربيع، وهناك آثار أقدام خلف البوابة، وشخص ترك بقايا نار؛ كومة

صغيرة من جذوة جمرات بيضاء وخيط من الدخان الراشح ينسل منها. ابتعدت قليلاً فرأيت بركة صغيرة يغطيها طحلب البط، وبعدها شاهدت حقلاً من القمح الشتوي ثم جرفاً كلسياً وأيكة زان وبعض الأوراق الصغيرة على الأشجار. سكون ليس فيه ريح تحرك رماد النار وهدوء مطبق لولا غناء قبّرة في مكان ما. صمت لا يعكر صفوه ولا حتى صوت طائرة.

بقيت قليلاً مستنداً إلى البوابة وقد كنت وحدي تماماً أتأمل حقل القمح وهو يتأملني، وشعرت بشيء لم نألفه في أيامنا الحاضرة. لقد شعرت بأنني سعيد ولو لم أعش إلى الأبد، فأنا مستعد لذلك، ويمكنك القول إنْ أردت إنَّ سبب ذلك يعود إلى اليوم الأول من الربيع. إنه التأثير الفصلي على الغدد الجنسية وما شابهه لكن الأمر أكثر من هذا بكثير. لقد أقنعني شيء ما وفجأة أن الحياة تستحق العيش. منظر نار الخشب في يوم ساكن، وتلك العصي التي تحولت إلى رماد ابيض ولا تزال تحتفظ بشكلها، ومن تحت الرماد يلوح اللون الأحمر الزاهي في داخلها، والغريب أن منظر الجمرة الحمراء الحية يشعرك بالحياة أكثر من أي شيء حي. كذلك يوجد فيه سر من الكثافة والاهتزاز؛ لا يمكنني وصف ذلك بالكلمات لكنها تجعلك تدرك أنك حي كالبقعة التي في اللوحة الفنية التي تمكنك من فهمها كلها.

انحنيت لأقطف زهرة ولم أتمكّن بسبب كرشي الكبير فجلست القرفصاء على كفلي وقطفت باقة صغيرة. ومن حسن الحظ لم يكن هناك أحد. كانت الأوراق منثنية تشبه آذان الأرانب؛ وقفت ووضعت الباقة على عمود البوابة وبعدها أخرجت أسناني الاصطناعية بدافع غريزي ونظرت إليها، ولو كان لدي مرآة لنظرت إلى نفسي كلها، لكني أعرف كيف أبدو سلفاً. رجل بدين في الخامسة والأربعين أرتدي ثياباً رمادية سيئة وقبعة مدورة وعندي زوجة وولدان وبيت في الضاحية؛ كل ذلك بادٍ عليّ مع وجه أحمر وعينين زرقاوين مهتاجتين، أما أسناني فكانت الشيء الذي أدهشني عندما ألقيت عليها نظرة قبل إرجاعها إلى فمي. لذلك، فلا أسناني مهمة ولا حتى بدانتي أيضاً. نعم أنا أبدو مثل سمسار مراهنات فاشل، وليس هناك امرأة تشاركني السرير إلا إذا دفعت لها لقاء ذلك. أعرف كل هذا وأقول ليس مهماً ولا أريد النساء ولا حتى أريد أن أعود شاباً ثانية، فقط أريد أن أكون حياً وأنا حي عندما نظرت إلى زهور الربيع وجذوات الجمر التي تحت السياج. إنه شعور داخلي بالسلم والطمأنينة يشبه الشعلة. بدت البركة المغطاة بطحلب البط كالسجادة، وإن كنت لا تعرفه فستظّن أنه صلب، ويمكنك أن تسير فوقه. كم نحن أغبياء وقذرون جداً! لماذا لا يتمشى الناس وينظرون إلى الأشياء بدلاً من البلاهات التي يهدرون وقتهم فيها؟

البركة مثلاً، وكل الأشياء التي فيها من علق وذباب وخنافس الماء وحلزون الماء، ويعلم الله عدد الأشياء الأخرى التي يمكن رؤيتها بالمجهر. يمكنك قضاء عمرك وعشرة أمثاله وأنت تراقبها دون أن تنتهي من بركة واحدة. كل هذه الفترة وأنا أشعر بالتعجب من الشعلة الداخلية الوحيدة الجديرة التي لا نريدها. لكنني أريدها وهذا ما اعتقدته في هذه اللحظة. لا أحد فهم ما أقول وإنني بعكس اغلب السكان المحليين، فأنا لست متعصباً للريف، ولا أريد منع الناس من السكن في المدينة أو الضواحي. دعهم يعيشون أينما أرادوا ولا اقترح على الناس أن يمضوا حياتهم في التسكع وقطف الأزهار لأنني أعرف أنه يجب أن نعمل، وأن هناك رجالاً يتقيأون رئاتهم في المناجم وفتيات يعملن على الطابعات كالمطارق لدرجة لا يتسع فيها الوقت لقطف زهرة، وإن كان بطنك مليئاً وبيتك دافئاً فإن قطف الأزهار ليس مهماً أو مرغوباً.

هذا هو شعوري وإحساسي الداخلي، وأعترف أنه ليس دائماً لكنه يتابني ويغمرني بين الحين والآخر. هذا الإحساس الطيب الذي تحس به أنت وكل الناس وتعرفونه: أوقفوا إطلاق البنادق الآلية والمطاردة واللهاث واهدأوا والتقطوا أنفاسكم. اتركوا قليلاً من السلام يتسرب إلى عظامكم. لكننا مستمرون بارتكاب ذات الحماقات القذرة.

تلوح الحرب التالية في الأفق، وبعضهم يقول في عام

1941، أي بعد ثلاث دورات للشمس. إننا ننطلق إليها بسرعة خاطفة وستهطل القنابل علينا مثل السيجار الأسود، وستنهمر الطلقات الانسيابية من بنادق برن الآلية، وستكون هناك غارات جوية طبعاً لكنها لن تصيب الكل، وهذا ليس من الحسابات الخاصة المسبقة. لن يقلقني ذلك كثيراً لأنني تجاوزت سن القتال، وأكرر ما قلته مرات من قبل بأنني لست خائفاً من الحرب بمقدار مما هو آت بعدها، وحتى هذا قد لا يؤثر عليّ بشكل خاص لأنه ليس هناك من يهتم برجل سمين مثلي! لن أكون مطلوباً سياسياً ولن يضربوني بالعصي المطاطية، فأنا من وسط الناس العاديين، وأتحرك حسب أوامر الشرطة، أما هيلدا والصغار ربما لن يلاحظوا أي اختلاف وعلى الرغم من ذلك فالحرب ترعبني والأسلاك الشائكة والشعارات والوجوه الكبيرة والأقبية المرصوفة ورائحتها النتنة والجلادون الذين يطلقون عليك النار من وراء ظهرك في داخلها. لكن لماذا هذا الخوف، إنها تخيف من هم أقل ذكاء مني؟ إنه السبب نفسه الذي أخبرتك عنه سابقاً، ذلك الشعور الخاص في داخلك وإن شئت سمه السلام، وما أقصده ليس عدم وجود حالة حرب وإنما السلام داخل النفوس الذي سيتلاشى والى الأبد إن وضع صبيان العصي المطاطية أيديهم عليك. التقطت باقة الزهر وشممتها وأنا أفكر بيبنفيلد، والمضحك في الأمر أنها تروح وتأتي وتشغل بالي

منذ شهرين، وبعد عشرين سنة من النسيان الفعلي. سمعت هدير سيارة قادمة على الطريق في تلك اللحظة مما أوقعني فيما يشبه الصدمة لأنني أدركت ما كنت أفعله فجأة، أي التجول وقطف الزهور بدلاً من الوقوف على رأس العمل أدقق وأجرد محل تاجر الحديد في بودلي. والأدهى لو رآني الناس الذين في السيارة وتساءلوا عما يفعله رجل بدين بقبعة مدورة وباقة أزهار. لن يبدو ذلك مناسباً أبداً، ويجب أن لا يقطف البدينون الزهور . هناك متسع من الوقت لرميها وراء السياج قبل أن تكون السيارة في مدى الرؤية، تلك السيارة التي كانت مملوءة بأغبياء صغار في حوالي العشرينيات من أعمارهم إذ عندما شاهدوني ضحكوا كثيراً وأطالوا النظر إلي. أنت تعرف كيف ينظر إليك الناس وهم في سيارة، ولقد خطر لي أنهم ظنوا شيئاً آخر. ما الذي يدفع رجلاً بديناً للخروج من سيارته والوقوف بجانب الطريق؟ واضح، وعندما تجاوزتني السيارة تظاهرت بزر السروال.

أدرت محرك السيارة بذراع آلي لأن المشغل لا يعمل وانطلقت. الغريب أنه في اللحظة التي كنت أزرّر فيها السروال كان ثلاثة أرباع عقلي منشغلًا بهؤلاء الحمقى الصغار بعدها خطرت في بالي فكرة رائعة. سأرجع إلى بينفيلد ولماذا لا؟ كنت أسير بسرعة وأنا أفكر لماذا لا أعود؟ وما المانع؟ كل ما ابتغيه إجازة هادئة في بينفيلد. لا تظن أنني أريد العودة

للعيش هناك ولا أخطط لهجر هيلدا والأولاد لأبدأ حياة جديدة تحت اسم مختلف، فهذا يحدث في الروايات فقط لكن ما الذي يمنعني من الذهاب وقضاء أسبوع هناك؟

تراءى لي أنني خططت لهذا في ذهني مسبقاً وسيكون الأمر مناسباً أكثر إن توافرت النقود.

لا تزال الاثنا عشر جنيهاً مخبأة، وهذا ما يمكنني من قضاء أسبوع مريح. فكل سنة أحصل على إجازة مدتها نصف شهر، وعادة ما تكون في آب (أغسطس) أو في أيلول (سبتمبر) لكن إن لفقت قصة مناسبة مثل موت قريب لي جراء مرض عضال أو أي شيء يقنع الشركة أن تعطيني إجازتي على شكل أسبوعين منفصلين في أيار (مايو) مثلا حين يزهر الزعرور لأتمكن من قضاء أسبوع وحيداً دون دراية هيلدا. أسبوع في بينفيلد بدون هيلدا والأولاد والفلاينغ سالامندرز وايلسمير والعراك حول أقساط البيت وضجيج السيارات الذي يدفعك إلى الجنون. أسبوع كامل من التسكع والاستمتاع بالهدوء! لكن لماذا بينفيلد بالذات؟ وما هي مآربي وإغراضي؟ لم أنوِ فعل أي شيء.. كل ما أردته السلام والهدوء. ذلك السلام الذي عشناه مرة في بينفيلد! ولقد أخبرتك سابقاً شيئاً عن حياتنا القديمة هناك قبل الحرب ولا أزعم أنها كانت مثالية، بل أجرؤ وأقول إنها كانت حياة كسل وبلادة مثل حياة الخضار أو اللفت إن أحببت، لكنه لفت لا يعيش مع الرعب من رئيس العمل ولا قضاء الليل

في التفكير بتدهور الأسعار ولا الحرب القادمة. كان السلام يعشش في داخلنا وأعرف أنّ الحياة في بينفيلد تبدّلت لكن المكان ظل نفسه، ولا تزال هناك غابة الزان حول بينفيلد والطريق الترابي بالقرب من برفوردوير ومعلف الخيل في السوق. أريد العودة إلى هناك لأسبوع واحد فقط كي أفسح المجال لذلك الشعور بالتغلغل إلى داخلي مثل حكماء الشرق المتقاعدين المعتزلين في الصحراء؛ بعد ذلك فكرت بالطريقة التي ستسير فيها الأمور ووجدت أن عدداً كبيراً من الناس سيعتكفون في الصحراء في السنوات القليلة القادمة وسيكون ذلك شبيهاً بعصر روما القديمة الذي حدثني عنه بروثيوس إذ حيث يوجد عدد كبير من النساك توجد قائمة انتظار في كل كهف وغار.

إنّ ما أردته ليس النّظر إلى سرّتي بل استعادة قوة تحملي قبل أن يبدأ الزمن الرديء الذي لا يشك بحتمية قدومه الوشيك سوى الأموات.قد لا نعرف كيف سيكون شكله لكننا متأكدون من قدومه وربما يكون حرباً أو كارثة اقتصادية. لا ندري لكنه سيكون بمنتهى السوء. فأينما ذهبنا ستكون الهاوية، وقد يكون لموت أو أوكار الفساد. لقد خرج شيء ما منا في العشرين سنة من الحرب وهو عصارة الحيوية التي أهرقت ولم يبقَ شيئ منها؛ كل هذا الاندفاع في الذهاب والإياب والتزاحم الأبدي من اجل حفنة صغيرة من القروش

وضجيج الحافلات والقنابل وأجهزة الراديوهات وأجراس الهاتف التي دمرت وأتلفت أعصابنا وفتتها إلى قطع صغيرة ونخرت نقي عظامنا.

ضغطت بقدمي على دواسة الوقود. عاودتني فكرة العودة إلى بينفيلد بالذات، وتعرّف الشعور الذي تملكني والصعود من اجل الهواء مثل سلاحف البحر الكبيرة التي تصعد مجذفة إلى السطح لتمد أنوفها خارج الماء وتملأ رئتيها بجرعة كبيرة قبل أن تغطس في الأعماق بين أعشاب البحر والأخطبوطات. نحن مختنقون في قعر حاوية زبالة لكني وجدت طريقاً يؤدي إلى القمة وهو العودة إلى بينفيلد. واصلت الضغط على الدواسة حتى وصلت سرعة السيارة حوالى الأربعين ميلاً في الساعة، وكانت تقرقع مثل صينية مليئة بالخزفيات عندها بدأت بالغناء وسط هذا الضجيج.

لكن الذبابة التي ستفسد إبريق الحليب هي هيلدا.أحبطني ذلك الهاجس فتباطأت سرعتي إلى حوالى العشرين لكي اقلب الأمر في رأسي. لاشك بأن هيلدا ستكتشف الأمر عاجلاً أم آجلاً عندما تعرف أن إجازتي في شهر آب (أغسطس) هي أسبوع واحد فقط، لكن بإمكاني النجاح في تجاوز ذلك بإخبارها أن الشركة لم تعطني سوى أسبوع إجازة واحد هذه السنة وربما تطير من الفرح جرّاء تقليص المصاريف. لكن الصعوبة تكمن في إيجاد عذر لغياب ذلك الأسبوع من أيار

(مايو) ولا استطيع المغادرة دون أن أترك ملاحظة. وبعد التفكير رأيت أن اخبرها قبل فترة معينة بأن الشركة سترسلني في مهمة خاصة إلى نوتنغهام أو ديربي أو بريستول أو أي مكان بعيد. وإن أخبرتها قبل أسبوعين قد يبدو الأمر طبيعياً وأنني لا أخفي شيئاً ورغم هذا سوف تعرف.

ثق بهيلدا! ستتظاهر بأنها تصدق عذرك لكنها ستتحرى الحقيقة بأسلوبها الهادئ والعنيد وستعرف أنني لم أكن في أي من تلك الأماكن. تدهشني بنجاحها في المواظبة إذ تبقى هادئة إلى أن تكتشف كل النقاط الضعيفة، ثم تجر قدمك من خلال ملاحظة عابرة وتهجم عليك مخرجة ملف القضية كله. أين قضيت ليلة السبت؟هذه كذبة، كنت مع امرأة، أنظر إلى الشعر الذي وجدته أثناء تنظيفي لمعطفك. أنظر جيداً هل هذه من لون شعري؟ ويبدأ العرض والمتعة ويعلم الله كم مرة يتكرر هذا المسلسل. قد تكون شكوكها أحياناً في محلها أو تكون متجنية لكن النتائج اللاحقة دائماً متماثلة. أسابيع من الإزعاج والمضايقات المستمرة إذ لا تمر وجبة دون شجار ولا يعرف الأولاد سبباً لذلك ويبقى الحل اليائس الوحيد بأن أخبرها أين سأمضي الأسبوع، ولماذا، لكنها لن تصدق حتى لو استمريت في الشرح والتوضيح إلى يوم الدين.

لا يهم ولتذهب إلى الجحيم.. إنها بعيدة. ضغطت بقدمي على دواسة الوقود ثانية وجاءتني فكرة أعظم من

الأولى. لن اذهب في أيار(مايو) وإنما في النصف الثاني من حزيران (يونيو) عندما يبدأ موسم الصيد وسأصطاد. لكن لماذا الصيد بعد كل ذلك الوقت؟أردت السلام وصيد السمك. ودخلت رأسي الفكرة الكبرى وأوشكت أن تحرفني عن الطريق. نعم سأذهب إلى الصيد وسأمسك بسمكات الكارب الموجودة في بركة بيت بينفيلد.

أقول لماذا لا مرة أخرى؟ أليس غريباً أن نمضي حياتنا ونحن نفكر بالأشياء التي نحب أن نفعلها ولا نستطيع؟ لماذا لا أمسك بتلك السمكات؟ لقد بدت الفكرة شبه مستحيلة حتى في هذه اللحظة مثل حلم تحت تأثير المخدر، وكالأحلام التي تراها في نومك مع نجوم السينما أو فوزك ببطولة العالم للوزن الثقيل. لكنها ليست فكرة مستحيلة ولا غير ممكنة، ويمكن دفع إيجار يوم صيد إن كان مالك البيت قد تغير، ومن الأرجح أن البيت لا يزال فارغاً ولم يدرِ أحد بوجود تلك البركة في تلك البقعة المظلمة بين الأشجار.فهي انتظرتني كل السنوات والسمكة العملاقة المنزلقة في الماء. يا إلهي إن كان حجمها بتلك الضخامة منذ ثلاثين عاماً فكيف أصبح والآن؟

3

التاريخ: يوم الجمعة في السابع عشر من حزيران (يونيو) اليوم الثاني للصيد، لم أواجه أية صعوبة تذكر في ترتيب

الأمور مع الشركة، أما بخصوص هيلدا فقد حبكت قصة محكمة ومنظمة جداً، إذ استقرّيت على برمنغهام كعذر، وقررت أن اخبرها في آخر لحظة باسم الفندق الذي سأنزل فيه (روبتيم فاميلي وكوميرشال) الذي صادف أن عرفت عنوانه لأنني نزلت فيه قبل سنتين، وأردت أيضاً أن لا تكتب لي إلى برمنغهام، وهو ما قد تفعله إن غبت أسبوعاً. وبعد إمعان النظر في الأمر وثقت بسوندرز وهو شاب يسافر من أجل شركة تبيع مواد ملمّعة للأرضيات. حدث أنه سيمر ببرمنغهام في الثامن عشر من حزيران، وحصلت على وعد منه أن يتوقف هناك ويبعث لي رسالة باسمي معنونة بعنوان الفندق، وسأخبرها في الرسالة أنه ربما يتم استدعائي إلى أماكن بعيدة أخرى، لهذا من الأفضل أن لا تكتب لي. فهم سوندرز وقال غامزاً إن ذلك رائع وخاصة لرجل في مثل عمري وهكذا سوّي الأمر مع هيلدا ولن تسال أو تساورها الشكوك إلا بعد وقت.

قدت السيارة عبر ويستهام. كان الصباح رائعاً وهبَّ فيه نسيم هادئ فتمايلت قمم أشجار الحور تحت الشمس، وانسابت الغيوم البيضاء الصغيرة كقطيع من الخراف، وطاردت الظلال بعضها بعضاً عبر الحقول. صادفت خارج ويستهام صبي ولاس للأيس كريم بخوذته التي تشبه التفاحة ودراجته الحديثة فأوقفته وأخذت منه واحدة . قص المزارعون

التبن وتركوه مرمياً بجانب الطريق في صفوف لامعة ليجف، فانتقلت رائحته إلى الطريق وامتزجت برائحة البنزين.

كنت أقود ببطء حوالى خمسة عشر ميلاً في الساعة حيث الصباح هادئ ومسالم والبط يطفو فوق سطح البرك دون أن يبدو عليه أنه جائع. اندفع رجل في القرية التي تلي ويسترهام فجأة من الحقل وزرع نفسه في وسط الطريق، وكان يقوم بحركات بدنية لجذب الانتباه. رجل صغير في مئزر ابيض وشارب ضخم. سيارتي معروفة في الطريق كله، ضغطت على المكابح فانحرفت إلى جانب الطريق.لقد كان السيد ويفر حارس المتجر العام في القرية، وبالتأكيد هو لا يريد التأمين على حياته ولا على دكانه. لقد ركض من أجل تبديل فئة من النقود إلى فئات أصغر لأن القرية كلها ليس فيها حانات تؤمن ذلك فوجد عندي ما يعادل جنيهاً فضياً.

تابعت القيادة وكانت سنابل الحنطة تصل إلى مستوى الخصر وتتموج كسجادة خضراء تتمايل والريح تهزّها بلطف؛ منظر حريري وغني مثل امرأة تناديك للارتماء بين أحضانها، ورأيت أمامي إشارة الطريق الذي يتفرع يميناً إلى بودلي ويساراً إلى اكسفورد.

لا أزال على الطريق المعتاد وداخل حدود منطقتي كما تسميها الشركة. وبما أنني كنت ذاهباً باتجاه الغرب فمن الطبيعي أن أغادر لندن من طريق اكسبريدج، لكن بالغريزة

تابعت في طريقي المعتاد. والحقيقة أنني شعرت بالذنب بسبب خطتي، وأردت الهروب قبل التوجه إلى منطقة اوكسفورد رغم أنني رتبت الأمور بدقة مع الشركة ومع هيلدا ومع الاثني عشر جنيهاً في محفظة نقودي، وحقيبتي الموجودة في صندوق السيارة الخلفي. وكنت كلما اقتربت من التقاطع ازداد شعوري بالإغراء الذي عرفت أنني لن استسلم له. لكن طالما أنا أقود في الطريق المعتاد فأنا ضمن القانون. لم يفت الأوان ولا يزال هناك الوقت للقيام بالشيء المقرّر. يمكنني الذهاب إلى بودلي ومقابلة مدير بنك باركلي الذي هو عميلنا هناك لأعرف منه إن كان هناك وجود لشركات جديدة في المنطقة، وبعدها أشغل السيارة راجعاً وأعود إلى هيلدا وأريح ضميري من تلك المؤامرة. تباطأت عندما وصلت إلى الزاوية، هل أتابع أم لا؟ وكنت تحت إغراء فعلي لبعض الوقت.. لكن لا. أطلقت بوق السيارة وانحرفت غرباً على طريق أوكسفورد.

حسناً فعلت. أنا الآن على الأرض المحرّمة، وصحيح أن خمسة أميال ليست المسافة البعيدة إن أردت أن انعطف إلى اليسار والعودة إلى ويسترهام لكنني في هذه اللحظة كنت متوجهاً إلى الغرب؛ وبصراحة كنت في رحلة طيران إذ بمجرد وجودي على طريق أكسفورد شعرت أن الكل قد عرفوا، أقصد الناس الذين لا يستحسنون رحلة من هذا النوع والذين سيمنعونني إن استطاعوا، والأشد والأدهى شعرت بأنهم

يطاردونني. لقد كان يطاردني كل من لم يفهم سبب تسلّل رجل في أواسط عمره وبأسنان اصطناعية من أجل أسبوع هادئ إلى المكان الذي أمضى فيه طفولته. إنّ أصحاب العقول الصغيرة التافهين سيرفعون السماء والأرض لمنع ذلك، وسيسدون طريقي. إنهم مثل جيش هائل يصطف على الطريق ورائي. رأيتهم بعقلي... هيلدا كانت في المقدمة، طبعاً والأولاد متقاطرون خلفها والسيدة ويللر تدفعها للأمام مكشرة، وفي المؤخرة الآنسة مينز مسرعة ونظارتها منزلقة للأسفل والقلق بادٍ في عينيها مثل الدجاجة التي تظل في الخلف عندما تمسك الأخريات بقشرة لحم خنزير مملح. ورأيت معهم السير هربرت كروم وكبار الموظفين في الفلاينغ سالامندرز في سيارات الرولس رويس وهيسبانوزوياس وكل الرجال الذين في المكتب، وكل المسحوقين المساكين في إيلسيمير ومن كل الطرق الأخرى. بعضهم يدفع بعربات اليد وحاصدات العشب وآلات جدل الحدائق الإسمنتية التي تسمع أصواتها في أوستن سفن وكل منقذي الأرواح ونوزي باركر والناس الذين لا نراهم إلا عندما يقررون مصائرنا كيفما شاؤوا، ووزير الداخلية وسكوتلنديارد وثلة من الأساقفة وموسوليني والبابا. كلهم يطاردونني ويصيحون ذاك رجل واهم بأنه يستطيع الفرار.. إنه غير منضبط ويريد العودة إلى بينفيلد.. اركضوا وراءه.. الحقوا به وأوقفوه. ومن الغريب أن الانطباع كان قوياً لدرجة أنني اختلست النظر من النافذة الصغيرة التي

في مؤخرة السيارة كي أتأكد أنني لست مطارداً. إنه ضمير المذنب ولم يكن ورائي سوى الطريق الترابي الأبيض، وصف طويل من أشجار الحور؛ دست دواسة الوقود فوصلت السرعة إلى الثلاثين ميلاً، تجاوزت ويسترهام بعد بضع دقائق وكان ما كان. أحرقت كل قواربي. هذه هي الفكرة التي بدأت تكون بنفسها وبشكل مبهم في اليوم الذي وضعت فيه طاقم أسناني الاصطناعية.

القسم الرابع

1

اتجهت إلى بينفيلد قادماً من شامفورد هيل حيث هناك أربعة طرق تؤدي إليها، لكنني فضّلت شامفورد هيل لأنه الطريق الذي كنا نسلكه بدراجاتنا ونحن عائدون إلى البيت من صيد السمك في نهر التيمز. عندما تصل إلى قمة التَّل تنزاح الأشجار مفسحة المجال كي ترى بينفيلد مستلقية في أسفل الوادي. غريب أن تعود إلى ريف بعد عشرين سنة من الغياب، وتتذكر أدق تفاصيله، لكنك تتذكرها بشكل مغلوط، فتكون المسافات كلها مختلفة ونقاط الاستعلام قد أزيلت فتشعر أن هذا التل أكثر انحداراً وذلك المنعطف كان على الجانب الآخر من الطريق. وبالمقابل فان ذكرياتك تكون دقيقة لكنها تعود إلى مناسبة واحدة فقط. فمثلاً تتذكر أن زاوية الحقل في يوم ماطر في الشتاء والعشب ازرق من شدة خضرته الغامقة وعمود البوابة المتعفّن مغطى بالأشنيات،

وبقرة واقفة على العشب تنظر إليك وتعود بعد عشرين سنة وتندهش لأن البقرة ليست واقفة في ذات المكان وتنظر إليك بذات التعبير.

بينما كنت أقود إلى كرامفورد تأكدت أن الصورة التي في ذهني خيالية تماماً وقد تغيرت أشياء كثيرة في الواقع. فمثلاً الطريق الآن مفروشة بالإسفلت بينما كانت في الماضي مرصوفة بالحصاء، وأتذكر شعوري بوعورته تحت عجلات الدراجة كما يبدو أنه أصبح أوسع وقلّ عدد الأشجار كثيراً. ففي الأيام المنصرمة كانت أشجار الزان الضخمة مزروعة كسياج حتى أن أغصانها تتلاقى فوق الطريق في بعض الأماكن، أما الآن تلاشت كلها. وصلت إلى قمة التل فرأيت شيئاً جديداً. فعلى يمين الطريق مجموعة كبيرة من البيوت من الطراز القديم المزيّن بأفاريز معلقة وعرائش ورد وأشياء أخرى. تعرف البيوت التي تملكها الطبقة العليا جداً والتي تقف في صف على شكل مستعمرة مزوّدة بطرق خاصة تؤدي إليها، وعلى مدخل أحد الطرق الخاصة علقت لوحة يضاء مكتوب عليها:

كينيلز.

حانات سيلهام العريقة.

تقدّم الطعام للكلاب.

من المؤكد أن هذه لم تكن موجودة من قبل. فكرت

للحظة وتذكرت. لقد كان مكان تلك البيوت المستحدثة مزرعة سنديان صغيرة أشجارها كثيفة ومتقاربة من بعضها بعضاً، لذلك كانت طويلة ورفيعة جداً، وفي الربيع كانت أرضها تتغطى بشقائق النعمان، وإنني متأكد من عدم وجود أي بيت فيها سابقاً. وصلت إلى أعلى التل، وبعد دقيقة ستصبح بينفيلد كلها في مدى البصر. لماذا أتظاهر بعدم الدهشة؟ إن مجرد التفكير في رؤيتها ثانية حرك في داخلي شعوراً غير عادي وكان له تأثير في قلبي. بعد خمس ثوان سأراها. نعم أنا قادم. أوقفت السيارة ودست على الفرامل. يا إلهي قد تعرف ما هو قادم، لكنني لم أعرف، ويمكنك وصفي بالغبي جداً لعدم توقع ذلك. لم يخطر في بالي أبداً والسؤال الأول هو أين بينفيلد؟ أين البلدة التي عرفتها؟ من المفترض أن تكون في مكان ما. لا اقصد أنها هدمت وإنما ابتلعت فقط، وما رأيته كان مدينة صناعية كبيرة الحجم. يا للدهشة كيف لا أتذكر ولا أعتقد أنَّ ذاكرتي ابتعدت عن معرفة منظر بينفيلد من قمة تل شامفورد. إنني أظن أن الشارع العام كان يبعد ربع ميل تقريباً، وباستثناء بيوت قليلة كانت المدينة على شكل صليب ونقاطها المميزة قبة الكنيسة ومدخنة معمل البيرة اللتان لم أتمكن من تمييزهما للآن، وكل ما استطعت رؤيته نهر ضخم من البيوت الجديدة المنصوبة على طول الوادي من الجهتين. وصلت إلى نصف التل على

الجانبين والى اليمين في الأعلى عدة فداذين من السقوف الحمراء الساطعة المتشابهة. إنها بيوت الإسكان.

لكن أين بينفيلد؟ أين المدينة التي اعرفها؟ قد تكون في مكان ما أو مطمورة في وسط هذا البحر من القرميد. لم أتمكن من تمييز مدخنة معمل البيرة من بين خمس أو ست مداخن لمعامل أخرى، وفي نهاية الطرف الشرقي من المدينة هناك معملان واحد للزجاج والآخر للاسمنت المسلح وهذا عائد لنمو البلدة. أظن أنني بدأت استوعب حيث خطر ببالي أن سكان هذا المكان الذين كان عددهم حوالي ألفي نسمة في الأيام الماضية أصبح الآن خمسة وعشرين ألفاً، لكن الشيء الوحيد الذي لم يتبدل هو بيت بينفيلد الذي بدا كنقطة من هذا البعد ويمكن رؤيته من الطرف المقابل للتل إذ تحيط به أشجار الزان، كذلك لم تتسلق المدينة نحو الأعلى هناك. وبينما كنت أنظر إلى البلدة حلّق سرب من الطائرات القاذفة السوداء فوقها فسمعت هدير أصواتها.

ضغطت على فاصل السرعة، وبدأت السيارة تهبط ببطء ذلك التل الذي تسلقته البيوت حتى منتصفه. إنها بيوت صغيرة ورخيصة ومتشابهة تمتد من طرف التل في صف متصل وسقوف يرتفع فيها الواحد عن الآخر مثل مجموعة أدراج. توقفت ثانية قبل أن أصل إلى البيوت حيث يوجد شيء جديد آخر على يسار الطريق، إنها مقبرة، فرقفت أمام المدخل

المسقوف لألقي نظرة عليها. كانت ضخمة بمساحة عشرين فداناً - دائماً هناك مبالغة في تقدير أحجام المقابر- ممراتها مفروشة بالحصى ومروجها خضراء قاتمة وفيها زوايا رخامية من التي تصنعها الآلات وتبدو مثل شيء نافر من كعكة العرس، لكن ما صعقني في تلك اللحظة هو أنه لم تكن هناك مقبرة منفصلة سابقاً، وكان هذا المكان حقولاً ومزرعة ألبان، وأتذكر أيضاً مالكها واسمه بلاكيت.

ليست المسالة في أن المدينة كبرت سريعاً واحتاجت إلى مقبرة بمساحة عشرين فداناً ليلقوا جثثهم فيها بل في وضع المقبرة في طرف المدينة. هل انتبهت إلى هذا في أيامنا الحالية؟ كل مدينة جديدة تنصب مقبرتها في ضواحيها. لقد أبعدوها وأخفوها عن الأنظار لأننا لا نحتمل ذكرى الموت حتى وإن كانت على شاهدة القبر التي تد لا تقرأ أبداً. في أيامنا كانت مقبرتنا في وسط البلدة حيث كنّا نمرّ بها يومياً، فترى البقعة التي دفن فيها جدك أو المكان الذي سترقد فيه أنت. لم يزعجنا النظر إلى الأموات، لقد كنا نشمّ رائحتهم عندما يكون الطقس حاراً لأن بعض مدافن العائلة لم تكن مقفلة بإحكام.

تركت السيارة تهبط التل ببطء وكنت أرى أشباحاً على طول الطريق باتجاه الأسفل أغلبها أشباح أسوار وأشجار وأبقار. لقد كنت كمن ينظر إلى عالمين في آن واحد، مثل

قماعة رقيقة لشيء ما مختلط مع ما هو موجود فعلياً ويشع من خلاله. هناك الحقل الذي طارد الثور فيه جنجر روجرز، والمكان الذي كان ينمو فيه فطر الحصان لكن لم يبق لا حقل ولا ثور ولا حتى فطر، فالبيوت في كل مكان، بيوت صغيرة جرداء بنوافذها المنكوشة وحدائقها الخلفية الصغيرة التي ليس فيها سوى بقعة من الأعشاب الضارة أو بعض العليق يصارع بين الأعشاب. رجال يأتون ويروحون ونساء ينفضن السجاد وأولاد صغار يلعبون على الأرصفة بأنوفهم الكبيرة. كلهم غرباء جاؤوا وتجمعوا أثناء غيابي، فهم يعتبرونني غريباً رغم أنهم لا يعرفون شيئاً عن بينفيلد، ولم يسمعوا بشوتر ولا رذراول أو غريميت أو العم ايزكيل ولا يهمهم ذلك على الإطلاق.

إنّ الشخص يتأقلم مع الأشياء بسرعة مضحكة جداً، فمنذ أقل من خمس دقائق وقفت على قمة التل مقطوع الأنفاس لأرى بينفيلد ثانية، وها أنا أعتدت على فكرة أنها ابتلعت واندثرت مثل مدن البيرو الضائعة. استجمعت قواي وواجهت الواقع أخيراً ولكن ماذا تتوقع؟ يجب أن تكبر المدن انسجاماً مع ازدياد عدد السكان، وأنّ البلدة القديمة لا تزال موجودة في مكان ما، وقد يكون حولها بيوت بدلاً من الحقول، وبعد دقائق أخرى سأرى الكنيسة ومعمل البيرة وواجهة محل والدي ومعلف الخيل في السوق. وصلت إلى

أسفل التل وتفرع الطريق فأخذت المنعطف اليساري وبعد دقيقة تهت.

لم أتذكر شيئاً، ولم أعرف إن كانت هذه هي بداية البلدة، وكل ما عرفته أن الشارع لم يكن موجوداً سابقاً. قدت السيارة فيه حوالى أربعمئة ياردة. شارع قذر ورث تنتشر البيوت على جانبيه بشكل مستقيم وتوقفت أخيراً بجانب امرأة ترتدي مئزراً قذراً بدون قبعة. أخرجت رأسي من النافذة وقلت:

– المعذرة. . هل تعرفين الطريق إلى السوق؟

– لا أستطيع أن أخبرك.

أجابت المرأة بلهجة صعبة غير مفهومة. كانت من لانكشاير حيث يوجد الكثير منهم في جنوب انكلترا الآن. لقد نزحوا من المناطق المنكوبة وبعدها رأيت رجلاً يحمل حقيبة أدوات فحاولت ثانية وفي هذه المرة حصلت على الجواب عبر اللهجة الكوكونية لكنه ظل دقيقة يفكر قبل أن يجيب:

– السوق؟ السوق؟ سوف نرى، هل تقصد السوق القديم؟

– افترض أنه السوق القديم.

– حسناً خذ اليمين ثم انعطف. . . . .

بدا لي طريقاً طويلاً لكنه في الواقع لم يبلغ الميل.

بيوت ومحلات ودور سينما وكنائس صغيرة وملاعب كرة قدم كلها جديدة مما أشعرني ثانية بالغزو المعادي الذي حدث من وراء ظهري. نزحوا من لانكشاير وضواحي لندن الأخرى وزرعوا أنفسهم وسط هذه الفوضى القذرة لأنهم يعرفون أهم الأماكن في البلدة. لقد فهمت لماذا يسمون السوق بالسوق القديم إذ كانت هناك ساحة كبيرة بلا شكل في وسط البلدة الجديدة فيها إشارات مرور ضوئية وتمثال برونزي ضخم لأسد يضايق نسراً؛ إنه نصب تذكاري للحرب، كذلك ترى الحداثة بمنظرها القذر الخام في كل شيء. منظر بلدة انتفخت كالبالون مثل غيرها من تلك التي انتشرت في السنوات القليلة الأخيرة كهيس وسلوف ودغنهام وغيرها. مدنٌ تشعرك ببرودة القرميد الأحمر الذي غزا كل الأماكن. وواجهات المحلات مملوءة بالشوكولا الرخيصة والراديوات. انعطفت فجأة في شارع بيوته أكبر. يا إلهي! إنه الشارع العام، ولقد أسعفتني الذاكرة كثيراً لأنني أعرف كل بوصة فيه. سأكون وسط السوق بعد مائتي ياردة أخرى، دكاننا القديم في نهاية الطرف الآخر من السوق، وسأنزل في فندق جورج، وأذهب لأراه بعد الغداء. كل نقطة في السوق مطبوعة في ذاكرتي إذ أنني أعرف كل المحلات رغم تغير أسمائها والمواد التي تبيعها، فمحل لوفغروف وتود ومحل ليلي وايت المظلم الكبير ذو الأعمدة والواجهات الناتئة

ومتجر الأقمشة حيث كانت تعمل إيلسي ومحل غريميت الذي لا يزال بقالية؛ لكنني لم أشاهد معلف الخيل بسبب سيارة كانت أمامي. انعطفت جانباً ودخلت إلى السوق ولم أجد المعلف الذي اختفى.نظر نحوي رجل إلى جانب إشارة يقوم بمهمة مرورية لجمعية سيارات، وعندما لاحظ أن سيارتي لا تحمل إشارة الجمعية لم يرحب بي. انعطفت عند الزاوية باتجاه الفندق.أحبطني اختفاء معلف الخيل، ولم أتأكد إن كانت مدخنة معمل لبيرة موجودة. لقد تبدل الفندق كله ما عدا الاسم فكانت الواجهة مزينة بشكل أنيق، وبدا واحدً من تلك الفنادق الموجودة على ضفة النهر. . حتى الشعار اختلف لكن أتذكر تفاصيل العلامة القديمة التي كانت تتمايل هناك. صورة غير متقنة للقديس جورج وهو يمتطي حصاناً هزيلاً ويدوس تنيناً سميناً، ويمكنك أن تقرأ الإمضاء الصغير في زاوية العلامة للدهان سوندرز رغم أنها كانت باهتة ومشققة، أما العلامة الجديدة نهي لوحة فنية، ومن النظرة الأولى تشعر أنها عمل فنان حقيقي بدا فيها القديس جورج شاباً عادياً مخنثاً. أما الساحة فقد رصفت بالحصى، أي المكان المخصص لوقوف عربات المزارعين والمكان الذي كان يتقيأ فيه الثملون في ليالي أيام السبت، لكنها توسعت أكثر فأكثر وتضاعف حجمها مرات وسقفت بالاسمنت المسلح وأحيطت بمواقف السيارات. ركنت سيارتي وترّجلت.

لاحظت أن عقول البشر تعمل بطريقة اهتزازية متقطعة فلا توجد عاطفة تدوم فترة طويلة من الزمن. في الربع الساعة الأخير انتابتني صدمة، وشعرت كأن لكمة قوية مزقت أحشائي عندما وقفت على قمة شامفورد وتأكدت أن لواربينفيلد قد اختفت، تلاها طعنة صغيرة بسبب اختفاء معلف الخيل. قدت سيارتي وأنا مكتئب وحزين لكن عندما ترجّلت منها ووضعت قبعتي على رأسي شعرت بعدم الاهتمام. كان يوماً مشمساً حيث بدت ساحة الفندق مثل منظر طبيعي بزهورها التي في الأصص الخضراء والأعشاب الضارة. يا إلهي إنني جائع ومتشوق للغداء.

مشيت في داخل البهو بكبرياء يتبعني عامل الفندق الذي أسرع لملاقاتي حاملاً حقيبتي. شعرت بالنجاح، وربما بدوت كرجل أعمال كبير.. لقد كنت سعيداً لأنني لبست بدلتي الجديدة القطنية الزرقاء، وأظن أنني وصلت إلى مرتبة سمسار في ذلك اليوم.قل ما شئت لكنها متعة ما بعدها متعة. طقس حزيراني جميل سطعت شمسه على الورود في الأصص التي على النوافذ وأنا أتمشى داخل فندق ريفي، وينتظرني لحم خروف مشوي وصلصة النعناع على الطاولة. ليست المتعة في الإقامة في الفنادق.. لقد جربت الكثير منها، فغالبيتها فنادق تجارية لا دين لها مثل فندق رويتم الذي من المفروض أن أكون نزيله الآن. تدفع في هذه الأماكن خمسة شلنات للنوم

والإفطار بينما ملاءاتها وشراشفها رطبة وحنفيات حماماتها صدئة ومعطلة. بدا فندق جورج حديثاً وعصرياً جداً، وليس كعهدي به في الأيام الماضية، فهو لم يكن فندقاً بالمعنى الدقيق بل كان حانة وفيها غرفة أو اثنتان للإيجار. ولقد كان يقدم الغداء للمزارعين المكون من لحم البقر المشوي واليوركشاير والزلابية وجبنة ستلتون أما الآن فكل شيء بدا مختلفاً ما عدا المشرب العام. صعدت ممراً فرش بسجادة طرية عليها طبعات تلفت الانتباه ومقالي الطبخ النحاسية وما شابهها من أشياء معلقة على الجدران فتذكرت الممر السابق ذا الأحجار المربعة ورائحة الجص الممزوجة برائحة البيرة، وهناك أيضاً امرأة جميلة شعرها مخصل ترتدي ثوباً اسود وأظنها موظفة لتسجيل الأسماء.

- هل تريد غرفة يا سيدي؟ ما هو الاسم الذي سأسجله يا سيدي؟

وأخيراً جاءت فرصتي الكبيرة، سيكون اسمي بالتأكيد معروفاً لديها وهو غير شائع، ويوجد الكثير منه في المقبرة. فعائلتنا من أقدم العائلات في بينفيلد. آل بولينغ وأجبتها متلعثماً وكنت متلهفاً لما سيحدث.

- بولينغ، السيد جورج بولينغ يا سيدتي.

- بولينغ يا سيدي؟ ب ول ي ن غ أم ب ا ول ي ن غ وهل أنت من لندن؟

لم تظهر عليها أي استجابة أو ملاحظة، فهي لم تسمع بهذا الاسم أبداً ولم تسمع بالعجوز جورج بولينغ الذي ظل ثلاثين سنة يحتسي شرابه في الحانة نفسها كل يوم سبت.

2

لقد تبدلت غرفة الطعام أيضاً لكن ما زلت أتذكر الغرفة القديمة رغم أنني لم أتناول أي وجبة فيها. خزانتها البنية وورق جدرانها البرونزي، ولم أعرف إن كان هذا اللون مقصوداً أم بسبب الدخان بالإضافة إلى لوحات زيتية على الجدران من عمل الدهان والنجار سوندرز لمعركة التل الكبير. أما الآن فقد تبدل المكان إلى أسلوب القرون الوسطى. فهناك رف موقد من القرميد، وزاوية بجانبه وعمود كبير في وسط السقف وألواح من السنديان على الجدران، وكلها زينة مزيفة بحيث يمكن اكتشاف ذلك من بعد خمسين ياردة، ماعدا العمود، فقد كان من السنديان الحقيقي لأنه أخذ من سفينة شراعية لكنه لم يكن يحمل شيئاً. ساورتني الشكوك حالما وقع بصري على الألواح. جلست إلى طاولتي وجاء نادل الشاي.. نقرت على الحائط بأصابعي.. لقد صدقت ظنوني ولم يكن خشباً إنه تركيبة مزيفة. تناولت لحم ضأن وصلصة نعناع وقنينة من النبيذ الفرنسي الأبيض جعلني أتجشأ قليلاً، لكنه أشعرني بالسعادة. كذلك كان في المطعم

شخص آخر يتناول الغداء. إنها امرأة في الثلاثين من عمرها ذات شعر أشقر. بدت كأنها أرملة فسألت نفسي إن كانت نزيلة في الفندق ورسمت خطة للتواصل معها وإقامة علاقة.

إن امتزاج المشاعر الإنسانية مضحك. كنت أرى أشباحاً لنصف الوقت حيث التصق الماضي بالحاضر. في يوم السوق (البازار) يأتي المزارعون الكبار المعروفون ويجلسون إلى طاولات كبيرة يرسلون أرجلهم تحتها ويلتهمون كميات كبيرة من لحم البقر والزلابية. إنه شيء لا يصدق ما تسعه معدة الإنسان. أما الآن فالطاولات صغيرة وهناك أغطية بيضاء لامعة ومناديل مطوية وكؤوس خمر وديكور ذو تكلفة باهظة.

لشد فكرت بالاثني عشر جنيهاً، وببدلتي الجديدة أنا جورج بولينغ الصغير! من كان يصدق أنني سأعود إلى بينفيلد بسيارتي الخاصة. غمرني الخمر بشعور دافئ وصعد من معدتي نحو الأعلى فألقيت نظرة سريعة على المرأة ذات الشعر الأشقر وجرّدتها من ثيابها في عقلي. كان التزييف وتقليد القرون الوسطى في الصالة هو نفسه، فهناك مقاعد جلدية متناسقة وطاولات بأسطح زجاجية وبعض مشروب البراندي والسيجار. كنت أرى أشباحاً لكنني كنت مستمتعاً بالمحصلة. في الحقيقة كنت ثملاً إلى حد ما وتمنيت لو أن المرأة الشقراء تأتي لأقدم نفسي وأتعرف عليها لكنها لم تظهر وانصرفت قبل موعد الشاي.

تمشيت نحو السوق وانعطفت يساراً إلى الدكان الذي لم أشاهده منذ واحد وعشرين عاماً. يوم جنازة أمي مررت به في عربة المحطة وكان مغلقاً ومغبراً ولافتته محروقة، ولم اهتم بأمره إطلاقاً، والآن تفعل بي رؤيته كل هذا الحزن الذي ينتاب قلبي وأحشائي بعد كل ذلك الزمن الطويل. نسيت تفاصيل البيت الدقيقة، وتجاوزت محل الحلاق الذي لا يزال مواظباً على عمله مع اختلاف الاسم، وتصاعدت عبر الباب رائحة الصابون اللوزي الدافئة، وليس هناك أجمل من رائحة الروم واللاتاكيا. محلنا يبعد عشرين ياردة فقط.. يا الله تبدو عليه لافتة فنية من عمل الفنان نفسه الذي رسم لافتة الفندق. يجب أن لا يأخذني العجب.

محل شاي ويندي.

قهوة صباحية.

كعك بيتي.

يا للهول محلنا تحول إلى مشرب للشاي!

وأعتقد أنه لو كان محل جزار أو خردوات أو أي شيء غير البذور ستكون دهشتي نفسها لأنه من غير المنطق أن تشعر أن حقوقك أبدية في بيت لمجرد أنك ولدت فيه بالمصادفة لكن حسناً، هناك ستائر زرقاء على النوافذ وكعكة أو اثنتان من الكعك المغطى بالشوكولا حيث توجد جوزة واحدة في قمة الكعكة. دخلت ولم يكن الشاي مرادي، لكن

يجب أن أرى ما حدث. . من الواضح أنهم حولوا الدكان والبهو إلى مشرب، لكن ماذا عن الساحة الخلفية التي كنا نرمي فيها الزبالة، ويزرع فيها أبي بعض الأعشاب. لقد رصفوها كلها وزينوها بصفائح خشبية ونبات الكوبيه. دخلت إلى البهو فكثرت الأشباح، اليانو والكتابة التي على الجدران والمقعدان الكبيران الأحمران حيث اعتاد أبي وأمي الجلوس عليهما بمواجهة بعضهما بعضاً بجانب الموقد وهما يقرآن صحيفتي الناس وأخبار العالم بعد ظهر أيام الآحاد. لقد جعلوا المكان يبدو أثرياً أكثر من الفندق مع طاولات قابلة للفتح والطي وثريات وأطباق قصديرية معلقة على الجدران ومجموعة من الرفوف. هل لاحظت العتمة التي ينجحون في خلقها في مشارب الشاي والمقاهي. . . . . تلك؟ إنها جزء من الأصالة كما اعتقد، وبدلاً من النادل العادي هناك شابة في إزار عليه طبعات استقبلتني بوجه متجهم. طلبت كوباً من الشاي فأحضرته بعد عشر دقائق. شاي صيني خفيف تظن أنه ماء حتى تضع فيه الحليب. جلست في المكان الذي كان أبي يألفه، والآن أستطيع سماع صوته وهو يتلو مقطعاً من صحيفة الناس عن الآلات الطائرة وعن شاب بلعه الحوت، وانتابني شعور خاص بأنني مدّعٍ كاذب، وبإمكانهم طردي إلى الخارج إن اكتشفوا من أنا وفي ذات الوقت لدي شوق كبير للتحدث مع أي شخص كي أخبره بأنني ولدت هنا وأنني أنتمي إلى

هذا البيت أو أن هذا البيت لي. لم يكن في المشرب غيري، أما الفتاة فكانت تقف بجانب النافذة، ولو لم أكن موجوداً لنكشت أسنانها. عضضت على إحدى قطع الكعك الذي لم يكن بيتياً بل كان بالسمنة النباتية وأخيراً لم اقدر منع نفسي من الكلام.

- هل تعيشين في بينفيلد منذ زمن طويل؟

بدت مندهشة ولم ترد فحاولت ثانية.

- كنت أعيش في بينفيلد في الماضي البعيد.

لم ترد للمرة الثانية، ورمقتني بنظرة لامبالاة وتابعت النظر من النافذة. أدركت أنها سيدة أكبر من أن تدخل في أحاديث جانبية مع الزبائن وربما ظنت أنني أحاول مغازلتها.

ما الفائدة من إخبارها أنني ولدت هنا في هذا البيت؟ حتى لو صدقت فإنّ ذلك لا يهمها، وهي لم تسمع بصاموئيل بولينغ تاجر الذرة والبذور. دفعت الحساب وانصرفت.

تابعت سيري بانجاه الكنيسة خائفاً ولدي خوف من أن يعرفني أحد الناس الموجودين هناك، لكن لا داعي للقلق، فلا يوجد أي شخص اعرفه في كل الشارع، فقد بدت البلدة بسكانها الجدد وعندما وصلت إلى الكنيسة عرفت لماذا لديهم مقبرة جديدة.لقد كانت المقبرة مملوءة ونصف القبور تحمل أسماء لا أعرفها لكن كان من السهل عليّ إيجاد القبور التي أعرفها. فتجولت بينها، لقد كان العشب مقصوصاً ورائحة

الصيف في المكان، كلهم رحلوا. . كل الناس الكبار في السن كانوا مستلقين هنا، شوتر ووذراول كانا مقابل بعضهما بعضاً على جانبي الممر. أما وذراول فلم يعمّر حتى المائة، فقد ولد في 1843 وغادر الدنيا في 1928 لكنه هزم شوتر كعادته الذي مات في عام 1926. ولقد عاش آخر سنتين من حياته ينشد لوحده، وهذا العجوز غريميت تحت قطعة ضخمة من المرمر على شكل فطيرة تحيط بها قضبان حديدية، أما في الزاوية فبقعة كاملة لآل سيمونز تحت شواهد رخيصة وصغيرة. كلهم عادوا إلى التراب، العجوز هودجز بأسنانه الملونة بلون التبغ ولوفغروف بلحيته البنية وعمته هاري بارنز صاحبة العين الزجاجية وبرور صاحب مزرعة الطاحونة بوجهه الهرم الشرير المنحوت من جوزة. لم يبقَ منهم شيء سوى ألواح حجرية، ولا يعلم إلا الله ماذا يوجد تحتها. وجدت قبرَيْ أمي وأبي بجانب بعضهما بعضاً، ولقد كانا بوضع جيد لأن القندلفت قص من حولهما الأعشاب، أما قبر العم ايزكيل فقد كان أبعد قليلاً ولكن هناك قبور أخرى كثيرة سويت بالأرض وكانت بشواهد خشبية.

ماذا تشعر عندما تقف أمام قبرَيْ والديك بعد عشرين سنة من وفاتهما؟ لا أعرف بماذا يجب أن تشعر، لكنني لم أشعر بشيء. لم يغب أبي وأمي عن بالي، بل كانا موجودين في مكان آخر في نوع من الأبدية. أمي وراء إبريق الشاي

البني، وأبي برأسه الأصلع الأغبر وشاربه الرمادي. صور ثابتة إلى الأبد وكأنهما شخوص في لوحة، لكنهما أحياء بشكل ما ولا علاقة لهما بصناديق العظام الملقاة تحت الأرض أمامي. لقد تساءلت وأنا أقف ماذا تشعر عندما تكون تحت التراب، إن كان هذا يهمك ومتى يتوقف اهتمامك. وفجأة غمرني ظل ثقيل ونظرت فرأيت طائرة قاذفة تطير بيني وبين الشمس فسببت لي رجفة صغيرة.

تقدمت إلى داخل الكنيسة. لم أشعر بالأشباح لأول مرة منذ أن عدت إلى بينفيلد، لكنها ربما كانت موجودة بشكل مختلف. لم يتبدل شيء في المكان ما عدا أن الناس رحلوا كلهم حتى مساند الاقدام كانت نفسها، وكذلك الغبار ورائحة الجثث الحلوة والفنحة نفسها في النافذة، رغم أن الوقت مساء والشمس في الطرف الآخر. كانت بقعة الضوء تزحف ببطء إلى الممر ولا تزال المناضد هي نفسها التي لم تستبدل بالكراسي. لقد رأيت منضدتنا، كذلك شاهدت الأخرى التي أمامها حيث يقف وذراول يجأر بصوته ضد شوتر وسيحون ملك العموريين وارغ ملك بيسان وأحجار الممر البالية وشواهد القبور التي رقد تحتها الرجال؛ ويمكنك أيضاً قراءة النقوش التي كتبت عليها. جلست القرفصاء لألقي نظرة على المنضدة التي أمام منضدتنا. لا أزال أحفظ الأشياء المقروءة عن ظهر قلب والشكل الذي التصقت فيه بذاكرتي، ويعلم الله

كم مرة قرأتها إثناء الصلاة.

هنا.................فون. السيد

مستقيماً............لى....... هباته الكثيرة الخاصة

أضاع. مجتهد.......

....

.... زوجته المحبوبة.

اميليا، بواسطة............. وأنجبت سبع

بنات.....................

وتذكرت كيف كان حرف السين الطويل يحيرني عندما كنت ولداً، وكنت أتعجب لماذا يكتبونه مثل حرف الفاء. سمعت وقع أقدام. نظرت إلى الأعلى فرأيت رجلاً في رداء كاهن يقف فوقي. إنه القس. قصدت بالقس العجوز بيترتون قسّنا في الأيام الماضية منذ أول عام 1904. عرفته على الفور رغم شعره الذي غزاه الشّيب، لكنه لم يعرفني. رجل سمين في بدلة زرقاء يتفرج على المناطق السياحية. حيّاني تحية المساء وبدأ حديثه المعتاد عن الهندسة المعمارية والأبنية الهامة والنوافير التي ترجع إلى عصور الساكسونيين وهلم جرّاً. كان يرتعش وهو يريني المناظر؛ هذا قوس نورماندي يؤدي إلى حجرة الاجتماعات، وذاك تمثال نحاسي للسير رودريك بون الذي قتل في معركة نيوبيري حيث تبعته مثل كلب جلد بسوط ومثل رجال الأعمال المتوسطي العمر

عندما يظهرون في كنيسة أو معرض فني. لكن ماذا لو قلت له إنني أعرف كل هذا من قبل، وإنني جورج بولينغ ابن صاموئيل بولينغ؟ هل سيتذكر أبي إن لم يتذكرني؟ وإنني سمعت صلواته طيلة عشر سنوات وذهبت إلى دروس التثبيت الديني وكنت منتسباً إلى مجموعة بينفيلد للقراءة وأخذت كتابي (افتح يا سمسم) و(ليليز) كي أرضيه فقط. لكن لم أفعل ذلك، بل لحقت به مدمدماً مثلما تفعل عندما يخبرك أحد أن هذا الشيء أو ذاك عمره خمسمائة سنة ولا تعرف بماذا ترد سوى أنه لا يبدو كذلك. منذ اللحظة التي وقعت فيها عيني عليه قررت أن ادعه يظنني غريباً. لكن لماذا؟ لماذا لم أتحدث معه بعد أن وجدت شخصاً أعرفه؟ قد تظن أن شكله الذي تغير في العشرين سنة الماضية قد أخافني فعلياً، أقصد أنه بدا بعمر أكبر سناً. لا على العكس تماماً وقد علمني شيئاً عن مرور الزمن.

أعتقد أن العجوز بيترتون في الخامسة والستين تقريباً. وعندما رأيته لأول مرة كان في الخامسة والأربعين، يعني في مثل عمري الآن. ومنذ ذلك الحين كان شعره أبيض وفي اليوم الذي دفن فيه أمي كان رمادياً مقلماً مثل فرشاة الحلاقة، لكن فور رؤيتي له شعرت أنه بدا أصغر عمراً لأنني ظننت أنه بات هرماً بعد كل ذلك الزمن. كذلك خطر ببالي أيضاً أن كل من تجاوز الأربعين يبدو حطاماً قديماً لدرجة أن

هؤلاء الأشخاص تختفي الفروق بينهم. وبدا لي الرجل في الخامسة والأربعين أكبر سناً من هذا العجوز المرتعش ابن الخامسة والستين، ويا للهول أنا في الخامسة والأربعين أيضاً، وأبدو هكذا لشباب في سن العشرين. فكرت أنني انتهيت عندما كنت بين القبور، وأنني لست سوى عجوز مسكين بدين وغريب فلماذا اهتم بعمري الآن؟ نعم أنا سمين لكنني قوي وسليم وأستطيع القيام بأي عمل أريده. إنَّ رائحة الأزهار لا تزال هي نفسها بالنسبة لي، لكن هل رائحتي هي نفسها بالنسبة للأزهار؟ قدمت فتاة في الثامنة عشرة على طريق المقبرة، وكانت مجبرة أن تمر من على بعد ياردة أو اثنتين مني فرأيت النظرة التي رمتني بها مثل حيوان بري تلتقي عيونك بعيونه.

لقد ولدت وترعرعت في السنوات العشرين التي كنت بعيداً فيها عن بينفيلد، وكل ذكرياتي ستبدو لها بلا معنى لأنها عاشت في عالم مختلف عن عالمي. عدت إلى الفندق ورغبت في تناول شيء ما لكن البار لن يفتح قبل مضي نصف ساعة أخرى. تلكأت قليلاً في قراءة أخبار الرياضة والمسرح في أعداد دورية من العام الماضي ثم دخلت السيدة ذات الشعر الأشقر التي افترضت أنها أرملة وتملكتني رغبة قاتلة لمغازلتها. أردت أن أثبت لنفسي أنني ما زلت شاباً وأفيض بالحيوية والنشاط رغم عمري وأسناني الاصطناعية،

وبدا لي الأمر مناسباً، فهي في الثلاثين وأنا في الخامسة والأربعين. وقفت أمام الموقد الفارغ متظاهراً أنني أدفئ ظهري، ولم يظهر عليّ أنني سيء جداً ولا ممتاز جداً في بدلتي الزرقاء إنما سمين قليلاً، ولن أبدو أوسم رجل في العالم ويمكن أن أرتقي إلى مرتبة سمسار. استخدمت أفضل لهجة عندي وقلت:

- أليس هذا الطقس الحزيراني رائعاً؟

كانت ملاحظة جميلة وغير ضارة وليست مثل عبارة هل التقينا في مكان ما سابقاً؟ لكنها لم تنجح فلم ترد. أخفضت الجريدة التي كانت تقرأها لنصف ثانية ورمتني بنظرة مرعبة شقت النافذة. عيونها زرقاء كتلك التي تخترقك كالرصاصة، وفي نصف الثانية هذه أدركت كم أجحفت بحقها. لم تكن من الأرامل اللواتي يصبغن شعورهن ويذهبن مع الرجال إلى الحفلات الراقصة. كانت من الطبقة الوسطى العالية وقد تكون ابنة أدميرال وأُرسلت إلى إحدى المدارس الجيدة ولعبت الهوكي. لقد أخطأت بحق نفسي، ففي بدلة جيدة أو بدونها فلن أصل إلى مستوى سمسار في البورصة وإنما مجرد بائع متنقل صدف أن أصابه حظ قليل من الكعكة. تسللت إلى خارج البار الخاص من أجل قدح أو اثنين قبل العشاء.

حتى البيرة لم تكن نفسها، أتذكر البيرة القديمة، بيرة وادي التيمز الجيدة التي لها بعض الطعم لأنها مصنوعة

بالمياه الكلسية.

– هل لا يزال معمل البيرة لآل يسمر؟

– آل يسمر؟ أوه كلا يا سيدي! لقد رحلوا منذ سنين، قبل أن نأتي بكثير.

كانت من النموذج الودود أو ما يطلق عليه اسم الأخت الكبيرة بين النادلات. إنها في الخامسة والثلاثين، وجهها طري وناعم ويداها سمينتان من جراء عملها على مقبض سكب البيرة حيث ذكرت لي اسم الاتحاد المالك للمعمل الآن. إن شكل البارات اختلف الآن عما كان عليه فهي دائرية ومقسمة إلى حجرات. كان هناك شابان يلعبان لعبة السهام في الوسط، وفي المكان المقابل الذي لم أكن أراه جيداً يقف شاب آخر يدلي بملاحظات بصوت كئيب وعميق. أسندت النادلة كوعيها على البار وبدأنا نتحدث. ذكرت لها كل الأسماء التي أعرفها لكنها لم تسمع بأي واحد منهم حتى تريو صاحب الفندق لسابق.

– لقد عشت فترة طويلة في بينفيلد قبل الحرب. قلت:

– هل ترى أية تعديلات، قال الشاب صاحب الملاحظات.

– لقد كبرت البلدة واعتقد أيضاً المصانع.

– أغلبهم يعمل في المصانع، مصانع الحياكة ومصانع الجوارب لكنهم يصنعون الآن القنابل طبعاً، قالت النادلة.

لم أفهم لماذا قالت طبعاً وسردت لي أن صاحبها يعمل في معمل البيرة وهو يرتاد الفندق أحياناً، وأخبرها بأنهم يصنعون القنابل بالإضافة إلى الجوارب. كذلك تحدث عن إنشاء مطار عسكري كبير قرب ولتون مخصص للطائرات القاذفة التي نراها في الجو دائماً. في اللحظة التي تلت ذلك دخلنا في حديث عن الحرب، ومما يضحك في الأمر أن هروبي إلى بينفيلد ودافعي الأساسي كان سببه فكرة الحرب، لكن يبدو أن تفادي هذا الموضوع شبه مستحيل بأي طريقة لأنه في الهواء الذي نتنفسه. قلت إنها ستحدث في عام 1941 وقال الشاب صاحب الملاحظات إنها عمل قذر، أما النادلة فقالت إن التفكير فيها يرعبها إلى درجة الشلل وقالت أيضاً:

- إن كل ما قيل واتخذ من تدابير وإجراءات لن يفيد. أحياناً أستلقي على السرير وأعجز عن النوم وأسمع في الليل أصوات تلك الأشياء التي تطير في الأعلى وأقول لنفسي: لنفترض أن القنبلة سقطت فوق رأسي مباشرة فما هي فائدة الأوامر وتعليمات السلامة وتوجيهات الآنسة المضيفة هودجز وادعاءاتها بأن الأمور ستكون على ما يرام إن حافظنا على هدوئنا وسددنا النوافذ بالجرائد. ويقولون أيضاً إنهم سيحفرون ملجأ تحت بيت البلدية لكن الذي فكرت فيه هو كيف سيضعون أقنعة الغاز على وجوه الأطفال.

رد الشاب قائلاً إنه قرأ في الجريدة عن وجوب البقاء داخل حمام ساخن حتى ينتهي الأمر، وسمع الرجال الذين في البار العام هذا فدار كلام جانبي حول الموضوع، وكيف سيدخل عدد كبير من الناس في حمام واحد معاً، وكم يجب أن يكون العدد، وسألا النادلة إن كان بإمكانهما الدخول معها إلى حمامها، نطلبت منهما أن يكفا عن وقاحتهما ثم ذهبت إلى الطرف الآخر من البار ورمت لهما قدحين من البيرة. تناولت رشفة من كأس البيرة فشعرت بطعم سيء ومر جداً، مذاق من الكبريت والمواد الكيماوية الأخرى حيث لم تعد نبتة الدينار تدخل في تركيب البيرة لأنها استبدلت بمواد كيميائية. ووجدت نفسي أفكر بالعم ايزكيل، وما قاله عن هذه البيرة، وما كان سيقوله عن التعليمات العسكرية وأكياس الرمل التي من المفترض أنها ستطفئ القنابل الحرارية. وعندما عادت النادلة إلى جانبي قلت:

– بالمناسبة من يملك القاعة الآن؟

كنا نطلق على بيت بينفيلد اسم القاعة سابقاً وبدا أنها لم تفهم.

– يقصد بالقاعة بيت بينفيلد، قال الشاب.

– أوه بيت بينفيلد، ظننت أنك قصدت صالة النصب التذكاري. المالك الحالي هو الدكتور ميرال.

– الدكتور ميرال؟

- نعم يا سيدي ولديه أكثر من ستين مريضاً هناك.
- مريض؟ هل تحول المكان إلى مستشفى أو ما شابه ذلك؟
- إنه ليس مستشفى عادياً إنما مصح للمرضى العقليين، في الواقع إنه بيت للمجانين.

وماذا يمكن أن تتوقع بعد أكثر من ذلك؟

3

غادرت السرير وأنا أشعر بطعم سيء في فمي، وبأن عظامي تطقطق. ماذا تتوقع بعد قارورة من الخمر على الغداء وأخرى على العشاء وعدد من كؤوس البراندي بينهما، لقد شربت كثيراً في اليوم السابق. وقفت دقائق على السجادة عاجزاً عن الحركة وتائه النظرات. إنك تعرف ذلك الشعور الفظيع الذي يصيبك في الصباح الباكر أحياناً، شعور بالوهن في ساقيك الذي يقول لك بطريقة أفصح من الكلام لماذا تستمر بحق الجحيم؟ ارمها بعيداً وتخلص منها أيها الرجل والصق رأسك بفرن الغاز!

وضعت طاقم أسناني الاصطناعية ني فمي وذهبت إلى النافذة. كان يوماً حزيرانياً جميلاً بدأت شمسه تميل فوق السطوح وتطل على واجهات البيوت الموجودة على الطرف الآخر من الشارع، وبدت زهرة إبرة الراعي جميلة في

الأصص التي في النوافذ ومجموعة كبيرة من الناس تأتي وتروح على الرغم من أن الوقت كان باكراً ولم تبلغ الساعة الثامنة والنصف. وفي شارع فرعي سيل من الموظفين في بدلاتهم القاتمة وحقائبهم يسيرون بسرعة في ذات الاتجاه للحاق بقطار الأنفاق، وهذا ما يحدث في كل ضواحي لندن. كذلك كان أطفال المدارس ينتشرون في تشكيلات مؤلفة من اثنين أو ثلاثة دون انتظام. شعرت بذات الشعور الذي انتابني في اليوم السابق عندما رأيت غابة البيوت الحمراء التي ابتلعت تل شمفورد. هؤلاء المتطفلون القذرون يتمشون ذهاباً وإياباً، عشرون ألف دخيل لا يعرفون اسمي وأنا هنا عجوز بأسنان اصطناعية أنظر إليهم من النافذة وأدمدم بهراء عن أشياء قديمة لا يريد أحد سماعها، أشياء حدثت منذ ثلاثين أو أربعين سنة.

يا إلهي لقد كنت مخطئاً بالظن أنني أرى أشباحاً وإنما أنا الشبح. نعم أنا الميت وهم الأحياء. بعد الإفطار المؤلف من سمك وكلى مشوية وخبز محمص ومرملات وإبريق قهوة أصبحت بمزاج أفضل. لم تكن السيدة الباردة تتناول فطورها في غرفة الطعام. لقد كان الجو صيفياً جميلاً ولم أتمكن من التخلص من شعوري بالتميز بفضل بدلتي الزرقاء القطنية. يا الله أنا شبح إذاً! سأكون شبحاً وسأرتاد الأماكن القديمة، وأمارس قليلاً من السحر الأسود على بعض هؤلاء

المتشردين الذين سرقوا بيتي وبلدتي. خرجت، لكن لم أذهب إلى السوق بعد عندما شدني شيء لم أتوقع رؤيته. إنه موكب يتألف من خمسين طالباً من الطلاب الصغار يمشون مشية عسكرية في ارتال مؤلفة من أربعة ومعهم امرأة مكشّرة تمشي بجانبهم كأنها رقيب في الجيش. وكان القادة الأربعة يحملون راية بالأحمر والأبيض أما حدودها الزرقاء على الحواف فقد كتب عليها بحروف ضخمة: البريطانيون مستعدون.

خرج الحلاق الذي في الزاوية ووقف على درج الباب ينظر إليهم. تحدثت إليه.. إنه شاب شعره اسود لامع لكن وجهه تلوح منه ملامح الغباء.

- ماذا يفعل هؤلاء الصغار؟

- هذا تمرين على الغارات الجوية قالها بغموض هذا ت. غ.ج. وتلك هي الآنسة تودجرز. ويمكنك معرفة ذلك من عينيها. إنها عجوز شيطانية صلبة بشعر رمادي ووجه منظف ومملح كوجه مرشدة في جمعية الشباب العالمي وبيوت الشباب وأمثالها. كانت ترتدي معطفاً وتنورة يشبهان اللباس العسكري حيث يوحي منظرها أنها تضع حزام سام براون. إنني أعرف هذا الصنف جيداً.. فلقد كانت في الجيش النسائي في الحرب ولم تحظَ بيوم متعة بعدها، وهذا التمرين كان دافعاً لها وعند مرور الأولاد بجانبي سمعتها

تصرخ كالرقيب تماماً: مونيكا ارفعي قدمك عالياً! ورأيت الأربعة الذين في المؤخرة يحملون راية بالأحمر والأبيض وحدود زرقاء في وسطها.

- نحن مستعدون فهل انتم كذلك؟

- لماذا يمشون ذهاباً وإياباً؟ سألت الحلاق.

- لا أعرف لكن أعتقد أنه نوع من أنواع الدعاية.

لقد عرفت الإجابة.. إنهم يحولون عقول الصغار إلى عقول عسكرية ويوهمون الجميع بأن الأمر لا مفر منه. فالقاذفات قادمة بالتأكيد كقدوم عيد الميلاد، لهذا اختبئوا داخل الأقبية ولا تناتشوا. كانت طائرتان كيرتان من ولتون تهدران فوق الطرف الشرقي من البلدة. يا إلهي عندما تبدأ فلن تدهش أحداً وستكون عادية مثل زخة من المطر. كذلك أخبرني الحلاق أن جهود الآنسة تودجرز أثمرت في الحصول على أقنعة غاز للطلبة.

حسناً، بدأت أكتشف المدينة، أمضيت يومين في التجوال حول المعالم القديمة بقدر ما استطعت تمييزه، وطوال ذلك الوقت لم أصادف أحداً يعرفني. كنت شبحاً رغم أنني لم أكن غير مرئي فعلياً. كان شيئاً أغرب من القول: هل قرأت قصة هـ.ج. ويللز عن الرجل الذي كان في مكانين مختلفين في الوقت نفسه. أي في الواقع كان في بيته لكن لديه هلوسة ووهم أنه في عمق البحر، وأنه يتمشى

في غرفته فيرى الأعشاب المائية المتموجة والسرطانات الكبيرة والحبار وهي تمد أطرافها نحوه بدلاً من الكراسي والطاولات، وأنا أمشي منذ أربع ساعات في عالم غير موجود. سأعد خطراتي وأنا أهبط الدرج. هنا يبدأ حقل فلان حيث كان السياج يتجاوز الشارع ويمر عبر ذلك البيت، ومحطة الوقود تلك كانت شجرة حور، وهذا سياج البساتين وذلك هو الشارع المؤلف من صف من البيوت المنفصلة واسمه كمبرلدج على ما أذكر. لقد كان مشجراً، وكم تمشينا فيه كثيراً مع كاثي سيمونز حيث كانت أشجار الجوز على الجانبين. لا شك بأنني أخطأت في تقدير المسافة، لكن الاتجاهات العامة كانت صحيحة. لن يصدق من لم يولد هنا أن تلك الشوارع كانت حقولاً منذ فترة قصيرة لا تتجاوز العشرين عاماً وكأن لريف دفن باندلاع بركاني من الضواحي الخارجية. ابتلعت دار الإسكان أرض بروز وتلاشت مزرعة الطاحونة وجففت بركة البقر التي اصطدت فيها أول سمكة وردمت وبني فوقها، وبات من الصعب عليّ أن أحدد موقعها بالضبط؛ البيوت كلها متشابهة، فهي مكعبات حمراء صغيرة متماثلة وأسيجة من نبات الجناب وممرات مسفلتة تؤدي إلى المداخل؛ وتضيق البلدة قليلاً خلف المجلس البلدي، لكن البنائين غير المؤهلين يقومون ما بوسعهم، فهناك عقدة من البيوت متناثرة حيثما وجد من يقدر على شراء أرض. وهناك

قطع من الأرض الفارغة التي عليها ألواح البنائين وبقايا حقول مغطاة بالشوك وعلب القصدير الفارغة.

أما في الطرف الآخر من وسط المدينة فلم تتبدل الأشياء كثيراً، حيث إن المحلات لا تزال تقوم بذات التجارة مع اختلاف في الأسماء؛ فمحل ليلي وايت لا يزال يبيع الأقمشة لكن يبدو أنه غير ناجح، ومحل الجزار غرافيت يبيع أجهزة الراديو الآن وواجهة محل الأم ويللر سدت وبقالية غريميت لا تزال كما هي لكن استولت عليها انترناشينال. إنَّ هذا يعطي فكرة عن قوة الشركات الكبرى فهي قادرة على ابتلاع الذكي والبخيل من أمثال العجوز غريميت، ولكن أنا متأكد بأنه صعد إلى السماء ومعه عشرة أو خمسة عشر ألف جنيه، لكن بالطبع لم يكتب ذلك على شاهدة قبره. أما المحل الوحيد الذي لا يزال يحمل اسم صاحبه السابق هو آل سارازينز الذين عملوا على إضعاف تجارة أبي. لقد ازدادت أعمالهم وانتشرت إلى أبعاد غير متوقعة ولديهم فرع ضخم آخر في القسم الجديد من المدينة لكنهم تحولوا إلى مخزن عام يبيع الأثاث والأدوية والخردوات بالإضافة إلى مستلزمات البستنة.

في معظم اليومين اللذين تجولت فيهما لم أكن أتوجع ولم أكن مقيّداً بسلاسل، ولكنني تمنيت ذلك أحياناً بالإضافة إلى أنني كنت أتناول الخمر أكثر مما احتمل إذ منذ وصولي

إلى بينفيلد بدأت بالشرب ومن بعدها صرت أشعر أن الحانات لا تفتح في وقت مبكر حيث كان لساني يتدلى من فمي عطشاً في النصف الساعة الأخيرة التي تسبق ساعة الافتتاح.

لم أكن بالمزاج نفسه طول الوقت ولا يهمني إن ألغيت بينفيلد تماماً، وأخيراً ألم أسافر إلى هنا هرباً من العائلة؟ كذلك ليس هناك ما يمنعني من فعل ما أريد من أشياء حتى صيد السمك.

ذهبت عصر السبت إلى محل بيع معدات صيد السمك في الشارع العام فاشتريت عصا صنارة من النوع الذي كنت أفضّله منذ أن كنت صبياً وكانت هي الأغلى من غيرها إضافة إلى كلّابات وبعض الخيوط وغيرها. لقد أبهجني جو المحل، فمهما تبدلت الأشياء فان عدة الصيد لن تتبدل كذلك لم يرَ البائع ما هو مستغرب في أن يشتري رجل متوسط العمر مثلي عدة صيد، بل على العكس فقد تبادلنا حديثاً قصيراً عن الصيد في التيمز وسمكة كارب كبيرة اصطادها شخص في السنة الماضية بعجينة من الخبز الأسمر والعسل وشرائح من لحم أرنب مسلوق، ولم أخبره عن هدفي من شرائها لكن بصعوبة اعترفت لنفسي بالسبب. لقد اشتريت أقوى خيط سلمون لديه وكلّابات نمرة خمسة من أجل سمك الروش آملاً في سمكات الكارب الكبيرة في بيت بينفيلد.

أمضيت جل صباح الأحد في نقاش مع نفسي إنْ كنت سأذهب إلى الصيد أم لا. فأحياناً أقول لماذا لا أذهب وأحياناً أخرى اعتبر الصيد من الأشياء التي نحلم بها ولا نعمل لتحقيقها، لكنني أخرجت السيارة بعد الظهر واتجهت إلى برفوردوير وفكرت بأنْ ألقي نظرة على النهر، إذ ربما في الغد أحمل صنارة لصيد الجديدة وألبس معطفي القديم وبنطالي القطني الرمادي إن كان الطقس جيداً وأمضي يوماً ممتازاً أو ثلاثة أو أربعة أيام إن أحييت.

ذهبت الى شامفورد، وعلى الطريق عند السفح الموازي للممر ترجّلت من السيارة ومشيت. عقدة من البيوت الحمراء والبيضاء تناثرت بجانب الطريق. كان يجب أن أتوقع ذلك حيث كانت سيارات كثيرة متوقفة في الجوار، وكنت كلما اقتربت من النهر أكثر أسمع أصوات بلونك تيدل بلونك تيدل. نعم إنها أصوات الهواتف. يا لها من خيبة أمل. كان المكان أسود من كثرة الناس أما محلات المروج المائية فقد غدت مقاهي فيها آلات تبيع الشراب بواسطة النقود التي توضع في داخلها ورجال يبيعون الآيس كريم عندها تذكرت الممشى القديم. كنا نمشي أميالاً دون أن يصادفنا أحد ما عدا رجال أمام البوابات المغلقة، وبين الحين والآخر ترى أحد أصحاب المراكب التي تنقل البضائع يسير خلف حصانه. كنا نذهب إلى الصيد ولم يكن يوجد أحد سوانا،

فكنت أجلس طوال فترة العصر هناك بينما يقف مالك الحزين في المياه الضحلة على بعد خمسين ياردة عن الضفة، وتمر أربع ساعات دون أن يخيفه وجود أحد. من أين أتت فكرة أن الرجل الناضج يجب أن لا يذهب إلى الصيد؟ على طول نهر التيمز كانت هناك سلسلة من الرجال الذين يصيدون السمك بمعدل رجل في كل خمس ياردات فتعجبت من كيفية وصولهم إلى هنا، وخطر ببالي وجوب وجود نادٍ للصيد أو أكثر. كان النهر مزدحماً بالقوارب، قوارب تجديف وقوارب طويلة ورفيعة وأخرى بمحركات تغصّ بشباب حمقى يصيحون ويصرخون، ويستخدمون الهواتف أيضاً. أسطول من الشياطين يتدحرج نحو الأعلى وباتجاه الأسفل على الأمواج التي تخلفها المحركات وراءها.

مشيت نحو الأبعد قليلاً، فرأيت مياهاً قذرة متلاطمة. وعلى الرغم من أن اليوم كان جميلاً فلم يتمكنوا من اصطياد أي سمكة حتى وإن كانت صغيرة لأن حشداً بهذا القدر يخيف أسماك الكون كلها. نظرت إلى الفلينات التي كانت تعلو وتهبط وسط أغلفة الآيس كريم وأكياس الورق فساورني الشك بوجود أي سمكة. فتساءلت هل لا يزال هناك أسماك في التيمز؟ أعتقد أنه يجب ذلك، وأقسم أن مياهه لم تكن كذلك. لقد تبدلت المياه لأنني أتذكر كيف كانت. لقد اختلف لونها تماماً. قد تظن أن هذا محض خيال لذلك أؤكد

الهامش وتسمح للآخرين أخذ نتائج ما قمت به من عمل بنفسك. أنت حساس وعاطفي وأسوأ عيوبك هو كرمك. سيكبر شأنك كثيراً. الوزن أربعة عشر حجراً وأحد عشر رطلاً.

لقد ازداد وزني أربعة أرطال في الأيام الثلاثة الأخيرة بسبب تناول الخمر.

4

عدت بسيارتي إلى الفندق وركنتها في المرأب ثم تناولت كوباً من الشاي في وقت متأخر لأن البار لن يفتح قبل ساعة أو ساعتين. خرجت أتمشى باتجاه الكنيسة في برودة المساء، وبينما كنت أعبر السوق لاحظت امرأة تمشي أمامي وغير بعيدة عني، ومن أول ما وقعت عيني عليها شعرت كأنني رأيت وجهها في مكان ما سابقاً. لم أتمكن من رؤية وجهها، ولم استطع التعرف عليها من منظرها الخلفي لكن أحلف أنني أعرفها. تابعت سيرها في الشارع العام ثم انعطفت في شارع جانبي على اليمين في المكان الذي كان فيه محل العم ايزيكيل. لحقت بها ولم أعرف السبب بالضبط. مبدئياً بسبب الفضول وربما هو نوع من الحيطة من أن يتعرف عليّ أحد الناس الذين أعرفهم من السابق في بينفيلد. لقد خطر لي أنها قد تكون من بيلشلي الغربية،

ويجب أن أكون حذراً لأنها إن اكتشفت وجودي هنا فستبلغ هيلدا. تابعتها بحذر تاركاً مسافة أمان بيننا، وتفحصتها من الخلف قدر ما استطعت. لم يكن أي شيء جذاب فيها، فهي تميل للطول والبدانة وبين الأربعين والخمسين من عمرها، ترتدي ثوباً أسود وبدون قبعة، إذ يبدو أنها خرجت من بيتها قبل قليل، أما طريقة مشيها فإنها توحي بأن كعب حذائها بالياً. إجمالاً كان منظرها قذراً، وللآن ليس هناك ما يوحي بالتعرف عليها ماعدا الشيء الغامض الذي رأيته من منظرها الخلفي. شيء في حركاتها. دخلت إلى محل صغير من المحلات التي لا تقفل أبوابها أيام الآحاد وأخذت قطعة حلويات صغيرة وورق بقالة، وكانت صاحبة المحل تتابع شيئاً ما مع حامل بطاقات بريدية حيث وقفت امرأتي معها لتمضي بقية يومها. وقفت أيضاً عندما وجدت واجهة محل متظاهراً بالنظر إلى داخله. لقد كانت واجهة محل سمكري وديكور مملوءة بنماذج لورق جدران ولوازم الحمامات وأشياء أخرى. كنت هذه المرة على بعد خمس عشرة ياردة منهما ويمكنني سماع حديثهما وهما ترطنان بواحد من أحاديث النساء عندما يردن فقط تمضية يومهن.

نعم هذا ما كان تماماً. هذا مكانها تماماً. قلت لها ماذا تتوقعين؟ إنني لست مصيبة. . . . . لكن ما الفائدة؟ وهل يجب أن نتحدث إلى حجر؟ يا للعار. . . وهلم جراً. كان

الجو يزداد دفئاً، ومن الواضح أن امرأتي هي زوجة حانوتي صغير مثل الأخرى، وتساءلت إن كانت من معارفي في بينفيلد. لكن أخيراً يا إلهي.. إنها إيلسي ولا مجال للخطأ أبداً. إيلسي أصبحت تلك العجوز الشمطاء السمينة!.

صدمت كثيراً ليس بسبب رؤية إيلسي بل بسبب الشكل الذي آلت إليه، وتجمعت للحظة أمام عيوني الحنفيات النحاسية والسدادات المدورة والبورسلان وأشياء بدت خافتة وباهتة وبعيدة لذلك رأيتها ولم أرها، وفي اللحظة التالية انتابني ذعر مميت من أن تعرفني، لكنها نظرت بقوة في عيني وتابعت سيرها فلحقت بها ثانية. قد تعرف أنني ألاحقها، وهذا خطير إن تساءلت من أكون، لكن يجب أن ألقي نظرة ثانية عليها. في الحقيقة مارست عليّ نوعاً من السحر المخيف ويمكن القول إنني أراها الآن بعيون مختلفة عمّا رأيتها من قبل.

شيء فظيع! لقد حصلت على أشياء كثيرة من خلال تفحصي لمنظرها من الخلف. مرعب ما تفعله فترات من الزمن في امرأة. منذ أربع وعشرين سنة فقط كانت تلك الفتاة بلون أبيض حليبي وفم مدور وشعر ذهبي كشعر لعبة لكنها الآن تحولت إلى عجوز مكورة الكتفين، تمشي متثاقلة على كعبين معوجين، ولقد أسعدني أنني رجل، إذ لا يمكن له أن يصبح بهذا الشكل. فظيع ما حدث لوركيها فقد تلاشى

خصرها وبدت مثل اسطوانة غليظة وطرية أو ككيس من الطحين. لحقت بها مسافة طويلة إلى خارج البلدة وفي شوارع صغيرة قذرة لم أعرفها وانعطفت أخيراً إلى مدخل محل آخر ودخلت. من الواضح أنها تملك ذلك المحل. توقفت لحظة أمام الواجهة وقرأت ج. كوكس حلواني وبائع تبغ. كان محلاً صغيراً أجرب كسابقه الذي دخلت إليه. لونه مصفر بسبب بيض الذباب المتراكم عليه. إنه لا يبيع إلا التبغ ونوعاً رخيصاً من الحلويات، فتساءلت ماذا سأشتري، لكن ذلك لم يستغرق سوى دقيقة أو اثنتين حين رأيت مجموعة من الغلايين الرخيصة في الواجهة وكذلك بعضاً من التبغ. كان عليّ أن أضبط أعصابي قبل أن أدخل، وربما قد تكون هناك حاجة للكذب المحكم إن حدث وتعرفت عليّ. اختفت في الغرفة الخلفية من الدكان لكنها عادت عندما نقرت على الطاولة، والآن وجهاً لوجه! توقعت ما رأيته وسبب لي ذلك صدمة كبيرة شبيهة بالصدمة التي أصابتني حين تعرفت إليها. أعتقد عندما تنظر إلى وجه شاب أو ولد فمن المفروض أن تكون قادراً على التكهن بشكله حينما يصبح عجوزاً لأنّ المسألة كلها تتعلق بشكل العظام. ولو سألت نفسي عندما كنت في العشرين وإيلسي في الثانية والعشرين كيف ستبدو في السابعة والأربعين فلن يخطر ببالي أبداً هذا الشكل. فقد تدلى وجهها كله وكأنه شد إلى الأسفل، وهل تعرف ذلك

النوع من النساء اللواتي تشبه وجوههنّ وجه كلب البولدوغ. فك كبير معلّق وفم تهدّلت زواياه للأسفل وعينان غائرتان وجيوب تحتهما مثل الكلب تماماً، ومع كل هذا كان وجهاً أميّزه من بين مليون وجه، ولم يبق من شعرها الكثيف سوى القليل وبلون باهت، لم تعرفني، كنت مجرد زبون غريب ورجلاً بديناً غير ممتع.

غريب جداً ما تفعله بوصة أو اثنتان من البدانة، وتساءلت إن كنت تغيرت أكثر منها أم أنها لم تتوقع رؤيتي، أو نسيت وجودي ببساطة وهو الأرجح.

- مساء الخير، قالت بطريقة فاترة.

- أريد غليوناً خشبياً. أجبت بصوت منخفض.

- غليوناً دعني أتأكد. أعرف أنه عندنا بعض الغلايين في مكان ما لكن أين هي الآن.. نعم ها هي.

تناولت علبة كرتونية مملوءة بالغلايين من تحت الطاولة. أصبحت لهجتها سيئة أو ربما تخيلت ذلك لأن مقاييسي اختلفت، لكن لا، فقد كانت أفضل واحدة بين كل فتيات محل ليلي وايت وكانت أيضاً عضوة في دائرة المطالعة، وأقسم أنها لم تسقط حرفاً واحداً من كلماتها. غريب كيف تتحطم النسوة ويترهلن بعد الزواج. أضعت وقتاً أكثر بين الغلايين متظاهراً بالنظر إليها وقلت أخيراً.

- أريد واحداً بمبسم من الكهرمان.

- كهرمان؟ لا أدري إن كان موجوداً.

التفتت إلى الخلف ونادت (جورج). إذاً اسم الرجل الآخر هو جورج أيضاً، وسمعت ضجيجا قادماً من آخر المحل.

من كان يتنبأ أن إيلسي ستنتهي على هذا الشكل، وبدت من النوع الذي كان مقدّراً له أن يذهب مع الشيطان. أعرف أنه كان هناك رجل واحد قبلي على الأقل، ومن الأسلم الرهان بوجود آخرين بيني وبين جورج الثاني ولم يكن يدهشني لو عرفت بأنّ لديها دزينة كاملة. لا نقاش في أنني عاملتها بشكل سيء، ولقد سبب لي ذلك الإزعاج مرات كثيرة. وقد ينتهي بها المطاف إلى الشارع أو تلصق رأسها بفرن غاز وأحياناً أشعر بأنني كنت نذلاً وأحياناً أخرى أشعر أنني فعلت الشيء الصحيح، ولو لم أكن أنا لكان هناك شخص آخر. لكن الأشياء تحدث دائماً بطريقة غبية وغير هادفة. كم امرأة انتهت إلى الشارع ؟ إن منظرها ألعن من الانتهاء في المكواة الاسطوانية على كل حال. إنها لم تصل لا للأسوأ ولا للأحسن. انتهت مثل أي شخص آخر، عجوز بدينة في دكان قذر وصغير مع جورج ذي الشوارب البنية بلون الزنجبيل المصفر، وربما عندها سلسلة من الأولاد، السيدة جورج كوكس عاشت محترمة وماتت مرثية وهذا أفضل من أن تموت بسبب الإفلاس. وأخيراً وجدا علبة الغلايين

ولم يكن بينها واحد بميسم كهرماني.

- لا أعرف ليس لدينا ما طلبت، لكن عندنا غلايين جميلة أخرى.

- أريد واحداً بميسم كهرماني.

- عندنا غلايين جميلة هنا.. أنظر إلى هذا، إنه جميل وبنصف جنيه.

أخذته وتلامست أصابعنا، لا حركة ولا ردة فعل تذكر. أعتقد أنني سأشتري الغليون من أجل الأيام الماضية وكي أضع نصف جنيه في جيب إيلسي. أخذت الغليون ثم وضعته على الطاولة. لكن ذلك لم يحصل ولم أكن أريد شيئاً وأنا لا أدخن الغليون، وإنما كان عذراً للدخول إلى المحل، قلبته بأصابعي ووضعته مجدّداً على الطاولة. لا يهم سأتركه. قلت أعطني علبة بليزر صغيرة. كان عليّ أن اشتري شيئاً بعد كل ذلك الهرج والمرج. ناولني جورج الثاني وربما الثالث أو الرابع علبة بليزر وهو يمضغ شيئاً ولاحظت استياءه لأنني قطعت عليه شرب الشاي دون أن اشتري شيئاً لكنني رأيت أن الغليون لا يستحق إضاعة نصف جنيه من أجل الحصول عليه وكانت تلك آخر مرة أرى فيها إيلسي.

عدت إلى الفندق وتناولت العشاء وخرجت، بعد ذلك راودتني فكرة الذهاب إلى السينما، لكنني بدلاً من ذلك نزلت بإحدى الحانات الصاخبة في القسم الجديد من المدينة

وصادفت فيها شابين من ستاتفورد كانا يسافران لبيع السلع، تحدثنا طويلاً عن أحوال التجارة ولعبنا لعبة السهام وشربنا شراب غينيس، وقبل الإغلاق ثملا فوجب عليَّ إيصالهما في سيارة أجرة، وكنت أيضاً تحت تأثير الكحول فاستيقظت في اليوم التالي وأنا أشكو من صداع أسوأ من أي وقت سابق.

5

يجب أن أرى بركة بيت بينفيلد.

شعرت أنني في حال سيئة هذا الصباح، وفي الحقيقة فإنني منذ أن ذهبت إلى بينفيلد كنت أشرب الخمر من أول ساعة بعد أن تفتح الحانات أبوابها وحتى ساعة الإغلاق، والسبب في ذلك هو عدم وجود أي عمل أقوم به ولم يكن يخطر ببالي مقارعة الخمرة لثلاثة أيام متواصلة وهذا ما آلت إليه رحلتي. أسرعت نحو النافذة كما فعلت في الصباح السابق فرأيت القبعات المستديرة واللباس المدرسي تتدافع ذهاباً وإياباً. إنهم أعدائي.. هذا الجيش الغازي الذي دكَّ البلدة وغطى الآثار بالنفايات وأكياس الورق، وتساءلت عن سبب اهتمامي، وأقول بجرأة إنني أصبت بخيبة كبيرة عندما وجدت بينفيلد متورّمة مثل داغنهام. لا مانع أن أرى الأرض ممتلئة بالناس، ولا أن يتحول الريف إلى مدينة. لم يكن ذلك هو السبب أبداً، ولست مهتماً إن امتدت المدن وكبرت

بشرط أنها لن تمتد مثل الصلصة المندلقة على غطاء طاولة. إنني أعرف أن المصانع إن لم تكن هنا فستكون في مكان آخر، ومن الضروري أن يحصل الناس على أمكنة يسكنون فيها. إن صور المناظر الطبيعية والأشياء الريفية المزيفة وألواح السنديان والأطباق القصديرية ومقالي التسخين النحاسية وما شابهها كانت تزعجني وتقرفني فقط. فنحن مهما كنا في الأيام السالفة لكننا لم نكن صوراً. لم ترَ أمي أي معنى لهذه الأشياء القديمة التي ملأ بها محل ويندي بيتنا، ولم تحب الطاولات التي تطوى، وقالت إنها تمسك بالساق، أما بالنسبة للأواني القصديرية فهي أشياء كريهة ملساء. لقد كنا في الماضي نملك شيئاً لم نعد نملكه الآن. شيء لا يمكن امتلاكه مع مشارب الحليب المزدحمة التي تعجّ بضجيج الراديوات. شيء رجعت إلى بينفيلد أبحث عنه ولم أجده ومع ذلك لا أزال أؤمن، ولو قليلاً، بوجوده قبل أن أضع طاقم أسناني الاصطناعية الجديدة وتعتاد بطني على أقراص الاسبيرين وفناجين القهوة.

دفعني كل ذلك للتفكير في بيت بينفيلد ثانية، لكن بعد رؤية ما فعلوه في البلدة خفت من الذهاب لأرى إن كانت البركة لا تزال موجودة أم لا، فربما لم يعلم بأمرها أحد. اختفت البلدة تحت القرميد الأحمر، وتحول بيتنا إلى نفايات ويندي وامتلأ النهر بسموم المحركات وأكياس الورق. لكن

ربما لا تزال البركة موجودة هناك والسمكة السوداء الكبيرة تسبح في مياهها، وقد تكون مختبئة بين أشجار الغابة، ولم يُكشف أمرها، وهذا محتمل لأنَّ الغابة صغيرة وكثيفة جداً ومملوءة بنبات العليق والأغصان المقطوعة المتعفنة، وهي في مكان صعب لا يجازف الناس في اختراقه، ومع هذا لقد حدثت أشياء أشد غرابة.

لم أبدأ الرحلة حتى العصر، أي حينما افترضت أن الساعة كانت الرابعة والنصف عندما أخرجت السيارة من مرأب الفندق وقدتها متجهاً إلى أوبر بينفيلد. وعند منتصف التل تضاءلت البيوت حتى أنها تكاد تختفي، وبدأت أرى أشجار الزان، وعند تفرع الطريق انحرفت الى اليمين بقصد الالتفاف والعودة إلى بيت بينفيلد، لكنني توقفت فوراً لألقي نظرة على أيكة كنت أقود عبرها، رأيت أشجار الزان نفسها. يا إلهي كيف يمكن أن تكون هي نفسها؟ وكذلك ذات السكون وذات الفراش الوثير من أوراق الشجر الذي تزايد سنة تلو أخرى دون أن يتعفن؛ كذلك لم يكن هناك سوى بعض الطيور الصغيرة التي لا تشاهد على قمم الأشجار. لم يكن من السهل التصديق أن فوضى وضجيج البلدة الكبير التي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال لم يصل إلى هنا بعد. بدأت أشق طريقي عبر الأيكة باتجاه بيت بينفيلد، وتذكرت بصعوبة أين تؤدي كل تلك الدروب. يا إلهي إنه نفس الكهف

الكلسي حيث ذهبت عصابة الكف الأسود وبدأت برمي الحجارة بالمقاليع، وعندما روى لنا سيد لوفغروف كيف يولد الأطفال، واليوم الذي أمسكت فيه بسمكتي الأولى منذ أربعين سنة تقريباً.

تضاءل عدد الأشجار بشكل لافت، وصار بالإمكان رؤية الطريق الآخر وسور بيت بينفيلد. لقد اختفى كذلك السور الخشبي المتعفن وحل مكانه سور عالٍ من القرميد والأسلاك الشائكة في أعلاه كالأسوار التي تتوقع وجودها حول مصحات المجانين. تملكتني الحيرة لبعض الوقت حول كيفية دخولي إلى بيت بينفيلد، فخطر في بلي أن اخبرهم بأن زوجتي مجنونة وأنني أبحث عن مكان لأضعها فيه، وبعدها سيأخذونني في جولة لاستكشاف المكان. قد أبدو في بدلتي الجديدة غنياً وهذا من شأنه أن يسمح لي بوضع زوجتي في مصحة خاصة. ولم يخطر في بالي أيضاً إن كانت البركة لا تزال موجودة داخل المصح. إن أراضي بينفيلد القديمة تمتد على مساحة خمسين فداناً وأراضي المصح لا تزيد عن خمسة أو عشرة فدادين، وبالتأكيد هم لا يريدون بركة يغرق المجانين أنفسهم فيها. كان الكوخ الذي يسكنه العجوز هودجز موجوداً دون أي تغيير، لكن البوابات الحديدية الضخمة وسور القرميد كانت قد استبدلت. لم اعرف المكان من النظر عبر البوابة حيث كانت الممرات مفروشة بالحصى

ومروج خضر وبعدة نماذج تتجول بلا هدف وإنني أعتقد أنهم من المجانين. تابعت سيري على الطريق وإلى اليمين شاهدت البركة العظيمة التي تبعد مائتي ياردة خلف البيت، البركة التي كنت أصيد فيها وربما كانت المسافة مئة قبل أن أصل إلى زاوية السور. إنّ البركة هي إذن خارج ارض المصح لكن الأشجار أصبحت أقل حيث أمكنني سماع أصوات أولاد! يا للدهشة ها هي بركتي!

وقفت برهة متسائلاً ماذا حل بها، ثم رأيت ما كان. لقد أزيلت كل الأشجار عن حوافها فبدت عارية مثل البركة المدورة في كنغستون. لقد كان الأولاد يلعبون على الأطراف بقوارب تجديف وقوارب صغيرة، وكان الى اليسار القارب المتعفن القديم بين الأعشاب وهناك خيمة كبيرة وكشك حلويات ولافتة بيضاء كتب عليها:

«نادي بينفيلد الممتاز ليخوت الألعاب».

نظرت إلى اليمين حيث البيوت في كل مكان، بيوت مثل تلك التي في الضواحي الخارجية. لقد قُطعت كل الأشجار التي كانت خلف البركة وسويت بالأرض ماعدا بعض الأكمات التي بقيت حول البيوت. إنها بيوت ذات منظر فني، مستعمرات تيودور الزائفة كتلك البيوت لتي رأيتها في اليوم الأول على قمة تل شامفورد، لكنها أكثر ولم يبق سوى أيكة صغيرة بمساحة ستة فدادين لم يتم قطعها، وبالمصادقة

المحضة مشيت عبرها في طريقي إلى هنا. لقد أصبحت اوبربينفيلد بلدة بحجم كبير بعد أن كانت مجرد اسم، وبعد أن كانت قطعة أرض نائية تابعة للواربينفيلد. تجولت حول البركة وكان الصغار على كثرتهم يرشون الماء ويصدرون ضجيجاً فظيعاً. بدا الماء ميتاً وخالياً من أي سمكة. لقد وقف هناك رجل يضع نظارة، وكان يراقب الصغار برأس شبه أصلع. وجهه برونزي جداً جرّاء تعرّضه الدائم للشمس، أما مظهره فكان غريباً، نهو يرتدي بنطالاً قصيراً وصندلاً وقميصاً مفتوح الياقة الذي لفت انتباهي نظرة عينيه وهو يغمزك من وراء النظارة. إنه واحد من الرجال الذين لا يكبر عمرهم أبداً، وهم دائماً إما مهووسون بالطعام الصحي أو لهم علاقة بأولاد الكشافة، وفي الحالتين هم رائعون بالنسبة إلى الطبيعة وهذا الجو المكشوف. لقد كان ينظر إلي ويرغب في التكلم:

– لقد كبرت اوبربينفيلد كثيراً، قلت.

– نعم كبرت يا سيدي العزيز. لن نسمح لها أن تكبر وتتوسّع، ونحن نفتخر بأننا ناس استثنائيون هنا. نحن مستعمرة صغيرة فقط ووحيدة ولسنا متطفلين.

– أقصد مقارنة بما كانت عليه قبل الحرب، فقد كنت أعيش هنا عندما كنت ولداً.

– أوه لا شك، ذلك كان قبل هذا الزمن طبعاً، لكن عقار أوبربينفيلد شيء خاص في عالم البناء. إنه عالم صغير

بحد ذاته، لقد صممه المهندس المعماري إدوارد واتكن. ومن المؤكد أنك سمعت باسمه طبعاً. نحن نعيش في قلب الطبيعة هنا، وليس لنا أي اتصال بالبلدة، ولوّح بيده نحو لوارببنفيلد ذات المصانع الشيطانية السوداء.

كانت له ضحكة طيبة قديمة وطريقة في رسم التجاعيد على وجهه مثل الأرنب. بعد ذلك بدأ يخبرني دون أن أسأله عن أملاك أوبربينفيلد والشاب ادوارد وايتكن المهندس المعماري الذي كان عنده إحساس بتيودور القرن السادس عشر، ذلك الرائع في إيجاد أعمدة حقيقية من عصر الملكة إيزابيث في بيوت المزارع القديمة حيث كان يشتريها بأسعار زهيدة. هذا الرفيق الممتع كان روح حفلات التعري، وهو كان يكرر باستمرار أنهم استثنائيون في أوبر بينفيلد ومختلفون تماماً عن الآخرين، وهم مصممون على إثراء الريف بدلاً من تلويثه (أنا استخدم عباراته حرفياً) وليس هناك أية دور عمومية في هذا العقار.

– هم يتحدثون عن غاردن سيتي ونحن نسمي لواربينفيلد وود سيتي. هنا تشاهد الطبيعة ثم لوّح بيده إلى ما بقي من أشجار. ها هي الغابة البدائية تخيم حولنا، شبابنا كبروا وسط محيط ذي جمال طبيعي. كلنا متنورون طبعاً، وهل تصدق أن ثلاثة أرباعنا نباتيون. إن الجزارين المحليين لا يحبوننا كذلك يعيش هنا عدد كبير من المشاهير مثل الروائية

الآنسة هيلينا ثوراول. ومن المؤكد أنك سمعت بها والباحث النفسي البروفيسور وود وهو ذو شخصية شاعرية جداً ويتجول في الغابة كثيراً لدرجة أن عائلته تبحث عنه في أوقات الطعام فيدّعي أنه يمشي وسط الحوريات. هل تؤمن بالحوريات؟ أنا اعترف بأنني شكاك قليلاً لكن صوره أكثر إقناعاً. بدأت أتساءل إن كان محدثي أحد الفارين من بيت بينفيلد لكن لا، إنه عاقل تماماً ومجار للموضة فقد عرفت هذا النموذج من النباتيين والحياة البسيطة والشعر وتقديس الطبيعة والتدحرج على الندى قبل الإفطار، وقابلت الكثير منهم في ايلينغ منذ سنوات، بعدها بدأ يطلعني على العقار كله. لم يبقَ شيء من الأيكات لأنها أصبحت كلها بيوتاً، ويا لها من بيوت، هل تعرف تلك البيوت التيودورية المزيفة ذات السقوف المجعدة والدعامات التي لا تدعم شيئاً مع حدائق صخرية فيها حمامات إسمنتية للطيور وأقزام جصية يمكن شراؤها من محلات الزهور. يمكنك تخيل تلك العصابة الرهيبة من المهووسين بالطعام وصائدي الأشباح وأبواق الحياة البسيطة التي تحتاج ألف جنيه في السنة لتعيش هنا. حتى الأرصفة كانت مجنونة ولذا لم أتركه يأخذني بعيداً. بعض البيوت جعلتني أتمنى لو كان عندي قنبلة يدوية في جيبي لذلك حاولت أن أثنيه عن المتابعة بالسؤال إن كان الناس يعترضون على السكن بجوار مصحة عقلية، لكن ذلك لم يجدِ معه نفعاً

وأخيراً وقفت وقلت له:

- كانت هناك بركة أخرى بالإضافة إلى البركة الكبيرة وليست بعيدة من هنا.

- بركة أخرى؟ بالتأكيد لا توجد ولا أعتقد بوجود واحدة أخرى.

- ربما جفّفوها، كانت بركة عميقة وستترك حفرة كبيرة وراءها.

ولأول مرة بدا قلقاً وحكّ أنفه وقال:

- أوه طبعاً من المؤكد أنك تدرك أن حياتنا هنا بدائية في بعض نواحيها، وتعرف الحياة البسيطة التي نفضلها بهذا الشكل وبسبب بعدنا عن المدينة نعاني من إزعاجات وعقبات طبعاً لذا فإن جزءاً من تدابيرنا الصحية ليست كافية تماماً حيث لا تمر سيارة نقل النفايات إلا مرة واحدة في الشهرعلى ما أعتقد..

- هل تقصد أنهم حولوا البركة إلى مزبلة؟

- يوجد شيء ما في طبيعة............... ،خجل من كلمة مزبلة، يجب علينا التخلّص من العلب القصديرية وما شابهها بالطبع هناك خلف الأشجار.

لقد تركوا شجيرات قليلة ليخفوها، لكنها كانت هناك. بركتي التي جففوا ماءها فتشكلت حلقة مدورة ضخمة مثل بئر بعمق عشرين أو ثلاثين قدماً كان نصفها مملوءاً بالعلب

القصديرية. وقفت وقلت:

- من المؤسف أنهم جفّفوها، فقد كان هناك سمك كبير في تلك البركة.

- سمك؟ لم أسمع شيئاً عنه! طبعاً لا يمكن الإبقاء على بركة وسط البيوت. البعوض وتعرف أنها كانت قبل عهدي.

- أعتقد أن هذه البيوت بنيت منذ زمن بعيد.

- أوه منذ عشرة أو خمسة عشر عاماً كما أعتقد.

- كنت أعرف هذا المكان من قبل الحرب.. كان كله أيكات آنذاك، ولم يكن هنا أي بيت سوى بيت بينفيلد ولم يبقَ سوى تلك الإيكة الصغيرة هناك التي لم تتبدل.

و مشيت عبرها في طريقي.

- أوه هذه أقدس مقدساتنا. لقد قررنا أن لا نبني عليها أبداً فهي مقدسة عند الشباب. الطبيعة تعرف أنت...

وغمزني بنظرة خبيثة كما لو أنه كان يفشي سراً، نحن نسميها بيكسي غلين.

بيكسي غلين؟ تخلصت منه وذهبت إلى سيارتي وتوجهت صوب لواربينفيلد، بيكسي غلين لقد ملأوا بركتي بعلب القصدير قاتلهم الله ودمّرهم. قل ما شئت وسمّها سخافة أطفال أو أي شيء لكن ألا يسبب التقيؤ ما يفعلونه في انكلترا؟ بحمامات الطيور الإسمنتية والأقزام الجصية وعلب

القصدير التي زرعوها مكان إيكات الزان. قد تقول إنني عاطفي وغير اجتماعي، ويجب أن لا أفضل الأشجار على البشر وأقول إن ذلك يعتمد على نوعية الأشجار وماهية البشر، ولا يسعك فعل شيء سوى التمني بتفشي وباء الطاعون في أحشائهم.

فكرت بشيء واحد وأنا أهبط التل وهو الانتهاء من فكرة العودة إلى الماضي إذ ما فائدة محاولة العودة لزيارة المناظر الطبيعية التي عرفتها في طفولتك؟ إنها غير موجودة. لقد آن أوان الهواء، لكن أين فلا يوجد أي هواء. إن سلة القمامة التي نحن في قلبها وصلت إلى طبقة الجو العليا. الأمور سيان عندي، ولم يعد يهمني شيء ولا تزال هناك لدي ثلاثة أيام وسأنعم ببعض الهدوء والطمأنينة وأوقف الاهتمام وإزعاج نفسي بما فعلوه بلواربينفيلد، أما فيما يتعلق بالصيد فقد تخليت عن التفكير به فعلياً في مثل هذه السن. لقد كانت هيلدا على حق.

رميت السيارة في مرآب الفندق، وذهبت إلى صالة الانتظار. كانت الساعة السادسة وحيث شغل أحدهم المذياع لسماع نشرة الأخبار فدخلت الباب في الوقت الذي سمعت فيه الكلمات الأخيرة القليلة لنداء استغاثة مما هزني، وأعترف أنني سمعت الكلمات الأخيرة.

– إن زوجته هيلدا بولينغ مريضة جداً.

استمر الصوت لحظة وتلاه نداء استغاثة آخر عن بيرسيفال شوت الذي كان آخر من سمع.......... لم أنتظر لأسمع أكثر، ومشيت مباشرة، دون أن يرف لي جفن، ولم تتعثر خطواتي كي لا أدع أحداً يعرف بأني أنا جورج بولينغ زوج هيلدا بولينغ المريضة جداً. الوحيدة التي تعرف اسمي في الصالة كانت زوجة صاحب الفندق لأنها رأته في السجل، أما البقية فلا يعرفني أي واحد منهم سوى الشابين المقيمين في الفندق. حافظت على هدوء أعصابي ولم تظهر أي علامة عليّ فدخلت إلى البار الخاص الذي فتح أبوابه لتوّه وطلبت قدحاً كالعادة. عليّ أن أفكر ملياً فبدأت أحلل الوضع بعد أن شربت نصف القدح أولاً... إنّ هيلدا لم تكن مريضة وليس هناك خطورة عليها وأنا متأكد أنها كانت بصحة جيدة جداً عندما غادرت البيت وليس الوقت موعد الأنفلونزا أو أي مرض من هذا النوع. انها كاذبة ومحتالة لكن لماذا؟ من الواضح أنها إحدى خدعها، فهي كعادتها كشفت السر بطريقة ما وعرفت أنني لست في بيرمنغهام وهذه طريقتها في إرجاعي إلى البيت لأنها لا تحتمل فكرة تواجدي مع امرأة أخرى وهذا أمر بديهي، كما لا يمكنها تخيل أي دافع آخر، وتوقعت أنني سأعود إلى البيت بمجرد سماع النداء. لكن أنا أذكى من الوقوع في مثل هذا الفخ لأنني أتذكر كل خدعها السابقة والازعاج غير المعقول الذي كانت

تستخدمه للإيقاع بي. وعندما أكون في رحلة تشك بصحّتها تتفحصها بدقة بمساعدة برادشو بالإضافة إلى خارطة للتأكد من أن ما قلته عن تحركاتي حقيقة؛ ومرة لحقت بي إلى كلوشستر وانفجرت في وجهي فجأة في فندق تيمبرانس، لكن تلك المرة، ولسوء الحظ، صدف أنها كانت مصيبة. لم يكن عندي أدنى اعتقاد بأنها مريضة لكن في الوقع أعرف أنها لبست مريضة ولا أعرف أن أعبر عن ذلك تماماً.

تناولت كأساً آخر فانجلت الأمور أكثر. بالتأكيد هناك شيء سوف يحصل عندما أصل إلى البيت، ولا مفر من الشجار بأي شكل. عليها أن تنتظرني ثلاثة أيام أخرى لأنَّ الأشياء التي جئت للبحث عنها غير موجودة وفكرة الاستمتاع بإجازة جذبتني أكثر من غيرها؛ وأعظم ما في الموضوع أن أكون بعيداً عن البيت. سلام تام والأحباب بعيدون كما تقول الآية وقررت فوراً أن أجد امرأة لانني رغبت بذلك.

سيخدم هذا التفكير القلق هيلدا لكن ما معنى الاتهام إن لم يكن صحيحاً؟

لكنَّ الكأس الثانية فعلت فعلها بحيث بدأت الأمور تمتعني. لم تقدر أن تخدعني، لكنها كانت بارعة مع أنني تعجبت كيف نجحت في أمر نداء الاستغاثة، إذ ليس لدي أي فكرة عن كيفية هذا الإجراء، وهل يستلزم شهادة طبية، أو يكفي إرسال الاسم فقط؟ وانتابني شعور بأن السيدة ويللر

هي المدبرة فلمساتها واضحة لكن الأمور سيان عندي حيث يجبرك المدى الذي تصل النساء إليه على الإعجاب بهن.

6

خرجت بعد الإفطار سيراً على الأقدام باتجاه السوق حيث كان الصباح جميلاً وساكناً، معتدل البرودة أما الضوء فكان أصفر شاحباً كالنبيذ الأبيض وهو يغمر كل شيء، فامتزجت رائحة الصباح برائحة سيجاري. سمعت أزيزاً قادماً من خلف البيوت، وفجأة ظهر سرب من القاذفات السوداء الكبيرة فوق رؤوسنا. نظرت إلى الأعلى فتوقعت أنها ستقصف وترمي قذائفها فوق رؤوسنا. في اللحظة التالية سمعت صوتاً لا لبس به، ولو كنت هناك لرأيت مثالاً نموذجياً لما يسمونه بالانعكاس الشرطي. كان الصوت صفير قنبلة ومن جهتي لست بحاجة لمن يعرفني به على الرغم من أنني لم أسمعه منذ عشرين سنة وبدون تفكير فعلت ما هو صحيح وألقيت بنفسي على الأرض.

أنا مسرور لأنك لم تشاهدني فلم يكن منظري مشرفاً. فقد كنت منبطحاً على الرصيف مثل جرذ عَلِقَ تحت الباب. لم يتصرف أحد بمثل سرعتي التي لم تتعد نصف ثانية من صفير القنبلة حيث كان لدي الوقت كي أفكر خشية أن يكون تقديري خاطئاً قبل أن أرتكب حماقة بحق نفسي. وفي

اللحظة التالية جاء صوت هائل مثل يوم القيامة، وتلاه صوت آخر يشبه سقوط طن من الفحم على صفيحة من التنك. كان ذلك صوت القرميد المتساقط. وشعرت كما لو أنني انصهرت داخل الرصيف وعرفت الأمر. لقد بدأت ولم ينتظر الصديق العزيز هتلر، فقد أرسل قاذفاته دون سابق إنذار إذ على الرغم من صدى الارتطام المرعب الذي جمّدني من الرأس حتى القدم توافر لي الوقت للتفكير بعظمة تلك القذيفة الكبيرة لدرجة يتعذر وصفها لأن ما سمعته كان ممزوجاً مع الشيء الذي أنت خائف منه والذي يمكّنك من رؤية المعدن المنفجر، فترى صفائح الحديد الكبيرة تنفجر بقوة وتتطاير. لكن الشيء الخاص والغريب هو الشعور الذي تحسه وهو يدفعك إلى قلب الواقع والحقيقة وكأن أحداً يوقظك من نومك بسكب دلو من الماء فوقك فيخرجك فجأة رنين المعدن المنفجر من أحلامك لتواجه الحقيقة الرهيبة.

تعالت أصوات الصراخ والصياح واختلطت بأصوات فرامل السيارات التي توقفت وتكدست فجأة، أما القنبلة الثانية التي كنت انتظرها فلم تسقط مما دفعني لأن أرفع رأسي قليلاً. كان الناس يتراكضون في كل الاتجاهات وكانت هناك سيارة تنزلق بشكل مائل على الطريق عندما سمعت امرأة تصرخ: الألمان، الألمان، وعلى يميني رأيت بشكل غير واضح وجه رجل أبيض مدوّراً مثل كيس مجعد من

الورق وكان مضطرباً جداً:

- ما هذا؟ ماذا حدث ؟ ماذا يفعلون ؟

- لقد بدأت. هذه قنبلة. انبطح.

لكن القنبلة الثانية لم تسقط بعد، ومرت ربع دقيقة أخرى تقريباً فرفعت رأسي ثانية. لا يزال بعض الناس يتدافعون وبعضهم الآخر استمروا واقفين كما لو أنهم ثبتوا في الأرض. ارتفعت غيمة ضخمة من الغبار مترافقة مع دخان أسود، ثم رأيت منظراً غير عادي حيث يرتفع الشارع العام قليلاً في الطرف الآخر من السوق، وفي أسفل ذلك التل الصغير بدا قطيع من الخنازير، بل سيل ضخم من وجوه الخنازير لكن في اللحظة التالية عرفته بالطبع. لم تكن خنازير إطلاقاً إنما كانوا طلاب المدارس الذين وضعوا أقنعة الغاز. وعلى ما أعتقد إنهم هربوا باحثين عن مخبأ. في الوقت نفسه رأيت خنزيراً أطول وأظنه الآنسة تودجرز وأكرر القول إنني رأيتهم قطيعاً من الخنازير في تلك اللحظة. لملمت نفسي ومشيت في السوق. كان الناس قد هدأوا لتوّهم وبدأت تحتشد مجموعة صغيرة منهم في مكان الانفجار.

- أوه نعم، لم تكن طائرة ألمانية ولم تندلع الحرب بعد. لقد كان مجرد حادث. إن الطائرات تقوم بتمرين قصف، وكانت محملة بالقنابل ولقد وضع أحدهم يده على الرافعة بالخطأ وسيأخذ توبيخاً بسبب ذلك. اتصل عامل البريد بلندن

وسأل إن كانت هناك حرب وفهم الجميع أنه كان مجرد حادث. لكن مرت فترة مابين الدقيقة والخمس دقائق ظن فيها آلاف الناس أننا دخلنا الحرب.

لا تدوم الوظيفة الجيدة طويلاً، وبعد ربع ساعة أخرى سيعدم الجاسوس الأول دون محاكمة قانونية. لحقت بالحشد وسقطت القنبلة الثانية في شارع جانبي، وهو الشارع نفسه الذي كان فيه محل عمي ايزيكيل وهي لم تبعد عن المحل أكثر من خمسين ياردة، وعندما وصلت إلى الزاوية سمعت تمتمة وأصوات ألم وتأوّهاً. كان الناس خائفين ومندهشين، ولحسن الحظ وصلت قبل الإسعاف والإطفاء بدقائق قليلة، ورأيت كل شيء رغم وجود ما يزيد عن خمسين شخصاً في المكان. بدا المشهد الأول كما لو أن السماء أمطرت قرميداً وخضاراً، فقد ملأت أوراق الملفوف المكان. نسفت القنبلة دكاناً للخضار وأزالته من الوجود، كما نسفت سطح البيت الذي على يمين المحل، وكانت أعمدة سقفه تحترق، كذلك تأثرت كل البيوت المجاورة بشكل كثير أو قليل فتحطمت النوافذ الزجاجية. لكن الناس كانوا ينظرون إلى البيت الذي يقع على يسار المحل. لقد كشطت القنبلة جداره الملاصق لمحل الخضار بدقة وكأنه أزيل بسكين، والغريب أن طابقه العلوي لم يصب بأية أضرار. كان المنظر مثل بيت اللعبة. صناديق بأدراج وغرفة نوم ومقاعد وورق جدران باهت وسرير

لم يتم ترتيبه بعد وبدا البيت مسكوناً لولا اختفاء أحد جدرانه، أما غرف الطابق السفلي فقد تأثرت جداً بالانفجار، فكانت هناك فوضى مريعة وتحطيم ودمار فظيعان من القرميد والجص وأرجل المقاعد وقطع من مغسلة الأطباق المكسورة ومطربان من المربى تدحرج في أرض الغرفة وسال منه خيط من المربى، وبجانبه خيط من الدم، وبانت ساق مرمية وسط الأطباق المكسرة. ساق ترتدي سروالاً وجزمة سوداء بكعب مطاطي. إذاً هذا هو سبب الولولة والصياح. ألقيت نظرة أخرى. . كان الدم ممزوجاً بالمربى، وعدما وصلت سيارات الإسعاف انصرفت إلى الفندق لأحزم حقيبتي.

هكذا انتهيت من لواربينفيلد وسأعود إلى البيت. غادرت فوراً دون أن أنفض الغبار عن حذائي إذ لا أحد يفعل ذلك أبداً. في مثل هذه الحوادث يقف الناس عادة ساعات وهم يتناقشون، ولم ينجز أي عمل يذكر في لواربينفيلد في ذلك اليوم لأن الكل انشغلوا بالحديث عن القنبلة وصوتها وماذا ظنوا عندما سمعوا ذلك الصوت. قالت نادلة الفندق إن فرائصها ارتعدت من الخوف، وإنها لن تذوق طعم النوم العميق بعد اليوم. وماذا تتوقع أكثر؟ لقد اتضح أن القنابل موجودة هنا دون أن يعرف احد بذلك، وهناك امرأة أخرى قطع نصف لسانها عندما قذفها صوت الانفجار. لقد تصور الناس كلهم الذين في الناحية التي كنت فيها من البلدة أنها

غارة ألمانية، أما أهل الناحية الأخرى فقد سلموا بأنه انفجار في معمل الجوارب، ومع ذلك أرسلت وزارة الطيران رجلاً لينقب عن الأضرار وأصدرت تقريراً أفاد أن آثار القنبلة مخيبة للآمال لأنها لم تقتل سوى ثلاثة أشخاص هم الخضري بالإضافة إلى عجوز وزوجته كانا يسكنان في المنزل المجاور له. فالمرأة لم تتهشم أما العجوز فلولا حذاؤه لما تعرفوا إليه، بينما الخضري لم يجدوا له أي أثر، ولو حتى أحد أزرار سرواله ليقرأوا على روحه صلاة الدفن.

شيء مضحك كيف تتغلغل الأشياء إلى داخلك بالتدريج. ماذا شعرت فعلياً عندما انفجرت القنبلة؟ في لحظة الانفجار أرعبتني وأفقدتني رشدي، وعندما رأيت البيت المدمر وساق الرجل العجوز انتابني ذات الشعور الذي تحسه عندما ترى حادثاً مرورياً. إنه الشعور بالغثيان والقرف طبعاً لأنَّ كان ما رأيته كان كافياً للملل من هذه الإجازة المزعومة.

عاودني ذلك الشعور بعد أن تجاوزت ضواحي لواربينفيلد واتجهت شرقاً. وفي مثل هكذا وضع يمكنك أن تعرف كيف يكون الوضع وأنت في سيارة لوحدك، كأن هناك شيئاً طائراً يتجاوزك أو شيئاً في الأسيجة أو نبضات المحرك مما يجعل أفكارك تعمل في إيقاع رتيب وهو الشعور نفسه الذي ينتابك وأنت في القطار. شعور يمكنك من رؤية الأشياء الهامة بمنظور أفضل. وهكذا أدركت بأنَّ كل الأشياء

التي كنت أشك في صحتها أصبحت أكيدة الآن. في بادئ الأمر أتيت إلى لواربينفيلد وفي ذهني السؤال التالي: ما الذي ينتظرنا؟ هل بدأت اللعبة؟ هل يمكن العودة إلى الحياة التي عشناها سابقاً أم هي ولت وإلى الأبد؟ حسناً، لقد حصلت على إجاباتي، لقد انتهت الحياة القديمة نهائياً وعملية البحث عنها مضيعة للوقت. لا يوجد أي طريق يرجعك إلى لواربينفيلد كما لا يمكنك إرجاع يونس إلى بطن الحوت، لقد تيقنت من ذلك - لا أعتقد أنك ستتابع سلسلة أفكاري- كان مجيئي إلى لواربينفيلد عملاً غريباً وشاذاً، فقد كانت تأكل وتشرب في مكان ما في عقلي طيلة السنوات الماضية. في زاوية هادئة كنت أرجع إليها عندما أريد لكن عندما عدت إليها أخيراً اكتشفت بأنها غير موجودة. لقد نسفت أحلامي بقنبلة وخشية الالتباس أردفتها القوى الجوية الملكية بخمسمائة رطل من مادة ت.ن.ت. المتفجرة.

يقولون إن الحرب قادمة في عام 1941، وستكون هناك الكثير من الأطباق الخزفية المكسرة والبيوت الصغيرة الممزقة كحقائب الكتف وأحشاء حاسبات الأسهم التي التصقت على البيانو الذي اشتراه في خياله. لكن ما أهمية كل ذلك؟ سأخبرك ماذا تعلمت من إقامتي في لواربينفيلد. كل ذلك سيحدث بالتأكيد وكل الأشياء التي نخبئها في مؤخرة عقلك.الأشياء التي ترتعب منها والتي قلت لنفسك إنها مجرد

كابوس أو إنها لا تحدث سوى في البلدان الأجنبية الأخرى. القنابل وطوابير الطعام والعصي المطاطية والأسلاك الشائكة والقمصان الملونة والوجوه الضخمة والبنادق الآلية التي ستصوب من نوافذ غرف النوم، أعتقد أن هذا سيحدث كله ولا مفر منه أبداً. قتل كي تمنعها إن أحببت، أو انظر إلى الطرف الآخر، وتظاهر بأنك لا ترى شيئاً أو أحمل مفكاً واخرج بسرعة لتحطم بعضاً من وجوه الآخرين. لا يوجد مخرج، إنها أشياء ستحدث حتماً.

دستُ على دواسة الوقود فأزّت السيارة وهي تصعد التلال وتهبط الوديان، وتدافعت ورائي الأبقار وأشجار الدردار وحقول القمح حتى أصبح المحرك أحمر من شدة الحرارة، وشعرت بذات المزاج الذي انتابني في أحد أيام كانون الثاني(يناير) عندما ذهبت إلى الستراند وحصلت فيه على طاقم أسناني الجديدة. كأنني وهبت القدرة على التنبؤ فبدت لي كل إنكلترا، وكل أهلها، وما سيحدث لهم، لكن حتى هذا الحين ينتابك شك واحد أو اثنان أحياناً بأنَّ هذا العالم كبير جداً ومطمئن بشكل ما بحيث تلاحظ ذلك عندما تقود فيه سيارتك. فكّر باتساع الأرض الهائل التي تمر فوقها عند العبور من زاوية إقليم انكليزي واحد فتشعر أنه مثل سيبيريا. حقول وإيكات زان ومزارع وكنائس وقرى وصالة الأبرشية والبط الذي يبحث عن طعام في الحقول. هل كل

هذه الأمور عصية على التغيير؟ هل هي محكومة لتبقى نفسها بشكل أو بآخر؟ دخلت فوراً إلى ضواحي لندن البعيدة وسرت في طريق اكسبريدج إلى أن وصلت إلى ساوثهول؛ أميال كثيرة من البيوت المتواضعة مع سكانها الذين يحبّون حياة الكسل والتمدن ثم تمتد مدينة لندن والشوارع والساحات والأزقة الخلفية والشقق والأبراج السكنية والحانات ومحلات السمك المقلي ودور السينما.........الخ على مدى عشرين ميلاً وثمانية ملايين من الأشخاص الذين هم أسرى حياتهم الخاصة الصغيرة التي لا يريدون تغييرها. إن القنابل ليست مصنوعة لتكون قادرة على مسحها من الوجود، كذلك الفوضى التي ستسببها وخصوصيات هؤلاء الناس. فجون سميث الذي يقطع بطاقات مباريات كرة القدم وبيلي ويليامز الذي يروي القصص في صالون الحلاقة والسيدة جونز العائدة إلى البيت ومعها بيرة العشاء. ثمانية ملايين من هؤلاء الناس سيتدبرون الأمر وسينجحون بالتأكيد في الاستمرار بحياتهم التي اعتادوها مع القنابل أو من دونها.

وهم وهراء. لا يهم عدد الناس الموجودين هناك فكلهم في حال واحدة. فالأوقات السيئة والصعبة قادمة والرجال المنظمون قادمون أيضاً، ولا أعرف من هو قادم بعد هؤلاء، وليس مهماً أن أعرف حتى وإنْ كان هناك شيء تهتم به فمن الأفضل أن تقول له الوداع الآن لأنَّ كل ما عرفته سيغرق في الروث مع صليل البنادق الآلية المستمر طول الوقت.

7

لقد تبدل مزاجي. وعندما وصلت إلى الضواحي خطر ببالي فجأة أن هيلدا ربما كانت مريضة فعلاً، وقد يكون ذلك بسبب تأثير البيئة عليّ. ففي لواربينفيلد سلّمت بشكل بديهي أنها غير مريضة، وقد تظاهرت هي بذلك لتعيدني إلى البيت، لذلك بدا الموضوع لي طبيعياً دون أن اعرف لماذا. لكن وأنا أقود السيارة إلى بيلشلي وعقارات هيسبريدز أطبقت عليّ وقد حاصرتني كسجن من القرميد الأحمر، عاودتني أفكاري العادية فانتابني شعور مثل ذلك الذي يصيبني في صباح يوم الاثنين عندما يكون ما في داخلي مكشوفاً وواضحاً، فرأيت فداحة وقذارة العمل الذي أضعت فيه الأيام الخمسة الأخيرة التي تسللت فيها إلى لواربينفيلد لاسترجاع الماضي والعودة إلى البيت مفكراً بهراء التنبؤ بالمستقبل. ماذا سيفعل المستقبل لرجل مثلي أو مثلك؟ إن مستقبلنا هو المحافظة على وظائفنا، أما بالنسبة لهيلدا فستظل تفكر بأسعار الزبدة حتى بعد أن تسقط القنابل فوق رأسها.

واكتشفت فجأة كم كنت غبياً لاعتقادي أن هيلدا فعلت هذا. لم يكن نداء الاستغاثة زائفاً حتى لو كان لديها الخيال! وواجهت الحقيقة ببساطتها وبرودتها... لم تكن هيلدا تتظاهر

أو تدعي ذلك، إنها مريضة حقاً. مريضة. . يا للهول! وربما تكون مرمية الآن في مكان ما وتتألم كثيراً، وقد تكون ميتة. صدمتني الفكرة وتجمدت من الخوف وصعد البرد إلى أحشائي. أسرعت بالسيارة نازلاً من إيلسيرود بسرعة أربعين ميلاً في الساعة، وبدلاً من أضع السيارة في المرأب كعادتي أوقفتها أمام البيت وقفزت خارجها.

هل أنا مغرم بهيلدا؟ من المؤكد أن هذا السؤال يلح عليك الآن. لا أعرف ماذا تقصد بمغرم، وهل أنت مغرم بوجهك؟ محتمل لا. لكن لا يمكنك تخيل نفسك بدونه، فهو جزء منك. هكذا أشعر نحو هيلدا عندما تكون الأمور جيدة بيننا ولا أستطيع تحمل منظرها، لكن فكرة موتها أو مرضها تجعلني أرتجف من الخوف.

تحسست المفتاح وفتحت الباب فضربتني رائحة المعاطف المطرية المألوفة. . وصحت هيلدا! هيلدا!، لم يرد أحد للحظة. كنت أصيح هيلدا هيلدا في الصمت المطبق، وبدأ بعض العرق البارد ينز من عمودي الفقري. ربما نقلت بعربة إسعاف إلى المستشفى قبل قليل، وربما هي جثة هامدة الآن مسجاة في الطابق العلوي من البيت الفارغ. صعدت الدرج راكضاً. خرج الصغيران من غرفتيهما المجاورتين للسلم بثياب النوم. . كانت الساعة الثامنة أو التاسعة على ما أعتقد، وكان الضوء قد بدأ بالتلاشي، تعلقت لورا بالدرابزين.

- اوووه بابا أوو بابا لماذا رجعت اليوم؟ قالت أمي إنك ستعود يوم الجمعة.
- إذاً ألم تكن أمكما مريضة؟
- كلا. من قال إنها مريضة؟ هل كنت في بيرمنغهام؟
- نعم. عودا إلى السرير الآن وإلا ستصابان بالبرد.
- لكن أين هدايانا يا أبي؟
- أي هدايا؟
- الهدايا التي أحضرتها لنا من بيرمنغهام.
- سوف ترونها في الصباح.
- لكن ألا يمكن أن نراها الليلة يا بابا؟
- كلا انصرفا وعودا الى السرير وإلا جلدتكما بالسوط.

هي إذاً ليست مريضة، وإنما كانت تتظاهر بذلك. والحقيقة لم أعرف إن كنت سعيداً أم آسفاً. التفت إلى الخلف نحو الباب الأمامي الذي تركته مفتوحاً، ولدهشتي الكبيرة كانت هيلدا قادمة من ممر الحديقة. نظرت إليها وهي متوجهة نحوي مع آخر ضوء قبل حلول الظلام. غريب قبل أقل من ثلاث دقائق كنت في حالة قلق وهياج وعرق بارد ينز من ظهري خوفاً من احتمال موتها، والآن هي ليست ميتة وفي حالتها المعتادة.. هيلدا القديمة بكتفيها النحيلين ووجهها القلق وفاتورة الغاز وأقساط المدرسة ورائحة المعاطف المطرية والمكتب يوم الاثنين وكل الوقائع الأساسية

العميقة التي تعود إليها دون أن تتغير. تلك الحقائق الأبدية كما سماها العجوز بروثيوس. لقد رأيت أن هيلدا لم تكن في مزاج جيد، ورمتني بنظرة سريعة كعادتها عندما يدور في خاطرها شيء ما. نظرة مثل نظرة حيوان هزيل، كابن عرس مثلا ولم تفاجأ بعودتي لكن:

- أوه لقد عدت للتو أليس كذلك؟

من الواضح أنني رجعت الآن. لم أردّ ولم تحاول أن تقبّلني واستمرت:

- لا يوجد شيء للعشاء.

إنها هيلدا التي تنجح دائماً في قول شيء يثير الكآبة حالما تطأ قدمك عتبة البيت.

- لم أكن أتوقع مجيئك، يمكنك أكل بعضاً من الخبز والجبن لكن لا أعتقد أنه بقي جبن لدينا.

لحقت بها إلى الداخل، إلى رائحة المعاطف الشتوية ودخلنا إلى غرفة الجلوس. أغلقت الباب وأشعلت الضوء. قصدت أن أقول كلامي أولاً وأعرف أن الأمور ستكون أفضل إن أمسكت الخيط بقوة منذ البداية:

- والآن ما هذا الشيء القذر الذي تمتِ به لتخدعيني؟

وضعت حقيبتها فوق الراديو وبدت مندهشة فعلاً:

- أي خدعة وماذا تقصد؟

- إرسال نداء الاستغاثة.

- أي نداء؟ عن ماذا تتحدث يا جورج؟

- هل تحاولين القول إنك لم تطلبي منهم أن يبثوا نداء استغاثة يفيد بأنك مريضة جداً؟

- طبعاً لم أفعل! وكيف يمكنني ذلك؟ولم أكن مريضة ولماذا أفعل ذلك؟

وقبل أن أبدأ بالشرح، بدأت أفهم ما حدث. كان الأمر التباساً. إنني لم أسمع من الراديو سوى الكلمات القليلة الأخيرة من النداء، ومن الواضح أنها كانت هيلدا بولينغ أخرى وإنني أعتقد بوجود العشرات من هيلدا بولينغ إن فتشت بدليل الهاتف. إنّ ما حدث يعتبر من الأخطاء الفنية التي تحدث دائماً، كما أن هيلدا لم يظهر عليها القليل من تلك المخيلة التي نسبت فضلها لها. كانت الفائدة من كل تلك القضية هي الدقائق الخمس التي اعتقدت فيها أنها ميتة واكتشفت أهميتها بالنسبة لي، لكن هذا انتهى وخلص. وبينما كنت أشرح لها، لاحظت مشكلة قادمة من عينيها عندما بدأت تستجوبني بصوت عالٍ وغاضب ونكد من الدرجة الثالثة لكنه هادئ وواع.

- إذاً سمعت النداء في فندق بيرمنغهام؟

- نعم الليلة الماضية على الإذاعة الوطنية.

- ومتى غادرت بيرمنغهام؟

- هذا الصباح طبعاً.

لقد خططت الرحلة في ذهني في حالة الضرورة للكذب للخروج منها.

- غادرت في العاشرة وتناولت الغداء في كوفنتري والشاي في بدفورد.

- إذاً عرفت أنني كنت مريضة جداً ليلة أمس ولم تغادر حتى هذا الصباح؟

- لكن لم أكن أتصور أنك مريضة. ألم أشرح لك؟ اعتقدت أنها إحدى حيلك وهو الاحتمال الأكبر.

- يدهشني أنك غادرت أخيراً.

قالت ذلك بكثير من المرارة في صوتها، وعرفت أن هناك شيئاً أكبر بكثير قادم لكنها استمرت بهدوء.

- إذاً غادرت هذا الصباح. أليس كذلك؟

- نعم غادرت حوالى العاشرة، وتناولت الغداء في كوفنتري

- إذاً بماذا تفسر لي هذا؟

وفتحت حقيبتها بقوة وأخرجت قطعة من الورق كما لو كانت شيكاً مزوراً، فشعرت كأنَّ شخصاً لكمني لكمة عنيفة في معدتي. هناك دليل دون أن أعرف ما هو لكنه شيء يثبت أنني كنت هارباً مع امرأة. فقدت الحماس والثقة بنفسي، وقبل لحظة كنت متنمراً عليها وغاضباً لأنها أحضرتني من بيرمنغهام بدون مبرر، أما الآن فقد قلبت الطاولة عليَّ وبدلت

الأوضاع. ليس عليك أن تخبرني كيف كنت أبدو في تلك اللحظة لأنني أعرف أن الإدانة مكتوبة بحروف كبيرة، وإن لم أكن كذلك فعلا لكنها العادة، فدائماً أكون مخطئاً، ولم اقدر أن أبعد أثر التهمة من صوتي عندما أجبت.

- ماذا تقصدين؟ وما هذا الشيء الذي عندك؟

- اقرأه وستعرف.

كانت رسالة من شركة محاماة ومعنونة بذات عنوان الشارع الذي فيه الفندق روبتم.

سيدتي العزيزة. رداً على رسالتك المؤرخة في الثامن عشر نعتقد بوجود التباس ما. إنّ روبتم أغلق منذ سنتين، وحول المبنى كله إلى مكاتب. لم يذكر أحد أن زوجك الموصوف كان هنا. ممكن.... ولم أتابع القراءة، رأيتها كلها في لحظة وكنت غبياً كي أورط نفسي لكن بقي بصيص أمل ضعيف يمكن أن سوندر نسي أن يضع الرسالة المعنونة من فندق روبتم في البريد، وفي هذه الحالة يمكن أن أواجهها، لكن هيلدا وضعت الغطاء على تلك الفكرة.

- حسناً يا جورج، هل رأيت ما هو مكتوب في الرسالة؟ في اليوم الذي غادرت فيه كتبت إلى فندق روبتم ملاحظة قصيرة اسأل فيها إن كنت وصلت، وها أنت ترى الرد الذي وصل. لا يوجد مكان بهذا الاسم وبذات اليوم وبالبريد نفسه وصلتني رسالة منك تقول فيها إنك كنت في

الفندق وأعتقد أنك طلبت من شخص أن يودعها لك، هل هذا هو عملك في بيرمنغهام!

- لكن هيلدا انظري.

كانت شرطياً عادلاً ولم اقدر أن أنظر في عينيها، استدرت واتجهت نحو الباب.

- يجب أن أضع السيارة في المرأب.

- كلا يا جورج، لن تخلص من الموضوع بسهولة، ستبقى هنا وستستمع إلى ما سأقوله من فضلك.

- لكن اللعنة يجب أن أشغل الأضواء أليس كذلك؟ فات موعد إشعالها ولا تريدين أن نخالف بأية غرامة.

- أنا متأكدة أنك تقدر على تفسير أي شيء يا جورج والمشكلة أنني كنت أصدقك.

- لكنك تقفزين إلى النتائج مباشرة، ما الذي دفعك للكتابة إلى الفندق؟

- كانت فكرة السيدة ويللر، وهي فكرة جيدة جداً كما تبين أخيراً.

- أوه السيدة ويللر أليست هي؟ لماذا تتركين هذه المرأة الملعونة تتدخل في شؤوننا الخاصة.

- هي ليست بحاجة للتدخل فيها لكن هي التي حذرتني مما كنت تفعله هذا الأسبوع.

فقد رأيت أن اخبرها بأنها كانت على صواب. إنها

تعرف كل شيء عنك يا جورج لأن زوجها كان مثلك.

- لكن هيلدا...

نظرت إليها وقد تحول لون وجهها إلى اللون الأبيض، الطريقة التي تقوم بها عندما تظنني كنت مع امرأة أخرى. امرأة يا ليت كان ذلك صحيحاً.

يا إلهي ماذا سأفعل؟ تنتظرني أسابيع من الإزعاج المرعب والعبوس والملاحظات الخبيثة، وحتى بعد أن تعتقد بأن السلام قد حل تتأخر وجبات الطعام ويريد الأولاد معرفة السبب في ذلك. لكن ما هو البؤس العقلي الذي كان السبب الحقيقي وراء ذهابي إلى لواربينفيلد الذي لم أقدر أن أتخيله في تلك اللحظة. لو أمضيت كل الأسبوع أشرح فيه لهيلدا لماذا ذهبت إلى لواربينفيلد فلن تفهم أبداً، ومن سيفهم عليّ في ايلسمير كلها. لقد بدا الأمر يخفت ويخرج من ذهني. لماذا ذهبت إلى لواربينفيلد ؟ وهل ذهبت إلى هناك؟ لقد بدت بدون معنى في هذا الجو. لاشيء حقيقياً في إيلسيمير سوى فواتير الغاز وأقساط المدارس والملفوف المسلوق والمكتب يوم الاثنين. محاولة أخرى واحدة.

- لكن انظري هيلدا، أعرف بماذا تظنين، لكنك مخطئة وأحلف لك أنك غلطانة.

- كلا يا جورج، إن كنت مخطئة فلماذا كذبت عليّ كل هذا الكذب؟

لا خلاص من ذلك طبعاً. مشيت خطوة أو خطوتين، وكانت رائحة المعاطف الشتوية القديمة قوية جداً. لماذا هربت بتلك الطريقة؟ لماذا قلقت بشأن المستقبل والماضي؟

مهما كانت دوافعي فلم أتذكرها إلا بصعوبة لأن الحياة القديمة في لواربينفيلد والحرب وما بعد الحرب وهتلر وستالين والقنابل والبنادق الآلية وطوابير الطعام والعصي المطاطية كلها تلاشت وخبت ولم يبق سوى طابور بائس سوقي برائحة المعاطف الشتوية القديمة. سأقوم بمحاولة أخرى أخيرة.

- هيلدا اسمعيني لدقيقة واحدة فقط. انظري إلي. أنت لا تعرفين أين كنت كل هذا الأسبوع أليس كذلك...

- لا أريد أن أعرف أين كنت، لكن اعرف ماذا كنت تفعل وهذا يكفيني.

- لكن.

عبث وبلا فائدة.. طبعاً لقد وجدتني مذنباً وستتلو عليّ الآن كل ظنونها، وقد يستغرق ذلك ساعتين وبعدها تظهر ورطة أكبر على قائمة الانتظار لأنه سيخطر في بالها من أين حصلت على النقود لهذه الرحلة ثم تكتشف أنني كنت أخفي عنها سبعة عشر جنيهاً، ولا يوجد أي مانع فعلي من استمرار الشجار حتى الساعة الثالثة صباحاً، ولا فائدة تُرتجى من لعب دور البريء المظلوم. وكل ما أردته هو جبهة أقل

ضراوة فخطرت ثلاثة احتمالات في ذهني.

الاحتمال الأول أن أخبرها بما كنت أفعله فعلاً وجعلها تصدق ذلك.

الاحتمال الثاني أن أتظاهر بفقدان الذاكرة.

الاحتمال الثالث أن أدعها تستمر في الاعتقاد أنني كنت مع امرأة وأتحمل النتائج المترتبة دون تذمر.

لكن اللعنة لقد عرفت أي احتمال من هذه الاحتمالات يجب أن يكون!

إن الارتباك المزلزل الذي عمّ انكلترا عام 1939 والسنوات الثمانية عشر التي قضاها جورج بوليمغ عاملاً في شركة التأمين وزوجا لهيلدا المزعجة إضافة إلى هاجسه المرعب من نشوب حرب مدمرة أخرى أعادته للتفكير ببلدته الريفية الصغيرة وسلامها المفقود لكن عودته إلى لوارمينفيلد حررته من وهمه تماما ليتسلل إلى روحه إحباط وكآبة روايته 1984 المخيم على مرأى منه.

ISBN 978-0993-71-363-2
0 769953 713632